فرش كتاب الياقوتة في العلم والأدب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبَد ربِّه :

قد مضى قولُنا في مُخاطبة الملوك ومقاماتهم، وما تفنَّنوا فيه من بديع حِكَمهم، والتـزلّف إليهم بحسن التـوصـل ولـطيف المعـاني، وبـارع مَنـطقهم، واختلاف مذاهبهم، ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه في العلم والأدب، فإنهما القُطبان اللذان عليهـا مَدار الدين والدنيا، وفَرْقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان، وما بين الطَّبيعة المَلَكية، والطبيعة البهيمية. وهما مادَّة العقل وسرَاج البدن ونُور القلب وعماد الروح، وقد جَعل الله بلطيف قُدْرته، وعظيم سُلطانه، بعض الأشياء عَمَداً لبعض ومُتولِّداً من بعض، فإجالة الوَهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذِّكر، وخواطر الذكر تنبِّه رَويَّة الفِكْر، وروية الفكر تثير مكامن الإرادة، والإرادة تُحكم أسباب العمل، فكل شيء يقوم في العقل ويمثل في الوهم يكون ذِكرًا، ثم فِكرًا، ثم إرادةً، ثم عملاً. والعقل متقبل للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً. والعلم علمان: علم حُمل، وعلم استعمل، فما حمل منه مُضِرّ، وما استعمل نفع. والدليل على أن العقل إنما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الألوان، والسمع في تقبل الأصوات، أن العاقل إذا لم يُعلَّم شيئاً كان كمن لا عقل له، والطفل الصغير لو لم تُعرِّفه أدباً وتُلقنه كتاباً كان كأبله البهائم وأضلِّ الدواب، فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلاً قليل العلم: فهو يستعمل عقله في قلة علمه، فيكون أشد رأياً، وأنبه فطنةً، وأحسن مواردَ ومصادِرَ

---

(١) يمتاز كتاب الياقوتة في العلم والأدب بكثرة الأحاديث الصحيحة والضعيفة وقد بينا الصحيح منها والضعيف كما هو في كل كتاب وباب. وقد تم حذف بعض الأحاديث الضعيفة التي لم تشتهر بين عامة الناس كذلك تم حذف بعض الأحاديث الصحيحة إما لتكرارها في أبواب أخرى أو لحذف النص أو القصة التي وردت الأحاديث فيها.

من الكثير العلم مع قلة العقل، فإن حجتنا عليه ما قد ذكرناه من حمل العلم واستعماله، فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب.

قيل للمُهلِّب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت، ولم يُدرك ما أدركت، قال: ذلك علم حُمِل، وهذا علم استعمل.

وقد قالت الحكماء: العلم قائد، والعقل سائق، والنفس ذود، فإذا كان قائد بلا سائق هلكت الماشية، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشِمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.

فنون العلم

قال سهل بن هارون يوماً وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغب عن بعض العلم كما يُرغب عن بعض الحلال؛ فقال المأمون: قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم، فإن كان هذا أردت فوجهه الذي ذكرت؛ ولو قلتَ أيضا: إن العلم لايُدرك غوره، ولا يُسبر قعره، ولا تُبلغ غايته، ولا تُستقصى أصوله، ولا تنضبط أجزاؤه، صدقت، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم فالأهم، والأوكد فالأوكد، وبالفرض قبل النفل، يكن ذلك عدلاً قصداً ومذهباً جميلاً. وقد قال بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعاً في غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله؛ فهذا وجهٌ لما ذكرت. وقال آخرون: علم الملوك النسب والخبر، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسِّيَر، وعلم التجار الكتاب والحساب، فأما أن يسمى الشيء علماً وينهى عنه من غير أن يسأل عما هو أنفع منه فلا.

وقال محمد بن إدريس رحمه الله: العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.

وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنًّا واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم.

وقال أبو يوسف القاضي: ثلاثة لا يَسلمون من ثلاثة: من طلب الدين بالفلسفة

لم يسلم من الزندقة، ومن طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الفقر، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: العلم أكثر من أن يُحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمَثَل، قال الشاعر:

وما من كاتب إلا ستَبْقى كتابتُه وإن فنيت يداهُ
فلا تكتُب بكفِّك غير شيء يَسرُّك في القيامة أن تراه

قال الأصمعي: وَصلت بالمُلَح، ونلت بالغريب.

وقالوا: من أكثر من النحو حمَّقه، ومن أكثر من الشعر بذَّله، ومن أكثر من الفقه شرَّفه.

الحض على طلب العلم

قال النبي ﷺ: «**لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الناس عالم ومتعلِّم وسائرهم همج**»(٢).

وعنه ـ ﷺ ـ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب**(٣) **ولمدادُ**

---

(١) لا يصح مرفوعاً، وهو مأثور عن بعض السلف.

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود بلفظ: «**الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما**». قال الألباني: موضوع. انظر: الضعيفة (٥٢٢٦). وضعيف الجامع (٥٩٨٢) ويغني عن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وابن ماجة عن معاوية (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**». وقوله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**...» رواه ابن ماجة وغيره عن أنس ابن مالك.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة** =

جَرَت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله»[1].

وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام: «لُفَّ العلم حول عنقك، واكتبه في ألواح قلبك».

وقال أيضاً: «اجعل العلم مالك والأدب حليتك».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كلِّ إنسان ما يُحسن.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يَحسُن بالشيخ أن يتعلَّم؟ قال: إن كان يَحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عُروة بن الزبير رحمه الله تعالى لبَنِيه: يابَنِيَّ، اطلبوا العلم فإن تكونوا صغار قوم لا يُحتاج إليكم، فعسى أن تكونوا كبارَ قوم آخرين لا يُستغنى عنكم.

وقال ملك الهند لولده، وكان له أربعون ولداً: يابَنِيَّ، أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً، فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي.

وقال المهلب لبنيه: إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زرَّاد أو ورَّاق أراد الزراد للحرب، والوراق للعلم.

وقال الشاعر:

نعم الأنيسُ إذا خلوتَ كتابُ ... تلهو به إن خانَكَ الأحبابُ
لا مُفشيا سراً إذا استودعتَه ... وتُفاد منهُ حكمةٌ وصَوابُ

وقال آخر:

ولكل طالب لذة متنزَّه ... وألذُّ نزهة عالمٍ في كُتْبِهِ

= لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثُوا ديناراً ولا درهمًا إنما ورَّثُوا العلم، فمن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافر». حَسَّنهُ الألباني. انظر: صحيح الترغيب (٦٨).

(١) لا يصح. أورده ابن الجوزي بعدة طرق وقال: لا تصح. انظر العلل المتناهية ١/ ٨٠ باب وزن حبر العلماء بدم الشهداء.

ومرَّ رجل بعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وهو جالس في المقبرة، وبيده كتاب، فقال له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: إنه لا أوعظ من قبر، ولا أمتع من كتاب.

وقال رُؤبة بن العجاج: قال لي النسابة البكري: يارؤبة، لعلك من قوم إن سكتُّ عنهم لم يسألوني، وإن حدثتهم لم يفهموني؟ قلت: إني أرجو أن لا أكون كذلك. قال: فما آفة العلم ونكده وهُجْنته؟ قلت: تخبرني؛ قال: آفته النسيان، ونكده الكذب، وهُجْنَتُه نشره عند غير أهله.

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا[1].

وقال: ذَللتُ طالباً فعزَزتُ مطلوباً.

وقال رجل لأبي هريرة: أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه؛ قال: كفاك بترك طلب العلم إضاعة له.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل لا يُولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.

وأخذه الشاعر فقال:

تعلَّم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهِلُ

ولآخر:

تعلَّم فليس المرء يخلق عالماً ... وما عالمٌ أمراً كمن هو جاهلُ

ولآخر:

ولم أر فرعاً طال إلا بأصله ... ولم أر بَدءَ العلم إلا تعلّما

وقال آخر:

العلم يُحيى قلوب الميتين كما ... تحيا البلاد إذا ما مسها المطر

والعلم يَجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجَلِّي سوادَ الظُّلمةِ القَمَرُ

---

(١) أخرجه البيهقي بنحوه عن أنس مرفوعاً وقال الشيخ الوادعي: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علة. انظر الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ١/٥٣ وانظر المقاصد الحسنة [١٢٠٦] وصحيح الجامع [٦٦٢٤].

فضيلة العلم

حدثنا أيوب بن سليمان قال: حدثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس عن الوليد بن صالح الهاشمي عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي عن أبي مخنف عن كُميل النَّخعي قال:

أخذ بيدي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجَّبانة، فلما أسحر تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها. فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعَاع، أتباع كل ناعق، مع كل ريح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. يا كميل: العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله. يا كميل: محبَّة العلم دين يُدان به، يُكْسِبُ الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه. ياكميل: مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. إن هاهنا لِعلماً جمًّا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو وجدت له حَمَلة؛ بلى أجد لَقِناً غير مأمون، يستعمل آلة الدِّين للدنيا، ويستظهر بنعم الله على عباده، وبحُججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أو منهوماً باللذة سَلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والإدخار، ليسا من رُعاة الدين في شيء، أقربُ شبهاً بهما الأنعامُ السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه؛ اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا وأين؟ أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدرًا، بهم يحفظ الله حججه وبيِّناته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما

استوحش منه الجاهلون، وصَبحوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقة بالرفيق الأعلى. ياكميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آهٍ آه شوقاً إليهم، انصرف ياكميل إذا شئت.

قيل للخليل بن أحمد: أيهما أفضل، العلم أو المال؟ قال: العلم. قيل له: فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك، والملوك لا يزدحمون على أبواب العُلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحق الملوك، وجهل الملوك بحق العلماء.

وقال النبي ﷺ: «**فضل العلم خير من فضل العبادة**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن قليل العمل مع العلم كثير، كما أن كثيره مع الجهل قليل**»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَحْمِلُ هذا العلم من كل خَلَف عُدولُه، ينفون عنه تحريف القائلين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»(٣).

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذُل ما يصير.

وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حُكَّام على الدنيا، والعلماء حُكَّام على الملوك.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن حذيفة والحاكم عن حذيفة وعن سعد بن أبي وقاص. ونقل المناوي عن المنذري تحسينه. انظر فيض القدير ٤/ ٤٣٤ وتكملة نص الحديث: «**وخير دينكم الورع**». كما صححه الألباني. انظر صحيح الترغيب والترهيب [٦٦].

(٢) روي بنحوه أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس. قال العراقي إسناده ضعيف. انظر: تخريج علوم الدين ١/ ٣٤.

(٣) رواه البيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري. قال الألباني: الحديث مرسل لأن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري تابعي مقل كما قال الذهبي. ولكن الحديث قد روي موصولاً من طريق الصحابة، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في بغية الملتمس (٣-٤). انظر: المشكاة (٢٤٨). وفي نص الحديث كلمة القائلين وقد وردت: الغالين.

وقال أبو قِلابة: مَثَل العلماء في الأرض مَثَل النجوم في السماء، من تركها ضل، ومن غابت عنه تحيَّر.

وقال سفيان بن عيينة: إنما العالم مثلُ السراج، من جاءه اقتبس من علمه، ولا ينقصه شيئًا؛ كما لا ينقص القابس من نور السراج شيئًا.

وقيل للحسن بن أبي الحسن البصري: لم صارت الحِرفة مقرونة مع العلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتم قليلاً في قليل فأعجزكم. طلبتم المال وهو قليل في الناس في أهل العلم وهم قليل في الناس، ولو نظرتم إلى من احترف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**إنما يخشَى اللهَ مِنْ عبادِهِ العُلَمَاءُ**﴾[1] ﴿**وما يَعْقِلُها إلاَّ العالِمُون**﴾[2].

وقيل: لا تمنعوا العلم أهلَه فتظلموهم ولا تعطوه غير أهله فتظلموه. ولبعضهم:

مَنْ مَنَعَ الحكمةَ أربابَها ... أصبح في الحُكم لهم ظالمَا
وواضعُ الحكمة في غيرهم ... يكون في الحكم لها غاشمَا
سمعتُ يوماً مثلاً سائرًا ... وكنتُ في الشعر له ناظمَا:
لا خير في المرء إذا ما غدا ... لا طالباً علماً ولا عالمَا

وقيل لبعض العلماء: كيف رأيت العلم؟ قال: إذا اغتممت سَلْوتي، وإذا سَلَوتُ لذَّتي.

ولأحد الشعراء:

وإذا طلبتَ العلم فاعلم أنه ... جِملٌ فأبصر أي شيء تحملُ
وإذا علمت بأنه متفاضل ... فاشغل فؤادَك بالذي هو أفضلُ

الأصمعي قال:

أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشرُه.

---

(١) سورة فاطر آية (٢٨).
(٢) سورة العنكبوت آية (٤٣).

وأُنشِد:

لا ينفعُ العلمُ قلباً قاسياً أبدًا ... ولا يلين لفكٍّ الماضِغ الحجرُ

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلُّمه حَسَنَة، وطلبه عبادة، وبذله لأهله قُرْبَة. والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزَّين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله به قومًا فيجعلهم قادةً أئمةً تُقتفي آثارهم، ويُقتدى بفعالهم. والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة. والفكر فيه يَعدِلُ الصيامَ، ومذاكراته القيامَ، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام.

ولابن طَباطبا العلويّ:

حسودٌ مريض القلب يُخفي أنينه ... ويُضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رُحتُ في العلم طالباً ... أُجمِّع من عند الرجال فنونه
فأمْلِكُ أبكار الكلام وعُونَهُ ... وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغِنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظُنونه
فيا لائمي دعني أُغَالِ بقيمتي ... فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونه

ضبط العلم والتثبت فيه

قيل لمحمد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما هذا العلم الذي بِنتَ به عن العالم؟ قال: كنت إذا أخذت كتاباً جعلته مِدرَعة.

وقيل لرقبة بن مَصقلة: ما أكثر شكك؟ قال: محاماة عن اليقين.

وسأل شعبةُ أيوبَ السختيانيّ عن حديث، فقال: أشك فيه. فقال: شَكُّكَ أحب إليَّ من يقيني.

وقال أيوب: إن من أصحابي من أرتجي بركة دعائه، ولا أقبل حديثه.

وقالت الحكماء: علّم علمك من يجهل وتعلّم ممن يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما عَلِمْت، وعَلِمْتَ ما جهلت.

وسأل إبراهيم النخعي عامراً الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري؛ فقال: هذا والله العالم، سئل عما لا يدري، فقال: لا أدري.

وقال مالك بن أنس: إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: مَن سُئل عما لا يدري فقال: لا أدري، فقد أحرز نصف العلم.

وقالوا: العِلم ثلاثة: حديثٌ مُسْنَد، وآية محكمة، ولا أدري. فجعلوا لا أدري من العلم، إذا كان صواباً من القول.

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره.

وقالوا: عواقب المكاره محمودة.

وقالوا: الخير كله فيما أُكرهت النفوسُ عليه.

انتحال العلم

قال بعض الحكماء: لا ينبغي لأحد أن ينتحل العلم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾(١). وقال عز وجل: ﴿**وفوق كل ذي علم عليم**﴾(٢).

وقد ذُكر عن موسى بن عمران عليه السلام، أنه لما كلمه الله تعالى تكليما، ودرس التوراة وحفظها، حدثته نفسه: أن الله لم يخلق خلقاً أعلمَ منه. فهوّن الله عليه نفسه بالخضر عليه السلام(٣).

---

(١) سورة الإسراء آية (٨٥). (٢) سورة يوسف آية (٧٦).

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بلفظ: «بينما موسى يمشي في ملأٍ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بل عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيل إليه. . . . إلى آخر الحديث.

وقال مقاتل بن سليمان، وقد دخلته أُبَّهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى. فقام إليه رجل من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش، ولا أسفل الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض، وذكره الله في كتابه، أخبرني عن كلب أهل الكهف، ما كان لونه؟ فأفحمه.

وقال قتادة: ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته، ثم قال: ياغلام، هات نعلي؛ فقال: هُما في رجليك.

وأنشد أبو عمرو بن العلاء في هذا المعنى:

مَن تحلَّى بغير ما هو فيه ... فضحته شواهد الامتحان

وفي هذا المعنى:

مَن تحلَّى بغير ما هو فيه ... شَانَ ما في يديه ما يدّعيه
وإذا قلّل الدعاوى لما فيـ ... ـه أضافوا إليه ما ليس فيه
ومَحَك الفتى سيظهر للنا ... س وإن كان دائبًا يخفيه
بحسب الذي ادَّعَى ما عداه ... أنه عالم بما يفتريه

وقال شبيب بن شيبة لفتى من دوس:

لا تنازع مَن فَوقك، ولا تقل إلا بعلم، ولا تتعاط ما لم تَبْلُ، ولا يخالف لسانك ما في قلبك، ولا قولك فعلك، ولا تدع الأمر إذا أقبل، و لا تطلبه إذا أدبر.

وقال قتادة: حفظتُ ما لم يحفظ أحد، وأُنسيتُ ما لم ينس أحد، حفظت القرآن في سبعة أشهر، وقبضت على لحيتي وأنا أريد قطع ما تحت يدي فقطعت ما فوقها.

وقال عَدي بن الرِّقاع:

وعلمت حتى ما أسائِل عالماً ... عن علم واحدةٍ لكي أزدادها

شرائط العلم وما يصلح له

وقالوا: لا يكون العالم عالماً، حتى تكون فيه ثلاث خصال: لا يحتقر مَن دونه، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ على العلم ثمناً.

وقالوا: رأس العلم الخوف من الله تعالى.

وقيل للشعبي: أفتني أيها العالم؛ فقال: إنما العالم من اتّقى الله.

وقال الحسن: يكون الرجل عالماً ولا يكون عابداً، ويكون عابداً ولا يكون عاقلاً وكان مسلم بن يسار عالماً عابداً عاقلاً.

وقالوا: ما قُرن شيء إلى شيء أفضل من حِلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقالوا: من تمام آلة العالم أن يكون شديد الهيبة، رزين المجلس، وقوراً صموتاً، بطيء الالتفات، قليل الإشارات، ساكن الحركات، لا يصخب ولا يغضب، ولا يُبهر في كلامه، ولا يمسح عُثنونه[1] عند كلامه في كل حين؛ فإن هذه كلها من آفات العَيّ.

ومدح خالد بن صفوان رجلاً، فقال: كان بديع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتاً وقوراً، يهنأ الجرب، ويداوي الدَّبر، ويُقلّ الحزّ، ويُطبِّق المفصِل، لم يكن بالزَّمِرِ المروءة، ولا الهَذرِ المنطِق، متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار

وقال عبد الله بن المبارك في مالك بن أنس رضي الله عنه:

يأبَى الجوابَ فما يُراجَع هيبةً ... فالسائلون نواكس الأذقانِ

هَدْي الوقار وعِزُّ سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطانِ

---

(١) العثنون: اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين.

وقال عبد الله بن المبارك فيه أيضاً:

صَمُوت إذا ما الصمت زيَّن أهله ... وفتَّاقُ أبكار الكلام المختَّمِ
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ... وسِيطت له الآداب باللحم والدم

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، فقال له: أنىَّ لك هذا؟ فقال: لم أمنع قطُّ ياأمير المؤمنين علماً أفيده، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته.

وقالوا: لو أن أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا، لكن وضعُوه غير موضعه فقصّر في حقهم أهلُ الدنيا.

حفظ العلم واستعماله

قال عبد الله بن مسعود: تعلّموا فإذا عَلِمْتُم فاعمَلُوا.

وقال مالك بن دينار: العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته عن القلب، كما يزل الماء عن الصفا.

وقالوا: لولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يطلب العمل.

وقال الطائي:

ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... ولم يحمدوا من عامل غير عالم

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله[1].

وقالوا: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجَاوز الآذان.

وروى زياد عن مالك قال: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، وإياك والرابعة فإنها

---

(١) وروى البخاري في صحيحه: قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا». انظر: كتاب الإيمان/باب الاغتباط في العلم والحكمة جـ١ ص٢٨.

مهلكة، ولا تكون عالماً حتى تكون عاملاً، ولا تكون مؤمناً حتى تكون تقياً.

وقال أبو الحسن: كان وكيع بن الجرّاح يستحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث.

وكان الشعبي والزهري يقولان: ما سمعنا حديثاً قط وسألنا إعادته.

رفع العلم وقولهم فيه

قال عبد الله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يُرفع[١].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء**»[٢].

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما، لما ووري زيد بن ثابت في قبره: من سَرَّه أن يرى كيف يُقبض العلم فهكذا يقبض.

تحامل الجاهل على العالم

قال النبي ﷺ: «**ويل لعالم أمر من جاهله**»[٣].

وقالوا: إذا أردت أن تفحم عالما فأحضِره جاهلا.

وقالوا: لا تُناظر جاهلاً.

---

(١) روى الديلمي عن أبي هريرة بلفظ أن النبي ﷺ قال: «**تعلموا العلم قبل أن يرفع، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده**» وروى الديلمي بنحوه عن ابن مسعود. انظر كنز العمال [٢٨٨٦٥] [٢٨٨٦٦].

(٢) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**».

(٣) ورد بلفظ: «**ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه**». قال العراقي: أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١/٥٢٨.

وقالوا: لا تناظر جاهلاً ولا لجوجاً، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر.

وقال النبي ﷺ: «**ارحموا عزيزاً ذل، ارحموا غنياً افتقر، ارحموا عالماً ضاع بين جُهَّال**»(١).

وجاء كيسان إلى الخليل بن أحمد يسأله عن شيء، ففكر فيه الخليل ليجيبه، فلما استفتح الكلام؛ قال له: لا أدري ما تقول؛ فأنشأ الخليل يقول:

ولو كنتَ تعلم ما أقول عذرتَني ... أو كنتُ أجهل ما تقول عذلتُكا
لكن جهِلت مقالتي فعذلتني ... وعلمتُ أنك جاهل فعذرتُكا

تبجيل العلماء وتعظيمهم (٢)

الشعبي قال:

ركب زيد بن ثابت فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال: لاتفعل ياابن عم رسول الله ﷺ؛ فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا. قال زيد: أرني يدك، فلما أخرج يده قبلها، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بابن عم نبينا.

وقالوا: خدمة العالم عبادة.

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة، وعلى القوم عامة، وتجلس قُدَّامه، ولا تشر بيدك، ولا تغمز بعينيك،

---

(١) قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (٨٧٥): رواه ابن عدي عن ابن عباس مرفوعاً، والخطيب عن أنس مرفوعاً، وابن حِبَّان والديلمي وهو موضوع. في أسانيده كذابون ومجهولون. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنما يعرف من كلام الفضيل بن عياض. انظر: ابن الجوزي، الموضوعات ج١ ص ٢٣٦.

(٢) قال ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» وقال: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**» رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي. وقال: حديث حسن غريب صحيح. انظر: تحفة الأحوذي ج٧ ص٤٥٦ [٢٨٢٥].

ولا تقل: قال فلان خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال، فإنما هو بمنزلة النخلة المرطبة، التي لا يزال يسقط عليك منها شيء.

وقالوا: إذا جلست إلى العالم فسَلْ تفقُّهاً ولا تسل تعنتاً.

عويص المسائل

الأوزاعيُّ عن عبد الله بن سعد عن الصُّنابحيّ عن معاوية بن أبي سفيان قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأُغلوطات. قال الأوزاعي: يعني صعاب المسائل[1].

وكان ابن سيرين إذا سُئل عن مسألة فيها أغلوطة، قال للسائل: أمسكها حتى نسأل عنها أخاك إبليس.

وسأل عمر بن قيس مالكَ بن أنس عن مُحرِم نزع نَابيَ ثعلب، فلم يرد عليه شيئاً.

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان في ثوبه أو في خُفّه أو في جبهته من حصى المسجد؛ فقال: ارم بها؛ قال الرجل: زعموا أنها تصيح حتى تُرد إلى المسجد؛ فقال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها؛ فقال الرجل: سبحان الله! ولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح؟

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[2] كيف هذا الاستواء؟ قال: الاستواء معقول والكيف مجهول، ولا أظنك إلا رجل سوء.

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ قال: يكفيه منها كوكب الجوزاء.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن معاوية. قال الألباني: سنده ضعيف فيه عبدالله بن سعد وهو مجهول كما قاله الذهبي. انظر: المشكاة (٢٤٣) وانظر: ضعيف الجامع (٦٠٣٥).

(٢) سورة طه آية ٥.

وسُئل عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السماء والأرض؟ فقال: أين: تُوجب المكان، وكان الله عزّ وجل ولا مكان[١].

التصحيف

وذكر الأصمعي رجلاً بالتصحيف، فقال: كان يسمع فيعي غير ما يسمع، ويكتب غير ما وعى، ويقرأ في الكتاب غير ما هو فيه.

وذكر آخر رجلاً بالتصحيف، فقال: كان إذا نسخ الكتاب مرتين عاد سُريانيا.

طلب العلم لغير الله

وقال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بشر الناس؟ قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: العلماء إذا فسدوا**»[٢].

وقال الفُضيل بن عياض: كان العلماء ربيع الناس، إذا رآهم المريض لم يسره أن يكون صحيحاً، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنياً، وقد صاروا اليوم فتنة للناس.

وقال محمد بن واسع: لأن تطلب الدنيا بأقبحَ مما تطلب به الآخرة خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة.

وقال الحسن: العلم علمان، علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذاك حجة الله على عباده.

---

(١) روى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال: **كان الله ولم يكن شيء قبله**» انظر شرح الطحاوية ص١٣٣ [٧٩].

(٢) رواه البزار عن معاذ رضي الله عنه بلفظ: «**شرار الناس شرار العلماء في الناس**». كنز العمال (٢٩٠٠٦).

وقال مالك بن دينار: من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة.

وقال النبي ﷺ: «**من طلب العلم لأربع دخل النار: من طلبه ليباهي به العلماء، وليماري به السفهاء، وليستميل به وجوه الناس إليه، أو ليأخذ به من السلطان**»(١).

باب من أخبار العلماء والأدباء

أملى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخُشَني. أن عبد الله بن عباس سئل عن أبي بكر رضي الله عنه، فقال: كان والله خيراً كله مع الحدة التي كانت فيه. قالوا: فأخبرنا عن عمر رضوان الله عليه. قال: كان والله كالطير الحذر الذي نُصب فخٌ له فهو يخاف أن يقع فيه. قالوا: فأخبرنا عن عثمان رضوان الله عليه. قال: كان والله صوّاماً قوّاماً. قالوا: فأخبرنا عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال: كان والله ممن حوى علماً وحِلماً. حسبك من رجل أعزّته سابقته وقدّمته قرابته من رسول الله ﷺ، فقلما أشرف على شيء إلا ناله. قالوا: يقال إنه كان محدوداً؛ قال: أنتم تقولونه.

وذكروا أن رجلاً أتى الحسن، فقال: أبا سعيد، إنهم يزعمون أنك تُبغض علياً، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، ورَبَّانيَّ هذه الأمة، وذا فضلها، وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنَّئومة عن أمر الله، ولا بالمُلولة في حق الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مُونقة، وأعلام بينة، ذاك علي بن أبي طالب يالُكع.

وسُئل خالد بن صفوان عن الحسن البصري، فقال: كان أشبه الناس علانية بسريرة، وسريرة بعلانية، وآخذَ الناس لنفسه بما يأمر به غيره. ياله من رجل استغنى

---

(١) رواه ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار**». قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الترغيب [١٠٤].

عما في أيدي الناس من دنياهم، واحتاجوا إلى ما في يديه من دينهم.

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان، فقال عروة: ما أحسن هذا البستان! فقال له عبد الملك: أنت والله أحسن منه، إن هذا يؤتي أُكُلَه كل عام، وأنت تؤتي أكلك كل يوم.

وذُكر الصحابة عند الحسن البصري، فقال: رحمهم الله، شهدوا وغبنا، وعلموا وجهلنا، فما اجتمعوا عليه اتبعنا، وما اختلفوا فيه وقفنا.

وقال جعفر بن سليمان: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: مارأيت أحداً أقشفَ من شُعْبَة، ولا أعبد من سفيان، ولا أحفظ من ابن المبارك.

وقال: ما رأيت مثل ثلاثة: عطاء بن أبي رباح بمكة، ومحمد بن سيرين بالعراق، ورجاء بن حَيوة بالشام.

وقيل لأهل مكة: كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم؟ فقالوا: كان مثل العافية التي لا يُعرف فضلها حتى تُفقد.

وكان عطاء بن أبي رباح أسود أعور أفطس أشلّ أعرج ثم عمى، وأمُّه سوداء تسمى بَرَكة.

وكان الأحنف بن قيس أعور أعرج، ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه.

وقال الشعبي: القضاة أربعة: عُمر، وعليٌّ، وعبد الله، وأبو موسى.

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيهاً شاعرًا، وكان أحد السبعة من فقهاء المدينة.

وقال الزُّهري: كنت إذا لقيت عُبيد الله بن عبدالله، فكأنما أفجُر به بحراً.

وقال عمر بن عبد العزيز: وددت لو أن لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود لم يفُتني.

ولقيه سعيد بن المسيب فقال له: أنت الفقيه الشاعر؟ قال: لابد للمصدور أن ينفُث.

وكتب عبيد الله بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز، وبلغه عنه شيء يكرهه:

أبا حفصٍ أتاني عنك قولٌ ... قُطعتُ به وضاق به جوابي
أبا حفص فلا أدري أرغمي ... تريد بما تحاول أم عتابي
فإن تك عاتباً نُعتِب وإلاّ ... فما عُودي إذاً ببراع غاب
وقد فارقتُ أعظم منك رُزءاً ... وواريت الأحِبة في التراب
وقد عزُّوا عليَّ وأسلموني ... معاً فلبست بعدهم ثيابي

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم عالماً كثير الدراسة للكتب وربما قال الشعر، ومن قوله:

هل أنت منتفع بعِلـ ... ـمك مَرةً والعلم نافع
ومِنَ المشير عليك بالـ ... ـرأي المسدَّد أنت سامع
الموت حوضٌ لا محا ... لة فيه كل الخلق شارع
ومن التُّقى فازرع فإنَّـ ... ـك حاصدٌ ما أنت زارع

وكان حَيوة بن شُريح يقعد للناس، فتقول له أمه: قم ياحيوة ألق الشعير للدجاج، فيقوم.

وقال الحسن: كان يحيى بن اليمان يصلي بقومه، فتعصب عليه قومٌ منهم. فقالوا: لا تصل بنا، لا نرضاك، إن تقدمت نحيَّناك: فجاء بالسيف فسل منه أربع أصابع ثم وضعه في المحراب، وقال: لا يدنو مني أحدٌ إلا ملأت السيف منه؛ فقالوا: بيننا وبينك شَريك؛ فقدموه إلى شريك فقالوا: إن هذا كان يصلي بنا وكرهناه؛ فقال لهم شريك: من هو؟ قالوا: يحيى بن اليمان؛ فقال: ياأعداء الله، وهل بالكوفة أحد يُشبه يحيى؛ لا يصلي بكم غيره. فلما حضرته الوفاة، قال لابنه داود: يابني، كاد ديني يذهب مع هؤلاء، إن اضطروا إليك بعدي فلا تُصلِّ بهم.

وقال يحيى بن اليمان: تزوجت أم داود وما كان عندي ليلة العرس إلا بطيخة؛ أكلت أنا نصفها وهي نصفها، وولدت داود، فما كان عندنا شيء نلفه فيه، فاشتريت له كُسوة بحبَّتين، فلففناه فيها.

وقال الحسن بن محمد: كان لعلي ضفيرتان[١]، ولابن مسعود ضفيرتان.

وذكر عبد الملك بن مروان رَوْحاً، فقال: ما أُعطى أحدٌ ما أُعْطِي أبو زرعة، أُعْطِي فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعة أهل الشام.

وقال ابن أبي الحَوَاريّ: قلت لسفيان: بلغني في قول الله عز وجل: ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[٢] أنه الذي يلقى الله وليس في قلبه أحدٌ غيره. قال: فبكى وقال: ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا.

وكان يجلس إلى سفيان فتى كثير الفكرة، طويل الإطراق، فأراد سفيان أن يحركه ليسمع كلامه، فقال: يافتى، إن من كان قبلنا مرُّوا على خيل عِتاق وبقينا على حَمير دَبِرَة. قال: ياأبا عبد الله، إنا كُنَّا على الطريق فما أسرع لحوقنا بالقوم.

وكان إبراهيم النخعي في طريق فلقيه الأعمش فانصرف معه، فقال له: ياإبراهيم، إن الناس إذا رأونا قالوا: أعمش وأعور؛ قال: وما عليك أن يأثموا ونُؤجر؛ قال: وما عليك أن يسلموا ونسلم.

وقال محمد بن مُناذِر:

ومن يَبغِ الوَصاةَ فإنَّ عندي ... وصاةً للكُهُول وللشباب
خذوا عن مالك وعن ابن عون ... ولا تروا أحايث ابن داب

وقال آخر:

أيها الطالب علماً ... إيتِ حمَّادَ بن زيد
فاقتبس حِلماً وعلماً ... ثم قَيِّده بقيد

---

(١) الضفيرة: الضفر: نسج الشعر ومثله التضفير. والضفير: العقيصة.

(٢) سورة الشعراء آية (٨٩).

قولهم في حَمَلة القرآن

وقال رجل لإبراهيم النخعي: إني أختم القرآن كل ثلاث؛ قال: ليتك تختمه كل ثلاثين وتدري أي شيء تقرأ.

وقال الحارث الأعور: حدثني عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي مَن تركه مِن جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدْى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر العظيم، والصراط المستقيم**»، خذها إليك يا أعور[١].

وقيل للنبي ﷺ، عجَّل عليك الشيبُ يارسول الله؛ قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود: الحواميم ديباج القرآن[٣].

وقال: إذا رتعتُ رتعت في رياض دَمثة أتأنَّق فيهن.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تنزل علينا الآية في عهد رسول الله ﷺ فنحفظ حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، قبل أن نحفظها[٤].

---

(١) رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال. وقال المباركفوري: وأخرجه الدارمي وإسناده مجهول. انظر تحفة الأحوذي/ باب ما جاء في فضل القرآن ٨/٢١٨.

(٢) قال العجلوني رواه الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن عقبة بن عامر. كشف الخفا [١٥٧٢] وقال الحوت: «له عدة طرق منها مرسل ومنها مرفوع فهو حسن» انظر أسنى المطالب [٧٩٧] وانظر صحيح الجامع [٣٧٢٠] والصحيحة [٩٥٥].

(٣) رواه الحاكم عن ابن مسعود موقوفاً. قال الألباني: موضوع. انظر: الضعيفة [٣٥٣٧]

(٤) روى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل. وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله =

وقال ﷺ: «**سيكون في أُمتي قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هم شر الخلق والخليقة**»(١).

وقال: إن الزبانية لأسرع إلى فُسَّاق حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان؛ فيشكون إلى ربهم، فيقول: ليس من علم كمن لم يعلم(٢).

وقال الحسن: حملة القرآن ثلاثة نفر: رجل اتخذه بضاعة ينقله من مِصْر إلى مصر يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه، وضيّع حدوده، واستدر به الولاة، واستطال به على أهل بلده، وقد كثر هذا الضرب في حملة القرآن، لا كثّرهم الله عز وجل، ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليلته، وهملت عيناه، وتسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن، ووالله لهذا الضرب من حَمَلَة القرآن أقلّ من الكِبريت الأحمر، بهم يسقي الله الغيث، ويُنزِّل النصر، ويدفع البلاء.

العقـــل

وقال سحبان وائل: العقل بالتجارب، لأن عقل الغريزة سُلَّم إلى عقل التجربة.

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.

= عنه قال: كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه، فقيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم. انظر: حياة الصحابة للعلامة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ج٣ ص١٧٦ الطبعة السادسة ـ ١٤١٠هـ ـ دار القلم ـ دمشق.

(١) رواه مسلم عن أبي ذر (رضي الله عنه) بنحوه. انظر: صحيح مسلم/كتاب الزكاة [١٥٨].

«**هُمْ شرُّ الخلق والخليقة**» الخلق الناس والخليقة البهائم. وقيل: هما بمعنى واحد، ويريد بهما جميع الخلائق.

(٢) قال الشوكاني: «قال ابن حبان هو موضوع. وفي إسناده من يتهم بالوضع. وقد ذكر له في اللآلىء طرقاً لا يصح منها شيء» انظر الفوائد المجموعة [٩٢٦].

وعلى العاقل أن يكون عالماً بأهل زمانه مالكاً للسانه مقبلاً على شانه.

وقال الحسن البصري: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكَّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الأحمق من وراء لسانه فإذا أراد أن يقول قال، فإن كان له سكت، وإن كان عليه قال.

وقال محمد بن الغاز:

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك، فتكلم عنده بكلام أعجب سليمان، فأراد أن يختبره لينظر أعقله على قدر كلامه أم لا، فوجده مضعوفاً فقال: فضْل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هُجْنَة، وخير الأمور ما صدَّق بعضها بعضاً، وأنشد:

وما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومعقوله والجسم خلق مُصوَّرُ
فإن تر منه ما يروق فربَّما ... أمرَّ مذاقُ العود والعودُ أخضرُ

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول زهير:

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعْجِب ... زيادتُه أو نقصُه في التكلُّم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه فقال: كان والله أفضل من أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدع، وهو القائل: لست بِخَبٍّ والخبُّ لا يخدعني.

وقال زياد: ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر احتال له، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه.

وقيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذكر ابن عباس رضي الله عنهما فقال: لقد كان ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق.

وقالوا: العاقل فطن متغافل.

وقال معاوية: العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل.

وقال المغيرة بن شعبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ عزله عن كتابة أبي موسى: أعن عجز عزلتني أم عن خيانة؟ فقال: لا عن واحدة منهما، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك.

وقال معاوية لعمرو بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه؛ فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط أريد الخروج منه.

وقال الأصمعي:

ما سمعت الحسن بن سهل مذ صار في مرتبة الوزارة يتمثل إلا بهذين البيتين:

وما بقيَتْ من اللذات إلا ... محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كانوا إذا ذُكروا قليلاً ... فقد صاروا أقلَّ من القليل

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر، ويروى لمحمود الورَّاق:

لعمرك ما بالعقل يُكتسَبُ الغِنَى ... ولا باكتساب المال يُكْتَسَبُ العقلُ
وكم من قليل المال يُحمد فضله ... وآخر ذي مال وليس له فضلُ
وما سبقت من جاهل قطُّ نِعمةٌ ... إلى أحدٍ إلا أضرَّ بها الجهلُ
وذو اللبِّ إن لم يُعْطِ أحمدتَ عقله ... وإن هو أعطى زانه القولُ والفعلُ

وقال محمد بن مُناذر:

وترى الناس كثيراً فإذا ... عُدَّ أهلُ العقل قَلُّوا في العددْ
لا يَقِلُّ المرء في القصد ولا ... يعدم القلة من لم يقتصد
لا تَعِدْ شراً وعِدْ خيراً ولا ... تُخلف الوعد وعجّل ما تَعِدْ
لا تقل شعراً ولا تَهْمُم به ... وإذا ما قلت شعراً فأَجِدْ

ولآخر:

يُعرف عقل المرء في أربعٍ ... مِشيتُه أولُها والحَرَك
ودَوْرَ عينيه وألفاظُه ... بعدُ عليهن يدور الفلك

وربما أخلفنَ إلا التي ... آخرها منهنَّ سُمِّين لك
هذي دليلات على عقله ... والعقل في أركانه كالملك
إن صحَّ صَحَّ المرءُ من بعده ... ويهلك المرء إذا ما هَلَك
فانظر إلى مخرج تدبيره ... وعقلِه ليس إلى ما ملك

وكان هَوذة بن علي الحَنَفيّ يجيز لَطيمة كسرى في كل عام ـ واللطيمة عِيرٌ تحمل الطِّيب والبَزّ ـ فوفد على كسرى، فسأله عن بنيه، فسمى له عدداً؛ فقال: أيهم أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يرجع، والمريض حتى يُفيق.

وبالعقل أدرك الناس معرفة الله عز وجل، ولا يشك فيه أحد من أهل العقول، يقول الله عز وجل في جميع الأمم: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله**﴾(١). وقال أهل التفسير في قول الله: ﴿**قسمٌ لذي حجر**﴾(٢) قالوا: لذي عقل.

وقال الحسن البصري: لو كان للناس كُلِّهم عقولٌ خربت الدنيا.

وقال الشاعر:

يُعدّ رفيع القوم من كان عاقلاً ... وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله ... وما عاقل في بلدةٍ بغريب

وقالوا: العاقل يَقِي ماله بسلطانه، ونفسه بماله، ودينه بنفسه.

وقال الأحنف بن قيس: أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل.

وكان يقال: العقل ضربان: عقل الطبيعة وعقل التجربة، وكلاهما يُحْتَاجُ إليه ويؤدي إلى المنفعة.

وكان يقال: لا يكون أحدٌ أحبَّ إليك من وزير صالح وافر العقل كامل الأدب حنيك السن بصير بالأمور، فإذا ظَفِرتَ به فلا تُباعده، فإن العاقل ليس يمانعك نصيحته وإن جَفتْ.

---

(١) سورة الزخرف آية (٨٧).

(٢) سورة الفجر آية (٥).

وكان يقال: أجلُّ الأشياء أصلاً وأحلاها ثمرة، صالح الأعمال، وحسن الأدب، وعقل مستعمل.

وكان يقال: التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في الزيادة. ومما يؤكد هذا قول الشاعر:

ألم تر أنَّ العقل زَيْنٌ لأهلِه وأنَّ كمال العقل طولُ التجاربِ

ومكتوب في الحكمة: إن العاقل لا يغترّ بمودة الكذوب ولا يثق بنصيحته.

ويُقال: من فاته العقل والفتوة فرأس ماله الجهل.

ويقال: من عيّر الناس الشيء ورضِيه لنفسه فذاك الأحمق نَفْسُه.

وكان يقال: العاقل دائم المودَّة، والأحمق سريع القطيعة.

وكان يقال: صديق كل امريء عقله، وعدوه جهله.

وكان يقال: المُعْجِبُ لحوح والعاقل منه في مؤونة. وأما العُجب فإنه الجهل والكِبر.

وقيل: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

ويقال: ما شيء بأحسن من عقل زانه حلم، وحِلم زانه علم، وعلم زانه صدق، وصدق زانه عمل، وعمل زانه رفق.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ليس العاقل من عرف الخير من الشر، بل العاقل من عرف خير الشرَّين.

ويقال: عدو عاقل أحب إليّ من صديق جاهل.

وكان يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل إليه، وإياك وفراقه إذا كان كريماً، ولا عليك أن تصحب العاقل وإن كان غيرَ محمود الكرم، لكن احترس من شَين أخلاقه وانتفع بعقله؛ ولا تَدَع مواصلة الكريم وإن لم تحمد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، وفرَّ الفرار كله من الأحمق اللئيم.

وكان يقال: قطيعة الأحمق مثل صلة العاقل.

وقال الحسن : ما أودع الله تعالى امرأً عقلاً ما إلا استنقذه به يوماً ما.

وقال النبي ﷺ: «**كرم الرجل دِيْنُه، ومروءته عقله، وحسبه خُلُقه**»(١).

وقال بُزرجمهر: لا ينبغي للعاقل أن ينزل بلداً ليس فيه خمسة: سلطان قاهر، وقاض عدْل، وسوق قائمة، ونهر جار، وطبيب عالم.

وقال أيضا: العاقل لا يرجو ما يُعنِّف برجائه، ولا يسأل ما يخاف منعه، ولا يمتهن ما لا يستعين بالقدرة عليه.

سُئل أعرابي: أي الأسباب أعون على تذكية العقل وأيها أعون على صلاح السيرة؟ فقال: أعونها على تذكية العقل التعلم، وأعونها على صلاح السيرة القناعة.

وسئل عن أجود المواطن أن يُختبر فيه العقل، فقال: عند التدبير.

وسئل: هل يعمل العاقل بغير الصَّواب؟ فقال: ما كل ما عمل بإذن العقل فهو صواب.

وسئل: أي الأشياء أدل على عقل العاقل؟ قال: حُسْنُ التَّدبير.

وسئل: أي منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب.

وقال بُزُرجَمهر: أفْرَهُ ما يكون من الدواب لا غنى بها عن السَّوْط، وأعفُّ من تكون من النساء لا غنى بها عن الزوج، وأعقل من يكون من الرجال لا غنى به عن مشورة ذوي الألباب.

سئل أعرابي عن العقل متى يُعرف؟ قال: إذا نهاك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل.

ومن جلالة قدر العقل أن الله تعالى لم يخاطب إلا ذوي العقول فقال عز وجل: ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾(٢). وقال: ﴿ **لينذر من كان حياً**﴾(٣). أي: عاقلاً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وهو ضعيف قاله الألباني، انظر ضعيف الجامع [٤١٦٨] والضعيفة [٢٣٦٩]. وانظر أسنى المطالب [١٠٧١].

(٢) سورة الرعد آية (١٩).

(٣) سورة يس آية (٧٠).

وقال: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[١]. أي: لمن كان له عقل.

وقال ﷺ: «قِوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[٢].

وإذا كان العقل أشرف أعلاق النفس، وكان بقدر تمكنه فيها يكون سموها لطلب الفضائل وعلوها لابتغاء المنازل، كانت قيمة كل امريء عقله، وحليته التي يَحسُن بها في أعين الناظرين فضله.

ولعبد الله بن محمد:

تأمل بعيْنَيْك هذا الأنام ... وكُنْ بعض من صانَهُ نُبلُه
فحِليةُ كلِّ فتى فضلُه ... وقيمة كل امريء عقله
ولا تتكل في طِلاَب العُلا ... على نسبٍ ثابتٍ أصلهُ
فما من فتى زانه أهله ... بشيء وخالفه فعله

ويقال: العقل إدراك الأشياء على حقائقها، فمن أدرك شيئًا على حقيقته فقد كَمُل عقله.

وقيل: العقل مرآة الرجل. أخذه بعض الشعراء فقال:

عقل هذا المرء مِرآ ... ةٌ ترى فيها فعالَه
فإذا كان عليها ... صدأ فهو جَهَالَه
وإذا أخلصه الله ... ـه صقالاً وصفا له
فهي تعطي كل حيٍّ ... ناظرٍ فيها مثالَه

ولآخر:

لا تراني أبداً أُكْـ ... ـرِمُ ذا المال لمالِه
لا ولا تُزرِي بمن يعـ ... ـقل عندي سوءُ حاله
إنما أقضى على ذا ... ك وهذا بفعاله

---

(١) سورة ق آية (٣٧).

(٢) ذكره السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة (ص٦) وقال الحوت: «تفرد به حامد بن آدم متهم بالوضع كما ذكره مخرجه البيهقي» انظر اسنى المطالب [١٠٠٣] وانظر الضعيفة [٣٧٠].

أنا كالمرآة ألقى كل وجه بمثاله
كيفما قلَّبني الدهـ ـر يجدني من رجاله

ولبعضهم :

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنه وإن كان ذا نبل على الناس هيِّنُ
وإن كان ذا عقل أُجِلَّ لعقله وأفضل عَقْلٍ عَقْلُ من يتديَّنُ

وقال آخر:

إذا كنت ذا عقل ولم تك ذا غنى فأنت كذي رَجْل وليس له بغلُ
وإن كنت ذا مال ولم تك عاقلاً فأنت كذى بغل وليس له رَجْلُ

ويقال: إن العقل عين القلب، فإذا لم يكن للمرء عقل كان قلبه أكْمَه.

وقال صالح بن جَناح:

ألا إن عقل المرء عينا فؤاده وإن لم يكن عقل فلا يبصر القلبُ

ولعبد الله بن محمد :

ثلاثٌ من كُنَّ فيه حوى الفضل وإن كان راغباً عن سواها: صحة العقل والتمسك بالعدل وتنزيه نفسه عن هواها.

ولمحمد بن الحسن بن دُريد:

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقلُه فقد نجا

وقال مَسلمة بن عبد الملك: ما قرأت كتاباً قط لأحد إلا عرفت عقله منه.

وقال يحيى بن خالد: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها.

واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً، فقيل له: إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك؛ فأخذ العهد منه وقال: ما أراك تضبط عملك لحداثتك؛ فقال الفتى:

وليس يزيد المرءَ جهلاً ولا عمى إذا كان ذا عقل حداثةُ سِنِّه

فقال عمر: صدق، ورد عليه عهده.

وقال جَثّامة بن قيس يصف عاقلاً:

بصيرٌ بأعقابِ الأمور كأنّما ... تخاطبه من كل أمْرٍ عواقبُه

ولغيره في المعنى:

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنّما ... يرى بصواب الرأي ما هو واقع

وقال شَبيبُ بن شيبة لخالد بن صفوان: إني لأعرف أمرًا لا يتلاقى فيه اثنان إلا وجب النُّجح بينهما؛ قال له خالد: ما هو؟ قال العقل، فإن العاقل لايسأل إلا ما يجوز، ولا يُردُّ عما يمكن.

وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد، يابنيّ احذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدواً؛ ويوشك الجاهل أن تورِّطك مشورتُه في بعض اغترارك فيسبق إليك مكر العاقل؛ وإياك ومعاداة الرجال، فإنك لا تَعْدَ مَنَّ منها مكر حليم عاقل، أو معاندة جاهل.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا مالَ أعودُ من عقل، ولا فقر أضرَّ من جهل.

ويقال: لا مروءة لمن لا عقل له.

وكان يقال: بالعقل تُنال لذة الدنيا، لأن العاقل لا يسعى إلا في ثلاث: مَزِيَّة لمعاش، أو منفعة لمعاد، أو لذة في غير مُحَرَّم.

ولبعضهم:

إذا أحببت أقواماً فلاصق ... بأهل العقل منهم والحياءِ

فإنَّ العقل ليس له إذا ما ... تفاضلت الفضائلُ من كِفاء

لمحمد بن يزيد:

وأفضل قَسْم الله للمرء عقلُه ... وليس من الخيرات شيء يُقاربُه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقلَهُ ... فقد كمُلت أخلاقة ومآربه

يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمه وتجاربه

ومن كان غلَّاباً بعقل ونجدة ... فذو الجَدِّ في أمر المعيشة غالبه

فزَين الفتى في الناس صِحَّةُ عَقْلِه وإن كان محصوراً عليه مكاسبه
وشَين الفتى في الناس قِلَّة عقلِه وإن كرُمت أعراقُه ومَنَاسِبُه

ولبعضهم :

العقل يأمر بالعفاف وبالتقى وإليه يأوي الحِلم حين يؤولُ
فإن استطعت فخذ بفضلك فضله إن العقول يُرى لها تفضيل

ولبعضهم :

إذا جُمِّع الآفات فالبخل شرُّهَا وشرٌّ من البُخْلِ المواعيدُ والمَطلُ
ولا خير في عقل إذا لم يكن غنى ولا خير في غِمدٍ إذا لم يكن نَصْلُ
وإن كان للإنسان عقل فعقله هو النصل والإنسان من بعده فَضْلُ

ولبعضهم :

يُمثِّل ذو العقل في نفسه مصائبَه قبل أن تَنْزلا
فإن نزلت بغتةً لم تَرُعْه لما كان في نفسه مثَّلا
رأى الهَمَّ يُفضي إلى آخر فصيَر آخرهْ أوَّلا
[وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا]

الحكمة

قال عليه الصلاة والسلام: «**الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها ممن سمعها، ولا يبالي من أي وعاء خرجت**»(١).

وقال الحكماء: لا يطلب الرجل حكمة إلا بحكمة عنده.

وقالوا: إذا وجدتم الحكمة مطروحة على السِّكك فخذوها.

وقال زياد: أيها الناس لا يمنعكم سوءُ ما تعلمون منَّا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منَّا، فإن الشاعر يقول:

اعمل بعِلْمي وإن قصَّرتُ في عملي ينفعك قولي ولا يضرُرْك تقصيري

(١) لا يصح أخرجه الترمذي وابن ماجه بلفظ: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها**».
وقال الترمذي: هذا حديث غريب،وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: هذا حديث لا يصح.

نوادر من الحكمة

قيل لقُس بن ساعدة: ما أفضل المعرفة؟ قال معرفة الرجل نفسه؛ قيل له: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه؛ قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه.

وقال الحسن: التقدير نصف الكسب، والتؤدة نصف العقل، وحسن طلب الحاجة نصف العلم.

وقالوا: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كحُسْن الخُلُق، ولا غنى كرضا عن الله، وأحق ما صُبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

وقالوا: أفضل البر الرحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقوق مكاتمة الأَدْنين، ورأس العقل الإصابة بالظن.

وقالوا: التفكُّر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والعلم حياة، والأوّل سابق، والآخر لاحق، والسعيد من وُعظ بغيره.

حَدَّث أبو حاتم قال: حدثني أبو عبيدة قال: حدثني غير واحد من هوازن من أُولي العلم، وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية أو جدُّه، قالوا: اجتمع عامر بن الظرب العدواني، وَحُمَمَة بن رافع الدَّوْسي ـ ويزعم النساب أن ليلى بنت الظرب أم دَوْس، وزينب بنت الظَّرب أم ثقيف وهو قيسي ـ عند ملك من ملوك حمير، فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان. فقال عامر لحممة: أين تحب أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرَّثْية العَديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستَضعف الهضيم. قال: من أحق الناس بالمقت؟ قال: الفقير المختال، والضعيف الصوّال، والعييّ القوّال، قال: فمن أحق الناس بالمنع؟ قال: الحريص الكانِد، والمستميد الحاسد، والملحف الواجِد. قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟ قال: من إذا أُعطي شكر، وإذا مُنع عذر، وإذا مُطل صبر، وإذا قَدُمَ العهدُ ذكر. قال: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إذا قرُب مَنح، وإذا بَعُد مدح، وإذا ظُلم صفح، وإذا ضُويق سمح.

قال: من ألأم الناس؟ قال: من إذا سأل خضع، وإذا سُئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره جشع، وباطنه طبع. قال: فمن أحلم الناس؟ قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تُطْغِهِ عِزَّة الظَّفر. قال: فمن أحزم الناس؟ قال: من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نُصب عينيه، ونبذ التهَيُّب دبر أذنيه. قال. فمن أخرق الناس؟ قال: من ركب الخطار، واعتسف العِثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار. قال: من أجود الناس؟ قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المعهود. قال: من أبلغ الناس؟ قال: من جلَّى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبَّق المفصل قبل التحزيز. قال: من أنعم الناس عيشاً؟ قال: من تحلَّى بالعفاف، ورضي بالكَفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف. قال: فمن أشقى الناس؟ قال: من حسد على النِّعم، وسخط على القِسَم، واستشعر الندم، على فوت ما لم يحتم. قال: من أغنى الناس؟ قال: من استشعر اليأس، وأظهر التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم. قال: فمن أحكم الناس؟ قال: من صمت فاذَّكر، ونظر فاعتبر، ووُعظ فازدجر. قال: من أجهل الناس؟ قال: من رأى الخُرْق مغنماً، والتجاوز مغرماً.

وقال أبو عبيدة: الخَلَّة: الحاجة، والخُلَّة: الصداقة. والكاند: الذي يكفر النعمة، والكنود: الكفور، والمستميد مثل المستمير وهو المستعطى. ومنه اشتقاق المائدة. لأنها تُماد. وكنع: تقبَّض؛ يقال منه: تكنَّع جلدُه، إذا تقبَّض. يريد أنه مُمسك بخيل. والجشع: أسوأ الحرص. والطبع: الدَّنس. والاعتساف: ركوب الطريق على غير هداية، وركوب الأمر على غير معرفة. والمزيز: من قولهم: هذا أمزّ من هذا، أي أفضل منه وأزيد. والمطبَّق من السيوف: الذي يصيب المفاصل لا يجاوزها.

وقال عمرو بن العاص: ثلاثٌ لا أناة فيهن: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكُفء.

وقالوا: ثلاثة لا بقاء لها: ظلُّ الغمام، وصُحْبة الأشرار، والثناء الكاذب.

وقالوا: ثلاثة لا تكون إلا في ثلاثة: الغنى في النفس، والشرف في التواضع، والكرم في التقوى.

وقالوا: ثلاثة لا تُعرف إلا عند ثلاثة ذو البأس لا يعرف إلا عند اللقاء، وذو الأمانة لا يعرف إلا عند الأخذ والعطاء، والإخوان لا يُعرفون إلا عند النوائب.

وقالوا: من طلب ثلاثة لم يسلم من ثلاثة: من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الإفلاس، ومن طلب الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة، ومن طلب الفقه بغرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقالوا: عليكم بثلاث: جالسوا الكبراء، وخالطوا الحكماء، وسائلوا العلماء.

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أخوف ما أخاف عليكم شُحٌّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وقال الرِّياحي في خطبته بالمِربَد: يا بَني رِياح، لا تَحْقِروا صغيراً تأخذون عنه، فإني أخذتُ من الثعلب روغانه، ومن القرد حكايته، ومن السِّنَّور ضَرَعَه، ومن الكلب نُصرتَه. ومن ابن آوى حَذَرَهُ؛ ولقد تعلمت من القمر سير الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين.

وقال أبو عمرو بن العلاء: خُذْ الخير من أهله، ودع الشرَّ لأهله.

وقالوا: إذا قَدُمت المصيبة تُرِكَتْ التعزية، وإذا قدُم الإخاء سَمُج الثناء.

وفي كتاب للهند: ينبغي للعاقل أن يدع التماس ما لا سبيل إليه، لئلا يُعَد جاهلاً، كرجل أراد أن يُجْرِي السفن في البر والعِجْل في البحر، وذلك ما لا سبيل إليه.

وقالوا: إحسان المسيء أن يكف عنك أذاه، وإساءة المحسن أن يمنعك جدواه.

وقال الحسن البصري: اقدعوا هذه النفوس فإنها طُلعة، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدُّثور، فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية.

يقول حادثوها بالحكمة كما يحادث السيف بالصِّقال، فإنها سريعة الدثور يريد الصدأ الذي يعرض للسيف. واقدعوها: من قدعتَ أنف الجمل، إذا دفعتـه. فإنها طُلَعَة، يريد متطلِّعَة إلى الأشياء.

البلاغة وصفتها

قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلَّغك الجنة، وعدل بك عن النار؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فما بصَّرك مواضع رشدك، وعواقب غَيِّك؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يُحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع؛ ومن لم يحسن أن يسمع لم يحسن أن يسأل، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي ﷺ: «**إنا معشر النَّبيِّين بكاء**»[1] أي قليلو الكلام، وهو جمع بكيء ـ وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فكأنك تريد تخيُّرَ الألفاظ في حُسن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنك إن أردت تقرير حُجَّة الله في عقول المكلَّفين، وتخفيف المئونة على المستمعين، وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسنة رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسُّنَّة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: إيجازُ الكلام، وحذف الفُضول، وتقريب البعيد.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: أن لا يُؤتى القائل من سُوء فهم السامع، ولا يُؤتى السامع من سوء بيان القائل.

وسمع خالد بن صفوان رجلاً يتكلم ويُكْثِر فقال: اعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بخفَّة اللسان، وكثرة الهَذَيان، ولكنها بإصابة المعنى، والقصد إلى الحُجَّة. فقال له: أبا صفوان، ما من ذنب أعظم من اتفاق الصنعة.

ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يُقِلُّ الحَزّ ويُطَبِّق المِفْصَل. وذلك أنهم شبَّهُوا البليغ الموجِزْ الذي يَقِلُّ الكلام، ويصيب الفُصُول والمعاني، بالجزار الرفيق يقل حَزَّ اللحم ويصيب مفاصله.

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر بلفظ: «**نحن معاشر الأنبياء فينا بكاء**» أي قلة الكلام الا فيما يحتاج إليه. يقال بكأت الناقة والشاة اذا قل لبنها فهي بكيء وبكيئة.

ومثله قولهم:

يضع الهِنَاء مواضع النُّقب

أي لا يتكلم إلا فيما يجب فيه الكلام، مثل الطالي الرَّفيق الذي يضع الهِنَاء مواضع النقب. والهِنَاء: القَطِران. والنُّقب: الجَرَب.

وقولهم: قَرْطَس فلان فأصاب الثغرة، وأصاب عين القرطاس. كُلُّ هذا مَثَلٌ للمُصِيب في كلامه الموجزُ في لفظه.

قيل للعَتَّابي: ما البلاغة؟ قال: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.

وقيل لأعرابي: من أبلغُ الناس؟ قال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: نشر الكلام بمعانيه إذا قَصُرَ، وحسن التأليف له إذا طال.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ فقال: قرع الحُجَّة ودُنُوُّ الحاجة.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عَجْز، والإطناب في غير خَطَل.

وقيل لغيره: ما البلاغة؟ قال: إقلال في إيجاز، وصواب مع سرعة جواب.

وقيل لبعضهم: من أبلغُ الناس؟ قال: من ترك الفُضُول واقتصر على الإيجاز.

وكان يقال: رسول الرجل مكان رأيه، وكتابه مكان عقله.

وقال جعفر بن محمد رحمه الله: سُمِّي البليغ بليغاً لأنه يَبْلُغ حاجته بأهون سعيه.

وسئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معاني كثيرة فأداها بألفاظ قليلة، وأخذ معاني قليلة فولد منها لفظاً كثيراً، فهو بليغ.

وقالوا: البلاغة ما حَسُن من الشعر المنظوم نثره، ومن الكلام المنثور نظمه.

وقالوا: البلاغة ما كان من الكلام حسناً عند استماعه، موجزاً عند بديهته.

وقيل: البلاغة: لمحة دالة على ما في الضمير.

وقال بعضهم: إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عِيّ، وإنما يَحْسُنُ الإيجاز إذا كان هو البيان:

ولبعضهم:

خير الكلام قليلٌ ... على كثير دليلُ
والمعيُّ معنىً قصيرٌ ... يحويه لفظٌ طويلُ

وقال بعض الكتاب: البلاغة معرفة الفصل من الوصل. وأحسن الكلام القصد وإصابة المعنى.

قال الشاعر:

وإذا نطقت فلا تكن أَشِرًا ... وَاقْصِد فخير الناس من قصدَا

وقال آخر:

وما أحدٌ يكون له مقالٌ ... فيسلم من ملامٍ أو أثامِ

وقال:

الدهر ينقص تارة ويطولُ ... والمرءُ يصمتُ مرة ويقول
والقول مختلفٌ إذا حصَّلْته ... بعضٌ يُردُّ وبعضه مقبول

وقال:

إذا وضحَ الصوابُ فلا تَدَعْهُ ... فإنَّكَ كلما ذقت الصوابَا
وجدت له على اللهوات بَرْدًا ... كبرد الماء حين صَفَا وطابا

وجوه البلاغة

البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكل مقام مقال، ولكل كلام جواب، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ. فأما الخط والإشارة فمفهومان عند الخاصة وأكثر العامة. وأما الدلالة: فكل شيء دلَّك على شيء فقد أخبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كُلٌّ يؤدي عنك الحُجَّة، ويشهد لك بالربوبية.

وقال آخر: سَل الأرض فقل: من شق أنهارَكِ، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؛

فإن لم تجبك إخباراً، أجابتك اعتبارًا.

وقال الشاعر:

لقد جئت أبغي لنفسي مجيراً ... فجئت الجبال وجئت البُحورَا

فقال لي البحر إذ جئتُه ... وكيف يُجير ضريرٌ ضريرًا

وقال نُصيب بن رباح:

فعاجوا فأثنَوا بالذي أنت أهلُه ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

يريد: لو سكتوا لأثنت عليك حقائب الإبل التي يحتقبها الركب من هباتك. وهذا الثناء إنما هو بالدلالة لا باللفظ.

وقال حبيب.

الدار ناطقةٌ وليست تَنْطِقُ ... بدثُورهَا أنَّ الجديدَ سَيخلُقُ

وهذا في قديم الشعر وحديثه، وطارف الكلام وتليده، أكثر من أن يحيط به وصف، أو يأتي من ورائه نعت.

وقال رجل للعتّابي: ما البلاغة؟ قال: كل من بلَّغك حاجته وأفهمك معناه، بلا إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة، فهو بليغ. قالوا: قد فهمنا الإعادة والحُبْسَة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عُثْنونه، أو يفتِل أصابعه، أو يُكثر التفاته من غير موجب، أو يتساعل من غير سُعلة، أو ينبهر في كلامه.

وقال أبْرويز لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع: إن التُمس لها خامسة لم توجد، وإن نقصت منها واحدة لم تتم، وهي: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت فأسْجِحْ، وإذا سألت فأوضِح، وإذا أمرت فأحْكِم، وإذا أخْبَرتَ فحقِّق. واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. يريد الكلام الذي تقل حروفه، وتكثر معانيه.

وقال ربيعة الرأي: إني لأسمع الحديث عُطْلاً فأشنِّفه وأُقرّطه فيَحْسُن، ومازدت فيه شيئاً ولا غيَّرتُ له معنى.

وقالوا: خير الكلام ما لم يُحتج بعده إلى كلام.

وقال يحيى: الكلام ذو فنون، وخيره ما وُفِّق له القائل، وانتفع به السامع.

وللحسن بن جعفر:

عجبت لإدلال العَييّ بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالحق أعلمَا
وفي الصمت ستر للعَييّ وإنما ... صحيفة لُبِّ المرء أن يتكلمَا

وصف أعرابيٌّ بليغاً فقال: كأن الألسن رِيضت فما تنعقد إلا على وُدِّه، ولا تنطق إلا ببيانه.

وصف أبو الوجيه بلاغة رجل فقال: كان والله يَشُول بلسانه شولان البَرُوق ويتخلل به تخلُّل الحيّة.

وللعرب من مُوجز اللفظ ولطيف المعنى، فصولٌ عجيبة، وبدائع غريبة، وسنأتي على صدر منها إن شاء الله تعالى.

فصول من البلاغة

قدم قتيبة بن مسلم خُراسان والياً عليها فقال: من كان في يده شيءٌ من مال عبد الله بن خازم فَلْيَنبِذهُ، وإن كان في فِيه فليلفِظه، وإن كان في صدره فلينْفُثه. فعجب الناس من حُسن ما فصّل.

وقيل لشبيب بن شَيبة عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

قال حسان بن ثابت في عبد الله بن عباس:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بمُلتقَطاتٍ لا نرى بينها فَضْلاَ
كفَى وشَفَى ما في النفوس ولم يَدَعْ ... لذى إرْبة في القول جدّاً ولا هزلاَ

وقال مُجاشع النهشلي: الحق ثقيل، فمن بلغه اكتفى، ومن جاوزه اعتدى.

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كم بين المشرق والمغرب؟

فقال: مسيرة يوم للشمس؛ قيل له: فكم بين السماء والأرض؟ قال: مسيرة ساعة لدعوة مستجابة.

وقيل لأعرابي: كم بين موضع كذا وموضع كذا؟ قال: بياض يوم وسواد ليلة.

وقيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟ قال: الأجل؛ قيل له: فما أبعد شيء؟ قال: الأمل؛ قيل له: فما أوحش شيء؟ قال: الميت؛ قيل له: فما آنس شيء؟ قال: الصاحب المواتى.

مرَّ عمرو بن عبيد بسارق يُقطع، فقال: سارق السَّريرة يقطع سارق العلانية.

وقيل للخليل بن أحمد: مالك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: لأني كالمِسَنّ، أشحذ ولا أقطع.

وقيل لعقيل بن عُلَّفة: مالك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومر خالد بن صفوان برجل صلبه الخليفة، فقال: أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية.

ومر أعرابي برجل صلبه السلطان، فقال: من طلق الدنيا فالآخرة صاحبته، ومن فارق الحق فالجِذْع راحلته.

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وقال رجل لخالد بن صفوان: إنك لتكثر؛ قال: أكثر لضربين، أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإنَّ حَبْسه يُورث العُقلة.

وإنما اللسان عضو إذا مرنته مَرَن، وإذا تركته لكِنَ، كاليد تُخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما أشبهه، والرِّجل إذا عُوِّدت المشي مشت.

وذكر شبيب بن شيبة خالد بن صفوان فقال: ليس له صديقٌ في السر، ولا عدوٌ في العلانية. وهذا كلام لا يعرف قدره إلا أهل صناعته.

وكان عبد الله بن عباس بليغاً، فقال فيه معاوية:

إذا قال لم يترك مقـالاً ولم يقـف ... لعِـيٍّ ولم يَثْـنِ اللســان على هُجْـرِ
يُصرِّفُ بالقـول اللسـانَ إذا انتحى ... وينــظر في أعــطافــه نَظَر الصَّقـرِ

وتكلم صعصعة بن صُوحان عند معاوية فعرِق، فقال له معاوية: بَهرك القول؛ قال: الجياد نضَّاحة بالعرق.

وكتب ابن سيابة إلى عمرو بن بانة: إن الدهر قد كلح فجرح، وطمح فجمح، وأفسد ما صلح، فإن لم تُعن عليه فضح.

ومدح رجل من طيء كلام رجل فقال: هذا الكلام يكتفى بأولاه، ويشتفى بأخراه.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: إن رِفدَك لنجيح، وإن خيرك لصريح، وإن منعك لمريح.

ومن الأسْجاع قول ابن القِرِيَّة، وقد دُعي لكلام فاحتبس القول عليه فقال: قد طال السمر، وسقط القمر، واشتد المطر، فما أنتظِر. فأجابه فتى من عبد القيس: قد طال الأرق، وسقط الشفق، فلينطق من نطق.

قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت على المأمون وبيده كتاب لعمرو بن مَسْعدة، وهو يُصعِّد في ذُراه ويقوم مرة ويقعد أخرى، ففعل ذلك مراراً ثم التفت إليّ فقال: أحْسَبُك مفكرًا فيما رأيت؟ قلت: نعم، وقى الله عز وجل أمير المؤمنين المكاره؛ فقال: ليس بمكروه، ولكن قرأتُ كلاماً نظير خبر خَبَّرني به الرشيد، سمعته يقول: إن البلاغة لتُقاربُ من المعنى البعيد وتُباعدُ من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير. فلم أتوهم أن هذا الكلام يستتبُّ على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب، فكان استعطافاً على الجند وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين أيَّده الله، ومَن قِبَلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقُهم، واختلت أحوالُهم. فأمر بإعطائهم ثمانية أشهر.

ووقّع جعفر البرمكي إلى كُتَّابه: إن استطعتم أن تكون كتبكُم توقيعات فافعلوا.

وأمره هارون الرشيد أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتَم ويأخذه إليه عزلاً لطيفاً.

فكتب إليه: قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك، فكتب إليه الفضل: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك، ولا خصّتك دوني.

قال الفضل بن يحيى لأبيه: ما لنا نُسدي إلى الناس المعروف فلا نرى من السرور في وجوههم عند انصرافهم ببرِّنا ما نراه في وجوههم عند انصرافهم ببرِّ غيرنا؟ فقال له يحيى: إن آمال الناس فينا أطولُ منها في غيرنا، وإنما يُسَرُّ الإنسان بما بلّغه أمله.

قيل ليحيى: ما الكرم؟ قال: مَلِك في زي مسكين؛ قيل: فما الفرعنة؟ قال: مسكين في بطش عِفريت؛ قيل: فما الجود؟ قال: عفو بعد قدرة.

قالت أم جعفر زبيدة بنت جعفر للمأمون حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي ادّخرك لي لَمَاَّ أَثْكَلَني ولدي، ما ثكِلتُ ولداً كنتَ لي عوضاً منه. فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما ظننت أن نساءً جُبلن على مثل هذا الصبر.

وقال أبو جعفر لعمرو بن عُبيد: أعنِّي بأصحابك ياأبا عثمان، قال: ارفع علم الحق يتبعك أهله.

آفـات البلاغـة

قال محمد بن منصور كاتب إبراهيم، وكان شاعرًا راويًا وطالباً للنحو عّلامة، قال: سمعت أبا داود بن جرير الإيادي، وجرى شيء من ذكر الخُطب وتمييز الكلام، فقال: تلخيص المعاني رِفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادُق في غير أهل البادية نقص، والنظر في عيون الناس عِيّ، ومَسُّ اللحية هَلَع، والخروج عما بُني عليه الكلامُ إسهاب.

قال: وسمعته يقول: رأس الخطابة الطَّبْع، وعمودها الدُّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه. وأنشدني بيتًا في خطباء إياد:

يرمون بالخُطب الطوال وتارةً ... وَحْي الملاَحظ خِيفة الرُّقباءِ

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وتكلم ابن السمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنَه! لولا أنك تُكثر ترداده! قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن تُفَهِّمه من لم يفهمه يكون قد مَلَّه من فهمه.

باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَع بالتي هي أَحْسَنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يُلَقَّاها إلاَّ الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم**﴾[1].

وقال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرَّغنَّ لك؛ قال: هُنالك وقعت في الشُّغْل؛ قال: كأنك تهدّدني، والله لئن قلت لي كلمة لأقولن لك عشرًا؛ قال: وأنت والله لئن قلت لي عشرًا لم أقل لك واحدة.

وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأَسُبَّنك سبّاً يدخل القبر معك؛ قال: معك يدخل لا معي.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك اليوم أيوب السِّخْتِياني حتى رحمناك؛ قال: إياه فارحموا.

وشتم رجل الشَعبيّ، فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وشتم رجل أبا ذرّ فقال: ياهذا، لا تُغرق في شتمنا ودع للصُّلح موضعاً، فإنا لا

---

(١) سورة فصلت الآيتان (٣٤-٣٥) وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ قال: الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم كأنه وليٌ حميم قريب. رواه البخاري تعليقاً. انظر مشكاة المصابيح [٥١١٧].

نكافيء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

وعن النبي ﷺ: «**ما تجرّع عَبْدٌ في الدنيا جرْعَةً أحبَّ إلى الله من جرعة غيظٍ رَدَّهَا بحِلْم، أو جَرْعَة مصيبة رَدَّها بصبر**»(١).

وكتب رجل إلى صديق له، وبلغه أنه وقع فيه:

لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ ... لقد سَرَّني أني خطرتُ ببالكَ

وأنشد طاهر بن عبد العزيز:

إذا ما خليلي أسأ مَرةً ... وقد كان فيما مضى مُجمِلا
ذكرت المقدَّم من فعله ... فلم يفسد الآخِرُ الأوّلا

صفة الحلم وما يصلح له

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلَّمت الحِلم؟ قال: من قيس بن عاصم المِنقري، رأيته قاعداً بفناء داره مُحتبياً بحمائل سيفه يُحدِّث قومَه؛ حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك؟ فوالله ما حلَّ حبوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال له: يابن أخي، أثِمتَ بربك، ورميتَ نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: قم يابُنيّ فَوَارِ أخاك، وحُلّ كِتاف ابن عمك، وسُق إلى أُمِّه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني آمرؤ لا شائنٌ حَسَبي ... دَنَسٌ يُهجِّنه ولا أفْنُ
من مِنقرٍ في بيت مكرُمة ... والغُصن ينبُت حوله الغصنُ
خطباءُ حين يقول قائلُهم ... بيضُ الوجوه أعِفَّة لُسُنُ
لا يفطنون لعيب جارهمُ ... وهم لحفظ جواره فُطُنُ

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**ماتجرع عبد جرعة أفضل عند الله عز وجل من جرعة غيظ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى**». انظر المسند ٢/١٢٨ [٦١١٤-٦١١٦] ج٤ وانظر مشكاة المصابيح [٥١١٦] وروى الحديث ابن ماجة في كتاب الزهد باب الحلم [٤١٨٩].

وقال رجل للأحنف بن قيس: علِّمني الحلم ياأبا بحر؛ قال: هو الذل يابن أخي، أفتصبر عليه؟

وقال الأحنف: لستُ حليماً ولكني أتحالم.

وقيل له: من أحْلَمُ: أنت أم معاوية؟ قال: تالله ما رأيت أجهل منكم، إن معاوية يَقْدِر فيحلم، وأنا أحلُم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أُدانيه؟!

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئتَ أخبرتك بخُلَّة، وإن شئت بخُلَّتين، وإن شئت بثلاث؛ قال: فما الخلة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه؛ قال: فما الخلتان؟ قال: كان مُوقَّى الشر مُلقَّى الخير؟ قال: فما الثلاث؟ قال: كان لا يجهل ولا يبْغِي ولا يبخل.

وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عَمَّن ظلمك.

وقالوا: ما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقال لقمان الحكيم: ثلاثة لا تعرفهم إلا في ثلاثة: لا تعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت إليه.

وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حين الرضا ... إنما الأحلامُ في حين الغَضب

وقال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جُهل عليه، وتلا قول الله عز وجل: **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**[1].

وقال معاوية: إني لأستحي من ربي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو عورة لا أواريها بسَتري.

وقال مُؤرِّق العِجلي: ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في الرضا.

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما غضبي في نعليَّ، فإذا سمعتُ ما أكره أخذتُهما ومضيت.

وقيل للأحنف: ما الحِلْم؟ فقال: قولٌ إن لم يكن فعل، وصمتٌ إن ضرَّ قول.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَن لانت كلمته، وجبت محبته.

وقال: حلمك على السفية يُكثرُ أنصارك عليه.

وقال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات.

وقال: رُبَّ غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه، وأنشد:

رضيتُ ببعض الذُّلِّ خوف جميعه ... كذلك بعضُ الشر أهونُ من بَعْضِ

وأسمع رجلٌ عمرَ بن عبد العزيز بعض ما يكره، فقال: لا عليك، إنما أردتَ أن يستفزَّني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا، انصرف إذا شئت.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

لن يدرك المجدَ أقوامٌ وإن كرَموا ... حتى يَذِلُّوا وإن عزُّوا لأقوامِ

ويُشتَموا فترى الألوانَ كاسفةً ... لا ذُلَّ عجز ولكن ذُلَّ أحلام

وأحسن بيت في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعرِض عن الجهل والخَنى ... أصبتَ حلماً أو أصابك جاهلُ

وقال الأحنف: آفة الحلم الذل.

وقال: لا حلم لمن لا سفيه له.

وقال: ما قلَّ سُفهاء قوم إلا ذلُّوا. وأنشد:

لابد للسُّودَد من رماح ... ومن رجالٍ مُصَّلَتي السِّلاحِ

يدافعون دونه بالرَّاح ... ومن سفيهٍ دائم النُّباح

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادرُ تحمي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أورد الأمرُ أصدرا

ولما أنشد هذين البيتين للنبي ﷺ، قال: «لا يَفْضُض الله فاك»، قال: فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له ثَنيَّة.

وقالوا: لايظهر الحلم إلا مع الانتصار، كما لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار.

وللأَشنَنْدانيّ:

وفي اللِّين ضعفٌ والشراسةُ هيبةٌ ... ومن لا يُهَب يُحْمَل على مركبٍ وَعْرِ
وللفقرُ خيرٌ من غنى في دناءةٍ ... وللْمَوتُ خيرٌ من حياةٍ على صُغر
وما كُلَّ حينٍ ينفعُ الحلمُ أهلَه ... ولا كلَّ حال يَقْبُح الجهلُ بالصبر
وما بي على من لان لي من فظاظة ... ولكنني فَظّ أبيٌّ على القَسْرِ

وقال آخر في مدح الحلم:

إني أرى الحِلْم محموداً عواقبُه ... والجهل أفنى من الأقوام أقواماً

ولسابق:

ألم تر أن الحلم زينٌ مُسوِّدٌ ... لصاحبه والجهل للمرء شائنُ
فكن دافناً للجهل بالحلم تسترح ... من الجهل إن الحلم للجهل دافنُ

ولغيره:

ألا إن حلم المرء أكبرُ نِسبةٍ ... يُسامي بها عند الفخار كريمُ
فيارب هب لي منك حِلْماً فإنني ... أرى الحِلْم لم يندم عليه حليمُ

وقال بعض الحكماء: ما حلا عندي أفضل من غيظ أتجرعه.

وقال بعضهم:

وفي الحلم ردع للسَّفيه عن الأذى ... وفي الخُرق إغراءٌ فلا تكُ أخرَقا
فتندمَ إذ لا تنفَعَنْكَ ندامةٌ ... كما نِدِمَ المغبونُ لما تفرَّقا

وقال علي رضي الله عنه: أول عِوَض الحليم عن حلمه أن الناس أنصارُه على الجاهل.

وقال معاوية لخالد بن المُعَمَّر: كيف حُبُّك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ قال:

أحبه لثلاث خصال: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد.

وكان يقال: ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الظلم والباطل، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطَأطِيء لها حتى تتخطاك.

وقال الحسن: إنما يُعرف الحِلم عند الغضب. فإذا لم تغضب لم تكن حليمًا.

وقال الشاعر:

وليس يَتِمُّ الحلم للمرء راضياً ... إذا هو عند السخط لم يَتَحلَّمِ
كما لا يتمُّ الجودُ للمرء مُوسراً ... إذا هو عند العُسر لم يتجشَّم

وقال بعض الحكماء: إن أفضل وادٍ تُرى به الحلم، فإذا لم تكن حليمًا فتحلم، فإذا لم تكن عليمًا فتعلم، فقلما تشبّه رجلٌ بقوم إلا كان منهم.

وقال بعضهم: الحلم عُدَّةٌ على السفيه، لأنك لا تقابل سفيهًا بالإعراض عنه والاستخفاف بفعله إلا أذللته.

ويقال: ليس الحليم من ظُلم فَحَلِم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من ظلم فحلم ثم قدر فعفا.

وللأحنف أو غيره:

ولربَّما ضحك الحليمُ من الأذى ... وفؤاده من حَرِّه يتأوَّه
ولربَّما شكل الحليمُ لسانَه ... حَذر الجواب وإنَّه لفوَّه

وقال الأحنف: وجدت الحلم أنصرَ لي من الرجال.

وقال بعضهم: إياك وعِزة الغضب فإنها تُصَيِّرك إلى ذل الاعتذار.

وقيل: من حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

وقال الأحنف: ما نازعني أحد قط إلا أخذت أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقي

عرفتُ قدَره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضّلت عليه.

ولقد أحسن الذي أخذ هذا المعنى فنظمه فقال:

إذا كان دُوني من بُليتُ بجهله ... أبيَتُ لنفسي أن تُقارع بالجهلِ
وإن كان مثلي ثم جاء بزَلَّةٍ ... هويتُ لصفحي أن يُضاف إلى العدلِ
وإن كنتُ أدنى منه قدرًا ومنصباً ... عرفت له حقَّ التقدم والفضلِ

ولأصرم بن قيس، ويقال إنها لعلي رضي الله عنه:

أصمُّ عن الكَلِم المُحفِظات ... وأحلُم والحلم بي أشبهُ
وإنِّي لأترك جُلّ الكلام ... لئلا أُجاب بما أكره
إذا ما اجترت سِفاه السفيه ... عليَّ فإنِّي أنا الأسفه
فلا تغترر برُواء الرجال ... وما زخرفوا لك أو موَّهوا
فكم من فتى يُعجب الناظرين ... له ألسُنٌ وله أوجُه
ينام إذا حضر المكرُمات ... وعند الدناءة يَستَنبه

وللحسن بن رجاء:

أحب مكارم الأخلاق جَهْدي ... وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفحُ عن سِباب الناس حِلْمًا ... وشرُّ الناس من يهوَى السبابا
ومن هاب الرجالَ تهيَّبوه ... ومن حقر الرجال فلن يُهابا
ومن قَضَت الرجالُ له حقوقاً ... ولم يقضِ الحقوق فما أصابا

وقال محمد بن علي رضوان الله عنهما: من حَلِمَ وقى عرضه، ومن جادت كفُّه حَسُنَ ثناؤه، ومن أصلح مالَه استغنى، ومن احتمل المكروه كثرت محاسنه، ومن صبر حُمد أمرُه، ومن كظم غيظه فشا إحسانُه، ومن عفا عن الذنوب كثرت أياديه، ومن اتقى الله كفاه ما أهمّه.

ولمحمود بن الحسن الوراق:

إني وهبتُ لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على عِلْمِ
ورأيته أسدى إليَّ يداً ... لما أبان بجهله حلمي

رجَعتْ إساءتُه عليه وإحـ ... ـساني إليّ مُضاعف الغُنْم
وغدوت ذا أجرٍ ومحمدةٍ ... وغدا بكسب الظلم والإثم
وكأنما الإحسانُ كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكم
ما زال يظلمني وأرحمه ... حتى رثيتُ له من الظلم

ولمحمد بن زياد يصف حلماء:

نخالُهم في الناس صُمًّا عن الخَنى ... وخُرساً عن الفحشاء عند التهاجُرِ
ومرضى إذا لُوقوا حياءً وعِفّةً ... وعند الحفاظ كاللُّيوث الخَوادِرِ
كأنَّ لهم وصمًا يخافون عارَه ... وما ذاك إلا لاتقاء المعايرِ

وله أيضا:

وأرفع نفسي عن نفوس وربَّما ... تذلَّلتُ في إكرامها لنُفُوسِ
وإن رامني يوماً خسيسٌ بجهله ... أبى الله أن أرضى بعِرض خسيس

ولبعضهم:

وإذا استشارك من تَوَدُّ فقل له ... أطِع الحليم إذا الحليمُ نَهاكَا
واعلم بأنك لن تسود ولن تَرى ... سُبل الرشاد إذا أطعتَ هَواكا

وقال آخر:

وكُن معدِناً للحِلْم واصفح عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ
وأحبب إذا أحببت حُبّاً مُقارباً ... فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغض إذا أبغضت غير مُباين ... فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

باب السودد

وقيل لقيس بن عاصم: بم سَوَّدك قومك؟ قال: بكفِّ الأذى، وبذل الندى، ونصر المولى.

وقال رجل للأحنف، بم سوَّدك قومُك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجها، ولا أحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يابن أخي؛ قال: وماذاك؟ قال:

بتركي من أمرك ما لا يعنيني كما عَناك من أمري ما لا يعنيك.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل: مَن سيِّدُ قومِك؟ قال: أنا، قال: كذبت، لو كنت كذلك لم تقُله.

وقال ابن الكلبي: قدم أوس بن حارثة بن لأم الطائي وحاتم بن عبد الله الطائي على النعمان بن المنذر، فقال لإياس بن قَبيصة الطائي: أيهما أفضل؟ قال: أبَيْتَ اللعن أيها الملك. إني من أحدهما، ولكن سَلْهما عن أنفسهما فإنهما يخبرانك. فدخل عليه أوس، فقال أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن، إن أدنى ولد حاتم أفضل مني، ولو كنت أنا وولدي ومالي لحاتم لأنهبَنا في غداة واحدة. ثم دخل عليه حاتم، فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيت اللعن، إن أدنى ولدٍ لأوس أفضل مني. فقال النعمان: هذا والله السُّودد، وأمر لكل واحد منهما بمائة من الإبل.

وسأل عبد الملك بن مروان روحَ بن زِنْباع عن مالك بن مسمع، فقال: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحد منهم: لم غضبت؟ فقال عبدالملك: هذا والله السُّودد.

ونظر رجل إلى معاوية، وهو غلام صغير، فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه، فسمعته أمه هند فقالت: ثكِلتُه إذاً إن لم يسُد غير قومه.

ودخل ضَمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر، وكانت به دَمامة شديدة، فالتفت النعمان إلى أصحابه، وقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال: أيها الملك، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإن قال قال ببيان، وإن قاتل قاتل بجنان قال: صدقت، وبحقٍّ سودك قومك.

وقيل لعَرابة الأَوْسي: بم سوَّدَكَ قومُك؟ قال: بأربع خلال: أَنْخَدع لهم في مالي، وأذِل لهم في عرضي، ولا أحْقِر صغيرهَم، ولا أحسد كبيرهم.

وفي عرابة الأوسي يقول الشَّمّاخ، وهو ابن ضرار:

رأيتُ عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القَرين
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ ... تلقّاها عرابَةُ باليمين

وقالوا: يسود الرجل بأربعة أشياء: بالعقل والأدب والعلم والمال.

وكان سَلم بن نوفل سيد بني كنانة فوثب رجل على ابنه وابن أخيه، فجرحهما، فأتى به، فقال له: ماأَمَّنك من انتقامي؟ قال: فلم سَوَّدْنَاك إذاً؟ إلا أن تكظم الغيظ، وتحلُمَ عن الجاهل، وتحتمل المكروه؛ فخلّى سبيله، فقال فيه الشاعر:

يُسوَّد أقوامٌ وليسوا بسادة بل السيد الصِّنديد سَلم بنُ نوفلِ

وقال ابن الكلبي: قال لي خالد العنبري: ما تعدُّون السُّودَد؟ قلت: أما في الجاهلية فالرياسة، وأما في الإسلام فالولاية، وخير من ذا وذاك التقوى؛ قال: صدقت؛ كان أبي يقول: لم يدرك الأولُ الشرفَ إلا بالعقل، ولم يدرك الآخرُ إلا بما أدرك به الأول؛ قلت له: صدق أبوك، إنما ساد الأحنف بن قيس بحلمه، ومالك ابن مِسمع بحُبِّ العشيرة له، وقتيبة بن مسلم بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال كلها.

ودخل عمرو بن العاص مكة، فرأى قوماً من قريش قد تحلَّقوا حلقة، فلما رأوه رمَوا بأبصارهم إليه، فعدَل إليهم، فقال: أحسبكم كنتم في شيء من ذكري؟ قالوا: أجل، كُنَّا نماثل بينك وبين أخيك هشام، أيكما أفضل. فقال عمرو: إن لهشام عليَّ أربعةً: أُمُّه ابنة هشام بن المغيرة، وأمي من قد عرفتم؛ وكان أحب الناس إلى أبيه مني، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد؛ وأسلم قبلي، واستُشهد وبقيت.

قال قيس بن عاصم لبنيه لما حضرته الوفاة: يابَنيَّ، احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، أما إذا أنا متُّ فسوِّدوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم.

وقال الأحنف بن قيس: السُّودد مع السَّوَاد.

وهذا المعنى يحتمل وجهين من التفسير: أحدهما، أن يكون أراد بالسواد سواد الشَّعْر، يقول: من لم يَسُدْ مع الحداثة لم يَسُد مع الشيخوخة. والوجه الآخر أن يكون أراد بالسواد سواد الناس ودهماءهم، يقول: من لم يَطِرْ له اسم على ألسنة العامة بالسُّودد لم ينفعه ما طار له في الخاصة.

الهيثم بن عدي قال: لما انفرد سفيان بن عُيينة ومات نظراؤه من العلماء تكاثر

الناس عليه، فأنشأ يقول:

خلت الـدِّيارُ فَسُدت غير مُسَوَّد ومن الشقاء تفرُّدي بالسُّوددِ

سودد الرجل بنفسه

قال قُسُّ بن ساعدة: من فاته حَسَبُ نفسه لم ينفعه حسب أبيه.

وقالوا: إنما الناس بأبدانهم.

وقال الشاعر:

نفسُ عصامٍ سوّدت عِصاما وعلَّمته الكَرَّ والإقداما

وقال عبد الله بن معاوية:

لسْنَا وإن كَرُمَت أوائلُنا يوما على الأحساب نتَّكلُ
نبني كما كانت أوائلُنا تبني ونفعلُ مثل ما فعلوا

وقالت عائشة رضي الله عنها: كُلُّ كرمٍ دونه لؤم فاللؤمُ أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به.

تريد أن أولى الأمور بالإنسان خصال نفسه، فإن كان كريماً وآباؤه لئام لم يضره ذلك، وإن كان لئيماً وآباؤه كرامٌ لم ينفعه ذلك.

وقال عامر بن الطفيل العامري:

وإني وإن كنتُ ابن سَيِّد عامرٍ وفارسَها المشهورَ في كُلِّ مَوْكب
فما سَوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أَبَى الله أن أسمو بجَدٍّ ولا أبَ
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رَمَاهَا بمَنكبي

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلَّ مذهب، فأعجب عبدالملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابنُ من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي ياأمير المؤمنين التي بها توصّلتُ إليك؛ قال: صدقت.

فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

مالِيَ عقلي وهِمَّتي حَسَبي ... ما أنا مولى ولا أنا عربي
إذا انتمى مُنتَمٍ إلى أحدٍ ... فإنني منتمٍ إلى أدبي

المروءة

قال ربيعة الرأي: المروءة ست خصال: ثلاثة في الحضَر وثلاثة في السفر، فأما التي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبة الرفيق؛ وأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعَفاف الفَرْج.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرِّياش، والمروءة الباطنة العفاف.

وقدِم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدُّون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة؛ قال: اسمع يا يزيد

وقيل لأبي هريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى الله وتفقُّد الضَّيْعة.

وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العِفّة والحِرفة.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنَّا معشرَ قريش لانعدُ الحلم والجود سُوداً، ونعد العفاف وإصلاح المال مروءة.

قال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سودد لبخيل، ولا ورع لسيِّء الخلق.

وقال النبي ﷺ: «**تجاوزوا لذوي المروآت عن عثراتهم، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم ليعْثُر وإن يده لَبيَدِ الله**»(١).

وقال العُتْبي عن أبيه: لا تتمُّ مروءة الرجل إلا بخمس: أن يكون عالماً، صادقاً، عاقلاً، ذا بيان، مستغنياً عن الناس.

---

(١) رواه الإمام أحمد ٦/١٨١ وابوداود ٤/١٨٩ والبخاري في الأدب المفرد [٤٦٥] والبيهقي ٨/٣٣٤ وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بلفظ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا في الحدود**». قال المناوي: ضعيف وله شواهد ترقيه إلى الحسن ومن زعم وضعه كالقزويني أفرط أو حسنه كالعلائي فرط. انظر فيض القدير [١٣٦٣] وانظر أجوبة ابن حجر عن أحاديث المصابيح [الحديث الخامس] والسخاوي في المقاصد الحسنة [١٤٣] والعجلوني في كشف الخفا [٤٨٨] والألباني في صحيح الأدب المفرد [٣٦٢] والصحيحة [٦٣٨].

وقال الشاعر:

وما المرءُ إلا حيث يجعل نفسَه ... ففي صالح الأخلاق نفسَك فاجْعلِ

وقيل لعبد الملك بن مروان: أكان مصعب بن الزبير يشرب الطِّلاء؟ فقال: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

طبقات الرجال

قال خالد بن صفوان: الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء، وطبقة خطباء، وطبقة أدباء؛ ورجْرجة بين ذلك يُغْلُون الأسعار، ويُضيِّقون الأسواق، ويُكدِّرون المياه.

وقال الحَسن: الرجال ثلاثة: فرجل كالغذاء لا يُستغنى عنه، ورجل كالدواء لا يحتاج إليه إلا حيناً بعد حين، ورجلٍ كالداء لا يحتاج إليه أبداً.

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: الناس ثلاثة: ناسٌ ونَسْناس وناس غُمِسوا في ماء الناس.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: فرجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فَسَلُوه، ورجل يدري ولا يدرى أنه يدرى فذلك النَّاسي فذكِّروه، ورجل لايدري ويدري أنه لا يدري، فذلك الجاهل فعلِّموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمق فارفضوه.

وقال الشاعر:

أليس من البَلْوى بأنك جاهلٌ ... وأنك لا تدري بأنك لا تدري

إذا كنت لا تدري ولست كمن درَى ... فكيف إذاً تدري بأنك لا تدري

ولآخر:

وما الداءُ إلا أن تُعلِّم جاهلاً ... ويزعُم جهلاً أنه منك أعْلَمُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، ورَعَاع هَمَجٌ يميلون مع كل ريح.

وقالت الحكماء: الإخوان ثلاثة: فأخ يُخلص لك ودَّه، ويبذل لك رِفده،

ويستفرغ في مُهمِّك جُهده؛ وأخٌ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته دون رفده ومعونته، وأخ يتملَّق لك بلسانه ويتشاغل عنك بشانه، ويوسعك من كذبه وأيمانه.

وقال الشعبي: مَرَّ رجلٌ بعبد الله بن مسعود، فقال لأصحابه: هذا لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، ولا يتعلم ممن يعلم.

الغوغاء

الغوغاء: الدَّبا، وهي صغار الجراد، وشُبِّه بها سوادُ الناس.

وذُكر الغوغاء عند عبد الله بن عباس فقال: ما اجتمعوا قط إلا ضرُّوا، ولا افترقوا إلا نفعوا.

وقيل له: قد علمنا ما ضَرَّ اجتماعهم، فما نفع افتراقهم؟ قال: يذهب الحجَّام إلى دُكانه، والحداد إلى أكياره، وكلُّ صانع إلى صناعته.

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قوم يَتْبعُون رجلا أُخذ في رِيبَة، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلا في كُلِّ شر.

وقال حبيب بن أوس الطائي:

إن شئت أن يَسوَدَّ ظنُّك كُلُّه ... فأَجِلهُ في هذا السواد الأعظمِ

وقال دِعبل:

ما أكثر الناس لابل ما أقلَّهم ... الله يعلم أنِّي لم أقُل فَنَدَا

إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحدا

الثقلاء

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: نزلت آية في الثقلاء: ﴿**فإذا طعِمتُم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث**﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٥٣).

وقال سهل بن هارون: من ثقُل عليك بنفسه، وغمَّك بسؤاله، فأعِرْه أذناً صماء، وعيناً عمياء.

وكان أبو هريرة إذا استثقل رجلاً، قال: اللهم اغفر له وأرحنا منه.

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيلٌ يقول:

فما الفيلُ تحمِلُهُ ميِّتاً بأثقلَ من بعض جُلاّسِنا

ونقش رجل على خاتمه: أبرَمتَ فَقُم. فكان إذا جلس إليه ثقيلٌ ناوله إياه وقال: اقرأ ما على هذا الخاتم.

أهدى رجلٌ من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جَملاً، ثم نزل عليه حتى أبرمه، فقال فيه:

يا مُبرمًا أهْدَى جملْ خذ وانصرف ألفي جَملْ
قال: وقَدْ أثقلتُكم قلت له فوق الثقل
قال فإنِّي راحلٌ قلت العَجَل ثم العَجَل

ولحبيب الطائي في رجل مَقيت:

يا من تبرَّمتْ الدنيا بطلعته كما تبرَّمَت الأجفانُ بالرَّمدِ
يمشي على الأرض مختالاً فأحسَبُه لبُغض طلعته يمشي على كَبدي
لو أن في الأرض جزءًا من سماجته لم يَقْدُمِ الموتُ إشفاقاً على أحد

وقال حبيب أيضاً:

وصاحب لي مللتُ صُحبته أفقدني الله شخصه عَجلا
سرقتُ سِكِّينه وخاتمه أقطع ما بيننا فما فعلا

التفاؤل بالأسماء

لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسروق بن الأجْدَع، فقال له: من أنت؟ قال: مسروق بن الأجدع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأجْدَعُ شيطان**»(١).

(١) رواه أبو داود وابن ماجة وقال الألباني: إسناده ضعيف. مشكاة المصابيح [٤٧٦٧].

وروى سفيان عن هشام الدَّستُوائي عن يحيى بن أبي كثير قال: كَتب رسول الله ﷺ إلى أمرائه: «**لا تُبردوا بريداً إلَّا حَسَن الوجه، حَسَن الاسم**»(١).

ولما فرغ المهلب بن أبي صُفرة من حرب الأزارقة وجّه بالفتح إلى الحجاج رجلاً يقال له مالك بن بشير؛ فلما دخل على الحجاج، قال له: ما اسمك؟ قال: مالك ابن بشير، قال: مُلك وبِشارة.

وقال سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي: قَدِم جَدِّي حَزْن بن أبي وهب على النبي ﷺ، فقال له: كيف اسمك؟ قال: حزن، قال له رسول الله ﷺ: بل سَهل؛ قال: ما كنت لأدع اسمًا سمتني به أمي. قال: سعيد: فإنا لنجد تلك الحزونة في أخلاقنا إلى اليوم(٢).

باب الطِّيرة

قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لايكاد يسلم منهن أحد: الطِّيرةُ، والظَنُّ والحسَد، قيل: فما المخرج منهنَّ يارسول الله؟ قال: إذا تطيَّرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا حسدت فلا تبغ**»(٣).

وقال النبي ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة**»(٤).

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفي إسناد الطبراني عمر بن راشد وثقه العجلي وضعفه جمهور الأئمة وبقية رجاله ثقات، وطرق البزار ضعيفة. انظر مجمع الزوائد ٨/٥٠ باب الأسماء وماجاء في الأسماء الحسنة. وانظر المقاصد الحسنة [١٦١] وفيض القدير [٣٣٧] والموضوعات ١/١٦٠ والأسرار المرفوعة ص ٤١٧.

(٢) رواه البخاري بنحوه.

(٣) رواه الطبراني بنحوه وللحديث شاهدان مرسلان. انظر غاية المرام [٣٠٢].

(٤) رواه مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**لا عدوى ولا طيرة وأحب الفأل الصالح**».

وقال ﷺ: «ليس منا من تَطَيَّر»[١].

وقال ﷺ: «إذا رأى أحدُكم الطِّيرة فقال: اللهم لا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا خَيْرَ إلا خيرك، ولا إله غيرك، لم تضره». [٢]

وقد كانت العرب تتطير، ويأتي ذلك في أشعارهم، وقال بعضهم:

وما صدقَتْك الطير يوم لَقِيتَنَا ... وما كان مَن دَلّاك فينا بخابِر

وقال حسان رضي الله تعالى عنه:

يا ليت شعري وليت الطَّير تُخبرني ... ما كان بين عليٍّ وابن عفَّانا

لتسمعنَّ وشيكا في ديارهمُ ... الله أكبر يا ثاراتِ عُثمانا

وقال الشيباني: لما قدم قتيبة بن مسلم واليًا على خراسان، قام خطيبًا، فسقطت المِخصَرة من يده فتطيرَّ بها أهل خراسان، فقال: أيها الناس، ليس كما ظننتم ولكنه كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

روى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام: يابني لا تَستقلّ عدواً واحداً ولا تستكثر ألف صديق، ولا تستبدل بأخٍ قديم أخًا مستحدثًا ما استقام لك.

وفي الحديث المرفوع: «المرءُ كثيرٌ بأخيه»[٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عمران بن الحصين ورواه البزار والطبراني في الأوسط عن ابن عباس مرفوعاً به، ويشهد له أيضاً حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً به. انظر الصحيحة [٢١٩٥].

(٢) أخرجه أحمد والطبراني بنحوه عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً وأخرجه البزار عن بريدة. انظر تمييز الطيب [٢١٩] والمقاصد [١٧٤].

(٣) رواه الديلمي والقضاعي عن أنس، قال الألباني: ضعيف. انظر الضعيفة [١٨٩٥]. وانظر الشوكاني/ الفوائد المجموعة ص٢٦٠.

وقال شبيب بن شيبة: إخوان الصَّفاء خير مكاسب الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء، وعُدَّةُ في البلاء، ومعونة على الأعداء.

وأنشد ابن الأعرابي:

لعمرُك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن إخوانَ الصفاءِ الذخائرُ

وقال الأحنف بن قيس: خير الإخوان إن استغنيت عنه لم يزدك في المودَّة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن كُوْثرتَ عَضَّدَك، وإن استرفدت رفدك، وأنشد:

أخوك الذي إن تَدْعُهُ لِمُلمَّة ... يُجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

ولآخر:

أخاك أخاك إنّ مَن لا أخاً له ... كساعٍ إلى الهيجَا بغير سلاح
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جناحُه ... وهل ينهض البازي بغير جناح

ومما يجب للصديق على الصديق النصيحةُ جَهده. فقد قالوا: صديق الرجل مرآته تُريه حسناته وسيئاته.

وقالوا: الصديق من صدقك وُده، وبذل لك رِفده.

وقالوا: أربعة لا تعرف إلا عند أربعة: لا يعرف الشجاع إلا عند الحرب، ولا الحليم إلا عند الغضب، ولا الأمين إلا عند الأخذ والعطاء، ولا الإخوان إلا عند النوائب.

وقالوا: خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك.

وقال الشاعر:

فإنَّ أوْلَى الموالي أن تُواليَهُ ... عند السرور لمن واسَاك في الحَزَنِ
إن الكرام إذا ما أَسْهَلُوا ذَكَرُوا ... من كان يألفهم في المنزل الخَشِن

ولآخر:

البرُّ من كرم الطبيعة ... والمنُّ مفسدة الصنيعة
تَرْكُ التعهد للصديـ ... ـق يكونُ داعيةَ القطيعة

وقيل لبعض الولاة: كم صديقاً لك؟ قال: لاأدري، الدنيا مقبلة عليّ والناس كلهم أصدقائي، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عني.

أصناف الإخوان

قال العَتّابي: الإخوان ثلاثة أصناف: فرع بائنٌ من أصله، وأصلٌ مُتَّصلٌ بفرعه، وفرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله، فإخاءٌ بُني على مودة ثم انقطعت فحُفظ على ذمام الصحبة؛ وأما الأصل المتصل بفرعه، فإخاء أصله الكرم وأغصانه التقوى؛ وأما الفرع الذي لا أصل له، فالمُموَّه الظاهر الذي ليس له باطن.

ويقال: من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ولعدوه عدوًا.

يقول العتابي:

تَـوَدُّ عَـدُوِّي ثـم تزعـم أنـني ... صديقك إن الـرأي عنـك لعـازبُ
ولـيس أخـي من ودّني رَأيَ عينـه ... ولَـكِـنْ أخي من وَدَّني وهـو غائب

وقال لآخر:

كم من أخٍ لك لم يلده أبـوكَـا ... وأخٍ أبُـوه أبُـوكَ قد يجفـوكـا
صافِ الكـرام إذا أردتَ إخاءهم ... واعلَم بأن أخـا الحِفـاظ أخـوكـا
والنـاس ما استغنيتَ كنتَ أخاهُمُ ... وإذا افـتـقـرت إليهمُ رفضـوكـا

وقال آخر:

إن كنـت متـخـذاً خليـلاً ... فَتَـنـقَّ وانـتـقـد الخـليـلاَ
مـن لـم يكـن لـك منـصفاً ... فـي الـودِّ فابـغِ بـه بديـلا
ولـقَـلَّمـا تلْقـى الـلئيـ ... ـمَ عليـك إلا مسـتـطيـلا

وكتب العباس بن جرير إلى الحسن بن مخلد:

ارعَ الإخـاء أبـا محمَّـ ... ـدَ للذي يصـفـو وصُـنـهُ
وإذا رأيـت منـافـسـاً ... في نيـل مكـرُمَـةٍ فَكُـنـه
إن الـصـديـق هـو الـذي ... يرعـاك حيـث تغيـب عنـه
فـإذا كشـفـت إخـاءَه ... أحمـدت ما كشَّـفـت منـه
مثـل الحُـسـام إذا انـتـضـا ... ه أخـو الحفيـظـة لم يخنـه

يسعى لما تسعى له ... كرماً وإن لم تستعنه

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشار:

من لم يُردك فلا تُردْهُ ... لِتَكُنْ كَمَنْ لم تستفدْهُ
باعد أخاك لبُعْدِهِ ... وإذا دنا شبراً فزده
كم من أخ لك يا بن بشـ ... ـار وأمُك لم تلده
وأخي مناسبة يسو ... ءك، غيبه لم تفتقده

فأجابه محمد بن بشار:

غلط الفتى في قوله: ... من لم يردك فلا ترده
من يأنس الإخوان لم ... يَبْدَ العتاب ولم يُعده
عاتب أخاك إذا هفا ... واعطف بودِّك واستعِده
وإذا أتاك بعيبه ... واشٍ فقل لم تعتمده

معاتبة الصديق واستباء مودته

قالت الحكماء: مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته، والتجاوز عن سيئاته، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبته بلا إكثار، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استعتاب.

وقال أبو الدرداء: مَن لك بأخيك كُلِّه.

وقال بشَّار العقيلي:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئتَ وأيُ الناس تصفو مشاربُه

وقالوا: معاتبة الأخ خيرٌ من فقده.

وقال الشاعر:

إذا ذهب العتاب فليس وُدُّ ... ويبقى الوُدُّ ما بقي العِتَابُ

لمحمد بن أبان:

إذا أنَا لم أَصْبِرْ على الذَّنب مِن أخٍ ... وكنتُ أُجازيه فأين التفاضلُ
إذا ما دعاني مِفْصلٌ فقطعتُه ... بقيتُ وما لي للنُهوض مَفاصل
ولكنْ أداويه فإن صَحَّ سَرَّني ... وإنْ هو أعْيا كان فيه تَحَامُل

وقال الأحنف: من حق الصديق أن يتحمل ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالّة، وظلم الهفوة.

لعبد الله بن معاوية:

ولستُ ببَادي صاحبي بقطيعةٍ ... ولسْتُ بمُفْشٍ سرَّه حين يغضبُ
عليك بإخوان الثِّقات فإنهم ... قليل فصِلْهُمْ دونَ من كُنْتَ تَصْحَبُ
وما الخِدْن إلا من صفا لك وُدَّه ... ومن هو ذو نصحٍ وأنت مُغيَّبُ

ومما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من لانَتْ كلمتُه وجَبَتْ محبته. وأنشد:

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ مما ... يُنبت الودُّ في فؤاد الكريم

وعلى الصديق ألا يلقى صديقه إلا بما يحب، ولا يؤذي جليسه، فيما هو عنه بمعزل، ولا يأتي ما يعيب مثله، ولا يعيب ما يأتي شَكْلَه. وقد قال المتوكل الليثي:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث تثبت لك الود في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتُوسِّعَ له في المجلس، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه.

وقال: ليس شيء أبلغ في خَيْرٍ ولا شَرٍّ من صاحب.

لعَديّ بن زيد:

عن المرء لا تَسْأل وسَلْ عن قرينه ... فكُلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يقتدِي

ولعمرو بن جميل التغلبي:

سأصبر من صديقي إن جفاني ... على كل الأذى إلا الهوانا
فإن الحُرَّ يأنفُ في خَلاءٍ ... وإن حَضَرَ الجماعةَ أن يُهانا

وقال رجل لمطيع بن إياس: جئتك خاطبًا مودتك؛ قال: قد زوجتكها على شرط أن تجعل صَداقها أن لا تسمع فيَّ مقال الناس.

ولابن أبي حازم:

إن ساءني صاحبي احتملتُ وإن ... سرّ فإني أخوه شاكرُه
أصفحُ عن ذنبه وإن طلب الـ ... ـعُذرَ فإني عليه عاذرُه

ولأبي عبد الله بن عُرْفَة:

همومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ ... وهَمِّي من الدنيا صديقٌ مُساعِدُ
يكون كروحٍ بين جسمين فُرِّقا ... فجسماهما جسمان والروحُ واحدُ

قال بعض الحكماء:

الإخاء جوهرة رقيقة، وهي ما لم تُوقِّها وتحرسها معرضة للآفات، فَرُض الإخاء بالجدِّ له حتى تصل إلى قُرْبه، وبالكَظْم حتى يعتذرُ إليك مَن ظلمك، وبالرضى حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير.

لمحمود الوراق:

لا برَّ أعظمُ من مساعدةٍ ... فاشكرْ أخاكَ على مساعدتهْ
وإذا هفا فأَقِلْه هفوتَهُ ... حتَّى يعودَ أخًا كعادته
فالصفح عن زلل الصديق وإن ... أعياك خيرٌ من معاندته

لعبد الصَّمد بن المعذَّل:

من لم يُردك ولم ترده ... لم يستفدك ولم تُفدْهُ
قرِّب صديقك ما نأى ... وزِدِ التقارب واستزده
وإذا وَهَتْ أركان ودٍّ ... من أخي ثقة فشِدْه

فضل الصداقة على القرابة

قال أكثم بن صيفيّ: القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة.

وقال عبد الله بن عباس: القرابة تُقطع، والمعروف يُكفر، وما رأيت كتقارب القلوب.

وقالوا: إياكم ومَن تكرهه قلوبكم، فإن القلوب تجاري القلوبا.

وقال حبيب الطائي:

ولقد سَبَرتُ الناس ثم خبرتُهم ... ووصفت ما وَصَفُوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعاً ... وإذا المودة أقرب الأنساب

وللمبرد:

ما القرب إلا لمن صحَّت مودتُه ... ولم يخنك وليس القرب للنسب
وكم من قريب دويّ الصَّدْر مُضطَغِن ... وكم بعيدٍ سليم غير مقترب

وقالت الحكماء: رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك.

وقالوا: القريب من قَرُب نفعه.

وقالوا: رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب.

وقال آخر:

رُبَّ بعيدٍ ناصحِ الجَيْبِ ... وابن أبٍ مُتهم الغَيبِ

وقال آخر:

أخو ثقة يُسَرُّ ببعض شأني ... وإن لم تُدنِه منِّي قرابة
أحَبُّ إليّ من ألفَيْ قريب ... تبيتُ صدورهم لي مسترابة

وقال آخر:

فَصِلْ حبال البعيد إنْ وَصَلَ الـ ... ـحَبْل واقصِ القريبَ إن قطعهْ
وقد يجمع المال غيرُ آكله ... ويأكل المال غيرُ من جَمَعَه
فارْضَ من الدَّهْر ما أتاك به ... من قرّ عينًا بعيشه نَفَعه

وقال :

لكل شيء من الهموم سَعَةْ ... والليل والصبح لا بقاء معهْ
لا تحقرن الفقير علَّك أن ... تَرْكَعَ يوماً والدهر قد رَفَعَهْ

وقال ابن هَرْمة :

لله درُّك من فتى فجعت به ... يوم البقيع حوادثُ الأيام
هَشٌّ إذا نزل الوفودُ ببابه ... سهل الحجاب مؤدب الخُدّام
وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدرِ أيُّهما أخو الأرحام

التحبب إلى الناس

في الحديث المرفوع : «أحبُّ الناس إلى الله أكثرهم تحبُّباً إلى الناس»(١) .

وفيه أيضا : «إذا أحب الله عبداً حبّبه إلى الناس»(٢) .

ومن قولنا في هذا المعنى :

وجهٌ عليه من الحياء سكينةٌ ... ومحبَّةٌ تجرى مع الأنْفَاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عبدَهُ ... ألقى عليه محبَّة للناس

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص : إن الله إذا أحب

---

(١) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم أو يكشف عنه كربة أو يقضي عنه ديناً أو يطرد عنه جوعاً . . .» إلى آخر الحديث وقد صححه الألباني وقال رواه ابو اسحاق المزكي وابن عساكر عن عبدالله بن عمر، انظر الصحيحة [٩٠٦] وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» .

(٢) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل : إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» .

عبداً حبَّبهُ إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقال أبو دُهْمان لسعيد بن مسلم ووقف إلى بابه فحجبه حينًا، ثم أذن له، فَمَثُلَ بين يديه وقال: إن هذا الأمر الذي صار إليك وفي يديك، قد كان في يدَيْ غيرك فأمسى والله حديثًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فَتحبّب إلى عباد الله بحسن البِشْر، وتسهيل الحجاب، ولين الجانب، فإنَّ حُبَّ عباد الله موصول بحُبَّ الله، وبغضُهُم موصولٌ ببغْض الله، لأنهم شهداء اللهعلى خلقه، ورقباؤه على من أعوجّ عن سبيله.

وقال الجارود: سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخلُّ العسل.

وقيل لمعاوية: من أَحبُّ الناس إليك؟ قال: من كانت له عندي يدٌ صالحة؛ قيل له: ثم من؟ قال: من كانت لي عنده يد صالحة.

وقال محمد بن يزيد النحوي: أتيتُ الخليل فوجدته جالساً على طُنْفسة صغيرة فوسَّع لي وكرهت أن أُضيِّق عليه، فانقبضت، فأخذ بعَضُديَّ وقرّبني إلى نفسه، وقال: إنه لا يضيق سَمُّ الخياط بمتحابين، ولا تسع الدنيا متباغضين.

مواصلتك لمن كان يواصل أباك

من حديث ابن أبي شيبة عن النبي ﷺ: «**لا تقطع من كان يواصل أباك تطفىء بذلك نُوْرَهُ، فإن وُدَّك وُدُّ أبيك**»(١).

وقال عبد الله بن مسعود: مِن بر الحي بالميت أن يصل من كان يصل أبُوه.

وقال أبو بكر: الحب والبغض يُتوارثان.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد بنحوه موقوفاً على عبدالله بن سلام. قال الألباني: ضعيف الإسناد. انظر ضعيف الأدب المفرد ٤٢/٧ وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُد أبيه بعد أن يولي**». [كتاب البر والصلة].

وقال الشاعر:

ترجو الوليدَ وقد أعياكَ والدُه ... وما رَجَاؤك بعد الوالد الوَلَدَا

الحسد[1]

قال علي رضي الله عنه: لا راحة لحسود، ولا إخاء لملول، ولا محب لسيء الخلق.

وقال الحسن: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، نَفَسٌ دائم، وحُزْنٌ لازم، وغَمٌّ لا ينفد.

وقال النبي ﷺ: «**كاد الحسد يَغْلِبُ القدر**»[2].

وقال معاوية: كُلُّ الناس أقْدِر أرضيهم إلا حاسدَ نعمةٍ، فإنه لا يُرضِيْه إلا زوالُها.

وقال الشاعر:

كل العداوة قد تُرجى إماتتُها ... إلا عداوةَ من عاداك من حَسَدِ

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعَادُوا نعم الله؛ قيل له: ومن يُعَادي نعم الله؟ قال: الذي يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. يقول الله في بعض الكتب: الحَسُود عدو نعمتي، مُتسخِط لقضائي، غيرُ راضٍ بقسمتي.

ويقال: الحسد أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض؛ فأما في السماء فحسدُ إبليسَ لآدم، وأما في الأرض فَحَسدُ قابيل هابيل.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**».

(٢) في الحلية لأبي نعيم والشعب للبيهقي عن أنس مرفوعاً «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر» وفي سنده يزيد الرقاشي وهو ضعيف وله شواهد ضعيفه. انظر المقاصد الحسنة [٧٨٧] و[٧٧٩]. وانظر ابن الديبع / تمييز الطيب من الخبيث [٩٧٥].

وقال بعض أهل التفسير، في قوله تعالى: ﴿ربنا أرنا اللّذَيْن أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾[1]. إنه أراد بالذي من الجن إبليس، والذي من الإنس قابيل، وذلك أن إبليس أول من سَنَّ الكُفْر، وقابيل أول من سَنَّ القتل؛ وإنما كان أصل ذلك كله الحسد.

ولأبي العتاهية:

فيارب إن الناس لا يُنْصفونني ... وكيف ولو أنصفتهُم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدَّوْا لأخذه ... وإن جئتُ أبغي سَيْبهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم ... وإن أنا لم أبذُل لهم شَتَموني
وإن طَرقَتْني نِقمةٌ فرحوا بها ... وإن صحِبتني نعمةٌ حسدوني
سأمنع قلبي أن يحنَّ إليهمُ ... وأحجبُ عنهم ناظري وجُفُوني

أبو عبيدة معمر بن المثنى قال: مَرَّ قيس بن زُهير ببلاد غَطَفان، فرأى ثروة وعدداً، فكره ذلك؛ فقيل له: أيسُوءك ما يسرُّ الناس؟ قال: إنك لا تدري أن مع النعمة والثروة التحاسُدَ والتخاذلَ، وأن مع القلة التحاشُدَ والتناصُرَ.

وكان يقال: ما أثرى قوم قطُّ إلا تحاسدوا وتخاذلوا.

وقال بعضُ الحكماء: ألزم الناس للكآبة أربعةٌ: رجل حَديد، ورجل حَسُود، وخليط الأدباء وهو غير أديب، وحكيم مُحقَّر لدى الأقوام.

علي بن بشر المُروزي قال: كتب إليّ ابنُ المبارك هذه الأبيات:

كُلُّ العداوة قد ترجى إماتَتُهَا ... إلا عداوة من عاداك من حسد
فإن في القلب منها عقدةً عُقدتْ ... وليس يفتحها راقٍ إلى الأبدِ
إلا الإله فإنْ يرحم تُحَلّ به ... وإنْ أبَاهُ فلا ترجوه من أحَدِ

سُئل بعض الحكماء: أي أعدائك لا تحب أن يعود لك صديقًا؟ قال: الحاسد الذي لا يرده إلى مودتي إلا زوال نِعمتي.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٢٩).

وقال سليمان التَّيمي: الحسد يُضعف اليقين، ويسهر العين، ويكثر الهم.

الأحنف بن قيس صَلَّى على حارثة بن قُدامة السَّعدي، فقال: رحمك الله، كنت لاتحسد غنيًا ولا تَحْقِر فقيرًا.

وكان يقال: لا يوجد الحُرُّ حريصاً، ولا الكريم حسودًا.

وقال بعض الحكماء: أجهدُ البلاء أن تظهَر الخلَّة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقاً موليًا، وابن عم شامتًا، وجارًا حاسداً، ووليًا قد تحول عدوًا، وزوجة مُختلِعة[1]، وجارية مُستَبيعة[2]، وعبداً يحقِرك، وولداً يَنتهرك، فانظر أين موضع جهدك في الهرب.

لرجل من قريش:

حَسَدُوا النعمة لمَّا ظهرت ... فرمَوْها بأباطيل الكَلِمْ
وإذا ما الله أسدى نعمةً ... لم يضِرْها قول أعداء النعم

وقيل: إذا سرك أن تَسْلَمَ من الحاسد فعَمِّ عليه أمرك.

وكانت عائشة رضي الله عنها تتمثل بهذين البيتين:

إذا ما الدهر جرَّ على أناس ... حوادثَه أناخَ بآخرينا
فقُل للشَّامتينَ بنا أفيقوا ... سيَلقى الشامتون كما لقينا

وقال الحسن: أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول الثلاثة: الحسد، والحرص، وحب الدنيا. والفروع الستة: حُب النوم، وحب الشِّبع، وحب الراحة، وحُب الرئاسة، وحب الثناء، وحُبُّ الفَخر.

وقال الحسن: يحسُد أحدهم أخاه حتى يقع في سريرته وما يعرف علانيته، ويلومه على ما لا يعلمه منه، ويتعلّم منه في الصداقة ما يُعَيِّره به إذا كانت العداوة، والله ما أرى هذا بمُسلمٍ.

ابن أبي الدنيا قال: بلغني عن عُمر بن ذَرّ أنه قال: اللهم من أرادنا بِشَرٍّ فاكفِناه

---

(١) المختلعة: التي تطلب الخلع والطلاق من زوجها.

(٢) المستبيعة: التي تطلب أن تباع لتخرج من ملك سيدها.

بأيّ حُكْمَيك شِئت، إما بتوبة وإما براحة. قال ابن عباس: ما حسدت أحداً على هاتين الكلمتين.

وقال ابنُ عباس: لا تحقِرنَّ كلمة الحكمة أن تسمعها من الفاجر، فإنما مَثَلُه كما قال الأول: رُبَّ رَمية من غير رامٍ.

وقال بعض الحكماء: ما أمحقَ للإيمان، ولا أهتك للستر من الحسد، وذلك أن الحاسد مُعاند لحكم الله. باغٍ على عباده، عاتٍ على ربه، يعتدُّ نعم الله نِقَمًا، ومزيده غِيَرًا، وعدل قضائه حَيْفاً، للناس حالٌ وله حال، ليس يهدأ ليلُه، ولا ينام جشعُه، ولا ينفعه عيشه، محتقر لنعم الله عليه، مُتَسَخِّطٌ ما جرت به أقداره، لا يبرد غليلُه، ولا تُؤمن غوائله، إن سالمته وَتَرَك، وإن واصلته قطعك، وإن صرمته سبقك.

أنشدني فتى بالرَّملة[1]:

اصبر على حَسَد الحسُو ... د فإن صبرك قاتلُهْ
النَّار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وقال المنصور لسليمان بن معاوية المهلبي: ما أسرع الناسَ إلى قومك! فقال: يا أمير المؤمنين:

إن العَرَانين تلقاها مُحَسَّدةً ... ولن ترى للئام الناس حُسّادا

وقال آخر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسِدُوا
فَدَام لي ولهم ما بي وما بهمُ ... وما أكثرُنا غيظاً بما يجد

وقال حبيب الطائي:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ ... طُويت، أتاح لها لسان حسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيبُ عَرْف العُودِ

وقيل لأبي عاصم النَّبيل: إن فلاناً يحسدُك وربما قرضك، فأنشأ يقول:

فلستَ بحيٍّ ولا ميِّتٍ ... إذا لم تُعادَ ولم تُحسدِ

(١) الرملة في مدينة قرطبة.

محاسدة الأقارب

كتب عُمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: مُر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاورُوا.

وقال أكثم بن صَيفي: تباعدوا في الدار تقاربوا في المودة.

وقال يحيى بن سعيد: من أراد أن يَبين عملُه؛ ويظهر علمه، فليجلس في غير مجلس رهطه.

وقيل لعطاء بن مصعب: كيف غلبتَ على البرامكة وكان عندهم من هو آدب منك؟ قال: كنت بعيد الدار منهم، غريب الاسم، عظيم الكِبْر، صغير الجِرْم، كثير الالتواء، فقربني إليهم تبعُّدي منهم، ورغبهم فيّ رغبتي عنهم، وليس للقرباء طرافة الغرباء.

وقال آخر:

ولقد سبرتُ الناس ثم خبرتهم ... ووصفتُ ما وصَفُوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرّب قاطعاً ... وإذا المودةُ أقربُ الأنساب

المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه

قالوا: أقرب القرابة المشاكلة، وقالوا: الصاحب المناسب.

وقال حبيب:

وقلت أخي؟ قالوا أخٌ من قرابة؟ ... فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ

وقال أيضا:

ذو الود مني وذو القربى بمنزلة ... وإخوتي أسوةٌ عندي وإخواني
عصابة جاورتْ آدابُهم أدبي ... فَهُمْ وإنْ فُرِّقوا في الأرض جيراني

وقال أيضا:

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا ... أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

أو نختلف فالوصل منا ماؤه ... عذبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ

وقال آخر:

إن النفوس لأجنادٌ مجنّدة ... بالإذن من ربنا تجري وتختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مُختلف

وقال رسول الله ﷺ: «الأنفس أجنادٌ مجندة، وإنها تَتَشَامّ في الهوى كما تَتَشَامّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

وقال آخر:

إذا كنت في قوم فصَاحِبْ خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتَردَى مع الرَّدِي
عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكل قرين بالمقارَن يقتدي

وقال آخر:

اصحب ذوي الفضل وأهل الدينِ ... فالمرءُ منسوبٌ إلى القرينِ

السعاية والبغي

قال الله تعالى ذكره: ﴿يا أيُّها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ثم بُغِي عليه لينصرنَّه الله﴾[3].

وقال الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ ببَغْيٍ ... فإن البغيَ مَصْرَعُه وخيمُ

وقال العتابي:

بغيتَ فلم تقع إلا صريعاً ... كذاك البغي يصرع كل باغِي

---

(١) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». ومعنى تتشام أي تُختبر وتُكشف وهي مفاعلة من الشم.
ورواه مسلم بلفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر مختصر صحيح مسلم [١٧٧٢].

(٢) سورة يونس: الآية (٢٣). (٣) سورة الحج: الآية (٦٠).

وقال المأمون يومًا لبعض ولده: إياك وأن تصغي لاستماع قول السعاة، فإنه ما سعى رجل برجل إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلاقاه أبداً.

ووقَّع في رُقعة ساعٍ: سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين.

ووقع في رقعة رجلٍ سعى إليه ببعض عُماله: قد سمعنا ما ذكره الله عز وجل في كتابه، فانصرفْ رحمك الله.

فكان إذا ذُكر عنده السُّعاة، قال: ما ظنُّكم بقوم يلعنهم الله على الصدق؟.

وسعى رجل إلى بلال بن أبي بُردة، فقال له: انصرف حتى أكشِفَ عما ذكرت. ثم كشف عن ذلك فإذا هو لغير رِشدة، فقال: أنا أبو عمرو وما كذبت ولا كُذِبت.

وسأل رجل عبد الملك الخَلْوة، فقال لأصحابه: إذا شِئتم فقوموا. فلما تهيأ الرجل للكلام، قال له: إياك أن تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك، أو تكذبني، فإنه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليّ بأحد، وإن شئت أقلتك؛ قال: أَقِلْني.

ودخل رجل على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دمشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة؛ فقال: إن كانت لنا فاذكرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها؛ قال: جارٌ لي عَصَى وفرَّ من بَعثه؛ قال: أما أنت فتخبر أنك جار سوء، وإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تاركناك؛ قال: تاركني.

وقال الشاعر:

إذا الواشي نعى يوماً صديقاً فلا تدَع الصديق لقول واشِي

وقال ذو الرِّياستين: قبول النميمة شر من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيء كمن قَبِله وأجازه.

ذُكر السعاة عند المأمون، فقال رجل ممن حضر: لو لم يكن من عيبهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون إلى الله تعالى لكَفَاهُم.

وعاتب مصعب بن الزبير الأحنف في شيء، فأنكره، فقال: أخبرَني الثقةُ؛ قال: كلا، إن الثقة لا يُبلِّغ.

وقد جعل الله السامع شريك القائل. فقال: ﴿سمَّاعون للكذب أكَّالون للسُحت﴾[١].

وقيل: حسبك من شرٍ سماعُه.

وقال الشاعر:

لعمرك ما سبَّ الأميرَ عدوُه ولكنما سَبَّ الأميرَ المُبلِّغُ

الغيبَة

قال النبي ﷺ: «إذا قلتَ في الرجل ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بَهتَّه»[٢].

ومر محمد بن سيرين بقوم، فقام إليه رجل منهم فقال: أبا بكر، إنا قد نِلْنا منك فحلِّلنا؛ فقال: إني لا أحلُّ لك ما حرم الله عليك، فأما ما كان إليَّ فهو لك.

وكان رَقَبة بن مَصْقَلة جالساً مع أصحابه فذكروا رجلاً بشيء، فاطلع ذلك الرجل، فقال له بعض أصحابه: ألا أخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبة؟ قال: أخبره حتى تكون نميمة.

اغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم، فقال له قتيبة: أَمْسِك عليك أيها الرجل، فوالله لقد تلمظت بمُضْغة طالما لَفِظَها الكرام.

محمد بن مسلم الطائفي قال: جاء رجل إلى ابن سيرين، فقال له: بلغني أنك نلت مني، قال: نفسي أعزُّ عليّ من ذلك.

وعاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، أما سمعت قول الشاعر:

---

(١) سورة المائدة: الآية (٤٢).

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه». صحيح مسلم/كتاب البر والصلة باب: النهي عن الغيبة.

لا تهتكنْ من مساوي الناس ما سَتَرُوا ... فيهتكُ اللهُ سترًا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
وابدأ بنفسك فانهها عن غَيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وقال محمد بن السمّاك: تجنب القول في أخيك لخَلَّتين: أما واحدة، فَعَلَّك تعيبه بشيء هو فيك؛ وأما الأخرى، فإن يكُن الله عافاك مما ابتلاه به كان شكرك الله على العافية تعييراً لأخيك على البلاء.

وقيل لبعض الحكماء: فلانٌ يعيبك؛ قال: إنما يقرض الدرهمَ الوازنُ.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك؛ قال: إياه فارحموا.

وقال ابن عباس: اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، ودع منه ما تحب أن يَدَعَ منك.

وقال الحسن البصري: لا غيبة في ثلاثة: فاسقٍ مجاهر بالفسق، وإمامٍ جائر، وصاحبِ بدعة لم يَدَعْ بدعته.

مداراة أهل الشر

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**شر الناس من اتقاه الناس لشرِّه**»(١).

وقال الأحنف: رُبَّ رجلٍ لا تغيب فوائده وإن غاب، وآخر لا يسلم منه جليسه وإن احترس.

---

(١) متفق عليه عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «**إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من وَدَعه ـ أو تركه ـ الناس اتقاء فحشه**» واللفظ لمسلم كتاب البر والصلة والآداب/ باب مداراة من يتقى فحشه وفي صحيح البخاري كتاب الأدب/ باب مايجوز من اغتياب أهل الفساد والريب/ وباب المداراة مع الناس وفي مسند الإمام أحمد ٦/٣٨.

وقال كثير بن هَرَاسة: إن من الناس ناساً ينقصونك إذا زدتهم، وتهون عندهم إذا خاصصتهم، ليس لرضاهم موضعُ تعرفه، ولا لسُخطهم موضع تحذره، فإذا عرفتَ أولئك بأعيانهم فابذل لهم موضع المودة، واحرمهم موضع يَكُن ما بذلت لهم من المودة حائلاً دون شرهم، وما حَرمتَهُم من الخاصة، قاطعا لحرمتهم.

وأنشد العُتبي:

لي صديقٌ يرى حقوقي عليه ... نافلاتٍ وحقَّهُ الدهرَ فرْضَا
لو قطعتُ البلاد طولاً إليه ... ثم من بعد طولها سِرتُ عرضَا
لرَأى ما فعلتُ غير كثير ... واشتهى أن يزيد في الأرض أرضا

وفي هذه الطبقة من الناس يقول دعبل الخزاعي:

اسقِهم السُّمَّ إن ظَفِرت بهم ... وامزج لهم من لِسَانِكَ العَسَلا

وقال صالح بن عبد القدوس:

تجَنَّبْ صديقَ السوء واصرِم حبالَه ... وإن لم تجد عنه محيصاً فدارِهِ
ومن يطلب المعروف من غير أهله ... يجده وراء البحر أو في قرارِه
ولله في عرض السموات جَنَّةٌ ... ولكنها محفوفةٌ بالمكاره

عُرض على أبي مسلم صاحب الدعوة فرسٌ جواد، فقال لقُوّاده: لماذا يصلح مثل هذا الفرس؟ قالوا: إنا نغزو عليه العدوّ؛ قال: لا، ولكن يركبه الرجل فيهرب عليه من جار السوء.

ذم الزمان

قالت الحُكماء: جُبل الناس على ذم زمانهم وقلة الرضا عن أهل عصرهم، فمنه قولهم: رضا الناس غايةٌ لا تدرك. وقولهم: لاسبيل إلى السلامة من ألسنة العامّة.

هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: رحم الله لَبيداً كان يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيت في خَلَفٍ كجِلد الأَجْرَبِ

فكيف لو أبصر زماننا هذا؟!.

قال عروة: ونحن نقول: رحِم الله عائشة، فكيف لو أدركتْ زمانَنا هذا؟!.

دخل مسلم بن يزيد بن وهب على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أيُّ زمان أدركت أفضل؛ وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامًّا، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً، وكُلُّهُم يذُمُّ زمانه لأنه يُبلِي جديدَهم، ويُفرق عديدَهُم، ويُهْرِم صغيرهم؛ ويُهلك كَبيرَهم.

أبو جعفر الشيباني قال: أتانا يومًا أبو ميَّاس الشاعر ونحن في جماعة، فقال: ما أنتم فيه؟ وما تتذاكرون؟ قلنا: نذكر الزمان وفسادَهُ؛ قال: كلا، إنما الزمان وعاء وما أُلقِي فيه من خير أو شر كان على حاله، ثم أنشأ يقول:

أرى حُللاً تُصان على أناسٍ ... وأخلاقاً تُداسُ فما تُصانُ
يقولون الزمانُ به فسادٌ ... وهم فَسَدُوا وما فَسَدَ الزمانُ

وقال حبيب الطائي:

لم أبكِ في زمنٍ لم أرضَ خَلَّتَه ... إلا بكيتُ عليه حين يَنصرِمُ

فساد الإخوان

قال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه.

الخُشني قال: أنشدني الرياشي:

إذا ذهب التكرُّم والوفاءُ ... وبَادَ رجالُه وبَقِى الغُثاءُ
وأسلمني الزمانُ إلى رجالٍ ... كأمثال الذئاب لها عُواءُ
صديقٌ كلما استغنيتُ عنهم ... وأعداءٌ إذا جَهَدَ البلاءُ
إذا ما جئتُهم يتدافعوني ... كأني أجربٌ آذاه داء
أقول - ولا أُلام على مقالٍ - ... على الإخوان كُلهم العَفاء

وقالت الحُكماء: لا شيء أضيع من مودةِ مَن لا وفاء له، واصطناع من لا شكر عنده، والكريم يَوَدُّ الكريم عن لُقْية واحدة، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة.

وقال أبو العتاهية :

أرى قوماً وُجُوهُهم حِسانٌ ... إذا كانت حوائجُهم إلينا
وإن كانت حوائجُنا إليهم ... يُقبِّح حُسْنُ أوجههِم علينا
فإنْ منَع الأشحَّةُ ما لديهم ... فإنا سوف نمنحُ ما لدينا

وقال ابن أبي حازم :

وصاحبٍ كان لي وكنتُ له ... أشفقَ من والدٍ على وَلَدِ
كُنَّا كساقٍ تَسعى بها قَدَمٌ ... أو كَذِراعٍ نِيطت إلى عضُدِ
حتى إذا دبَّت الحوادث في ... عظمي وحلَّ الزمانُ من عُقَدي
ازْوَرَّ عَنِّي وكان ينظرُ مِن ... طَرْفٍ ويرمي بساعِدي ويَدي

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأنت أخي ما لم تكن لي حاجةٌ ... فإن عرضتْ أيقنتُ أنْ لا أخا لِيَا
فلا زاد ما بيني وبينك بعدَ ما ... بلوتُك في الحاجات إلا تماديا
كِلانا غنيٌ عن أخيه حياتَه ... ونحن إذا متنا أشدُّ تَغانِيا
وعينُ الرضا عن كل عيب كليلةٌ ... كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ومن قولنا في هذا المعنى :

أبا صالحٍ جاءت على الناس غفلةٌ ... على غفلةٍ بانَتْ بكلِّ كريمِ
فليت الأُلَى باتوا يُفَادَوْنَ بالأُلَى ... أقاموا فيُفدَى ظاعنٌ بمقيم
ويا ليتها الكبرى فتُطوى سماؤنا ... لها وتمدّ الأرض مدَّ أديم
فما الموت إلا عيش كل مُبخَّل ... وما العيشُ إلا موتُ كُلِّ ذَميم
وأعذر ما أدمى الجفونَ من البُكَا ... كريمٌ رأى الدنيا بكفِّ لئيمِ

ومثله في هذا المعنى :

أبا صالح أين الكرام بأَسْرِهم ... أَفِدْني كريمًا فالكريم رِضاءُ
أحقًّا يقول الناس في جود حاتم ... وإنَّ سناناً كان فيه سخاءُ
عذيريَّ من خَلْقٍ تخلَّق منهمُ ... غباءٌ ولؤم فاضح وجفاء

حجارةُ بُخلٍ ما تجود وربَّما ... تَفجَّر من صُمِّ الحجارة ماءُ
ولو أن موسى جاء يضرب بالعصا ... لما انبجست من ضربه البُخلاءُ
بقاءُ لئامِ الناس موتٌ عليهم ... كما أن موتَ الأكرمين بقاءُ
عزيزٌ عليهم أن تجودَ أكفُّهُم ... عليهم من الله العزيز عَفاءُ

وقال مُؤمِّل بن سعيد في هذا المعنى:

إنما أزرى بقدري أنني ... لستُ من نابهِ أهل البلدِ
ليس منهم غير ذي مَقْلية ... لذوي الألباب أو ذي حَسَدِ
يتحامَون لقائي مثل ما ... يتحامون لقاءَ الأسد
طلعتي أثقلُ في أعينهم ... وعلى أنفسهم من أُحُد

باب في الكِبْر

قال النبي ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته وأهنته**»(١).

وقال ﷺ: «**لا يدخل حضرة القدس متكبر**»(٢).

وقال: «**فضل الإزار في النار**»(٣). معناه: من سحب ذيله في الخيلاء، قادَهُ ذلك إلى النار.

---

(١) رواه الإمام أحمد [٢/ ٤١٤] بنحوه عن أبي هريرة.
وقال العراقي: رواه ابوداود وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة والحاكم في المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم. انظر المغني عن حمل الأسفار [١١٧] [٣٤٤٧] [٣٤٥٠].
وأخرجه مسلم في صحيحه [٢٦٢٠] والبخاري في الأدب المفرد/ باب الكبر عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة بلفظ: «**العزة والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**».

(٢) لم أقف عليه ويغني عنه ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»

(٣) روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطراً**» / كتاب اللباس والزينة وقال ﷺ: «**ماأسفل الكعبين من الإزار ففي النار**» رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة.

وقال سعد بن أبي وقاص لابنه: يا بني: إياك والكِبرَ، وليكن فيما تستعين به على تركه: عِلْمُك بالذي منه كنت، والذي إليه تصير، وكيف الكبر مع النُّطْفَةِ التي منها خُلقت، والرحم التي منها قُذفت، والغذاء الذي به غُذيت.

وقال يحيى بن حيان: الشريف إذا تقوَّى تواضع، والوضيع إذا تَقَوَّى تكبر.

وقال بعض الحكماء: كيف يستقر الكِبْر فيمن خُلِقَ من تُراب، وطُوِي على القَذَر، وجرى مجرى البول.

وقال الحسن: عجبًا لابن آدم، كيف يتكبر وفيه تِسعُ سموم كلها يؤذي.

وذكر الحسن المتكبرين فقال: يُلفَى أحدهم ينصُّ رقبَته نصّاً، ينفض مِذْرويه، ويضرب أصْدَريه، يملُخ في الباطل ملخاً، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني؛ قد عرفناك ياأحمق، مقتك الله ومقتك الصالحون.

العُتبيّ قال: رأيتُ مُحرزاً مولى باهلة يَطوف على بغلة بين الصَّفا والمَروة، ثم رأيتُه بعد ذلك على جسر بَغداد راجلاً، فقلتَ له: أراجلٌ أنت في مِثل هذا المَوضع؟ قال: نعم، إنّي ركبتُ في موضع يمشي الناسُ فيه، فكان حقيقاً على الله أن يُرَجِّلني في موضعٍ يركب الناس فيه.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، عليك بالترحيب والبِشْر، وإياك والتقطيب والكبر، فإن الأحرار أحبُّ إليهم أن يُلقَوا بما يحبون ويُحرموا، من أن يلقوا بما يكرهون ويُعطَوا. فانظر إلى خَصْلة غطّت على مثل اللؤم فالزمها، وانظر إلى خصلة عفّت على مثل الكرم فاجتنبها. ألم تسمع قول حاتم الطائي:

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصِبُ عندي المحَلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثُرَ القِرى ... ولكنَّما وجهُ الكريم خصيبُ

وقال محمود الوراق:

التِّيه مفسدة للدِّين مَنْقصةٌ ... للعقل مجلبةٌ للذَمِّ والسَّخَطِ

مَنْعُ العطاءِ وبَسْطُ الوجهِ أحْسَنُ مِنْ ... بذل العطاء بوجهٍ غيرِ مُنبسط

وقال أيضا:

بِشْرُ البخيل يكاد يُصلح بُخلَه ... والتيه مفسدةٌ لكلِّ جوادِ
ونقيصةٌ تبقى على أيامه ... ومَسَبَّةٌ في الأهل والأولاد

وقال آخر في الكبر:

مع الأرض يا بن الأرض في الطيران ... أَتَأْمُلُ أن ترقى إلى الدَّبَرَانِ
فوالله ما أبصرت يوماً مُحلّقاً ... ولو حَلَّ بين الجَدْي والسرطان
حَمَاهُ مكانُ البُعْدِ من أن تناله ... بسهم من البَلْوَى يدُ الحَدَثَان

التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة

قالوا: مَن أبْطره الغنى أذله الفقر.

وقالوا: من وَلي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيَّر لها، ومن ولي ولاية يراها أكبر من نفسه تغير لها.

وقال يحيى بن حيان: الشريف إذا تقوَّى تواضع، والوضيع إذا تقوَّى تكبر.

وقال كسرى: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابيّ:

لقد عَجِبَت منه الليالي لأنه ... صبورٌ على عَضلاء تلك البلابِلِ
إذا نال لم يفرح وليس لنكبةٍ ... ألمتْ به بالخاشع المُتضائل

ما جاء في ذم الحمق والجهل

قال النبي ﷺ: «الجاهل يظلم من خالطه، ويعتدي على من هو دونه، ويتطاول على من فوقه، ويتكلم بغير تمييز، وإن رأى كريمةً أعرض عنها، وإن عرضت فتنة أَرْدَته وتهوَّر فيها»[1].

(١) لم أقف عليه في المصادر التي بين يدي.

وقال أبو الدرداء: علامة الجاهل ثلاث: العُجب، وكثرة المنطق، وأن ينهى عن شيء ويأتيه.

وقيل: لا تصطحب الجاهل، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

ولبعضهم:

لكل داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ به ... إلا الحماقةَ أعيت من يُداويها

ولأبي العتاهية:

احذر الأحمق أن تَصْحَبَهُ ... إنَّما الأحمقُ كالثوب الخَلَقْ

كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعتْه الريح يوماً فانخرق

أو كصدعٍ في زجاجٍ فاحشٍ ... هل ترى صدع زجاجٍ يلتصق

فإذا عاتبتَه كي يَرْعَوي ... زاد شرًّا وتمادى في الحمق

باب في التواضع

قال النبي ﷺ: «من تواضع لله رفَعَهُ الله»(١).

قالت الحكماء: كُلُّ نعمة يُحْسَدُ عليها إلا التواضع.

وقال عبد الملك بن مروان رفعه إلى النبي ﷺ: أفضل الرجال من تواضع عن رفْعَة، وزَهَدَ عن قُدْرَة، وأنصَفَ عن قوة(٢).

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويدُه على المُعلَّى بن الجارود العبدي، فلقيته امرأة من قريش، فقالت له: يا عمر، فوقف لها؛ فقالت: كنا نعرفك مدةً عُمَيْراً، ثم صرت من بعد عُمير عُمر، ثم صرت من بعد عُمر أمير المؤمنين، فاتق الله يا بن الخطاب وانظر في أمور الناس، فإنه من خاف الوعيد قَرُبَ عليه البعيد، ومن خاف الموت خَشِي الفوت. فقال المُعلى: إيْهًا يا أمة الله، فقد أبكيت أمير

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٢) لم أقف عليه ولعله من كلام الخليفة عبد الملك بن مروان رحمه الله والله أعلم.

المؤمنين. فقال له عُمر: اسكت، أتدري من هذه؟ ويحك، هذه خَوْلة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه، فعُمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي به[١].

وقال أبو عَبَّاد الكاتب: ما جلس إليَّ رجل قط إلا خُيِّل إليَّ أني سأجلس إليه.

وسُئل الحسن عن التواضع فقال: هو أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: علمني التواضع؛ فقال: إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: سبقني إلى الإسلام والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والعمل السيء، فأنا شرٌّ منه.

وقال أبو العتاهية:

يا من تشرَّف بالدنيا وزينتها ... ليس التشرُّف رَفعَ الطين بالطينِ
إذا أردت شريفَ الناس كُلَّهُمُ ... فانظر إلى مَلِك في زيِّ مسكينِ
ذاك الذي عظُمت في الناس همَّته ... وذاك يصلح للدنيا وللدين

الرفق والأناة

قال النبي ﷺ: «**مَن أُوتي حظَّه من الرفق فقد أُوتي حظه من خير الدنيا والآخرة**»[٢].

وقالت الحكماء: يُدْرَك بالرفق ما لا يُدْرَكُ بالعُنْف، ألا ترى أن الماء على لِينه يقطع الحجر على شدته؟

وقال أشجع بن عمرو السُّلمي لجعفر بن يحيى بن خالد:

ما كان يُدرَك بالرجال ولا ... بالمال ما أدركت بالرفق

---

(١) قال ابن كثير: هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب، وقد رُوي من غير هذا الوجه. انظر تفسير القرآن العظيم سورة المجادلة ٤/٣١٨.

(٢) رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «**إنه من أُعطي حظَّهُ من الرفق فقد أعطي حظَّهُ من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق وحسن الجوار يُعَمِّران الديار ويزيدان في الأعمار**». قال الألباني: إسناده صحيح. انظر: الصحيحة [٥١٩].

وقال النابغة:

الرفق يُمْنٌ والأناة سَعَادَة ... فاستَأنِ في رفقٍ تُلاقِ نَجَاحَا

وقالوا: العجل بريد الزَّلل.

أخذ القطامي التغلبي هذا المعنى فقال:

قد يدرك المتأنِّي بعضَ حاجَتِهِ ... وقد يكون مع المستَعْجِلِ الزَّلَلُ

استراحة الرجل بمكنون سرِّه إلى صديقه

تقول العرب: أفضيتُ إليك بشُقُوري. وأطلعتك على عجرَي وبجرَي. ولو كان في جسدي بَرَصٌ ما كَتمتُه.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكل نبأ مُستقَر﴾[1].

وقالت الحكماء: لكل سر مستودع.

وقالوا: مُكاتمة الأذنين صريحُ العُقوق.

وقال الشاعر:

وأبثثتُ عُمْراً بعض ما في جوانحي ... وجرَّعْتُه من مُرِّ ما أتجرَّعُ

ولابُدَّ من شكوى إلى ذي حفيظةٍ ... إذا جعلتْ أسرارُ نفس تطلَّعُ

وقال حبيب:

شكوتُ وما الشَّكْوَى لمثلِي عادةٌ ... ولكن تَفِيضُ النَّفْسُ عند امتِلائِها

وقال آخر:

إذا لم أُطِق صبراً رجعت إلى الشَّكْوَى ... ونَاديتُ تحت الليل يا سامعَ النَّجوى

وأمطرتُ صَحْنَ الخدِّ غيثًا من البُكا ... على كبدٍ حرَّى لترَوْىَ فما تروى

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٦٧).

الاستدلال باللحظ على الضمير

قالت الحكماء: العينُ بابُ القلب، فما كان في القلب ظهر في العين.

أبو حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد قال:

إني لأعرف في العين إذا عَرَفَتْ، وأعرف فيها إذا أنْكَرَت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر، أما إذا عرفت فتخواصّ، وأما إذا أنكرت فتجحَظْ، وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فَتَسْجُو.

وقال محمود الوراق:

إن العيون على القلوب شواهدٌ ... فبغيضُها لك بَيِّنٌ وحبيبُها
وإذا تلاحَظَتِ العيونُ تفاوضت ... وتحدَّثَت عَمَّا تُجِنُّ قلوبُها
ينطقن والأفواهُ صامتةٌ فما ... يخفى عليك بريئها ومُريبها

الاستدلال بالضمير على الضمير

كتب حكيم إلى حكيم: إذا أردت معرفة مالك عندي فضع يدك على صدرك فكما تجدني كذلك أجدك.

وقالوا: إياكم ومن تُبغضه قلوبُكم، فإن القلوب تُجازي القلوب.

وقال ذو الإصبع:

لا أسأل الناس عما في ضمائرهم ... ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

وقال محمود الوراق:

لا تسألنَّ المرء عما عنده ... واسْتَمل ما في قلبه من قلبكا
إن كان بغضاً كان عندك مثلُه ... أو كان حُبّاً فاز منك بحُبكا

الإصابة بالظن

قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ قال: الإصابة بالظَنّ ومعرفة ما يكون بما قد كان.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لم ينفعه ظَنُّه لم ينفعه يقينه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لله درُّ ابن عباس، إنْ كان لينظر إلى الغيب من سِتر رَقيق.

وقال الشاعر:

وقَلَّما يفجَأ المكروهُ صاحبَه ... حتى يرى لوجوه الشرِّ أسبابَا

وإنما ركبَّ الله العقل في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن، ويفهم الكثير بالقليل.

تقديم القرابة وتفضيل المعارف

قال الشاعر:

أقول لجاري إن أتاني مُخاصِمًا ... يُدِلُّ بحَقٍّ أو يُدِلُّ بباطلِ
إذا لم يَصِلْ خيري وأنت مجاوري ... إليك فما شرِّي إليك بواصل

وولي ابن شبرمة قضاء البصرة وهو كاره، فأحسن السيرة. فلما عُزل اجتمع إليه أهل خاصته ومودته، فقال لهم: والله لقد وَليتُ هذه الولاية وأنا كاره، وعزلت عنها وأنا كاره؛ وما بي من ذلك إلا مخافة أن يلي هذه الوجوهَ مَن لا يعرف حَقَّها. ثم تمثل بقول الشاعر:

فما السجن أبكاني ولا القيد شفَّني ... ولا أنني من خشية الموت أجزَعُ
بلى إن أقواماً أخافُ عليهمُ ... إذا مِتُّ أن يُعطوا الذي كنتُ أمنع

وقال الشاعر:

إذا كان الأمير عليك خَصْماً ... فليس بقابلٍ منكَ الشُّهودَا

وقال زياد: أحب الولايةَ لثلاث، وأكرهها لثلاث: أُحِبُّها لنفع الأولياء، وضرِّ الأعداء، واسترْخاص الأشياء؛ وأكرهها لروعة البريد، وقرب العزل، وشماتة العدو.

ويقول الحُكماء: أحق من شاركك في النعمة شركاؤك في المصيبة.

أخذه الشاعر فقال:

وإن أولى الموالي أن تُواسيَهُ ... عند السرور لَمن آساك في الحَزنِ
إنَّ الكرامَ إذا ما أسهَلوا ذَكَرُوا ... من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

وقال حبيب:

قبَح الإلهُ عداوةً لا تُتَّقَى ... ومودةً يُدلَى بها لا تنفعُ

فضل العشيرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عشيرة الرجل خيرٌ للرجل من الرجل للعشيرة، إن كفَّ عنهم يدًا واحدةً كفُّوا عنه أيدياً كثيرة، مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم. إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وسأتلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل فيما حكاه عن لوط: ﴿**لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد**﴾[1] يعني العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة. فول الذي نفسي بيده ما بعث الله نبياً من بعده إلا في ثروةٍ من قومه، ومَنَعةٍ من عشيرته، ثم ذكر شعيباً إذ قال له قومه: ﴿**إنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رَهْطُكَ لرجمناك**﴾[2]، وكان مكفوفاً، والله ما هابوا الله ولا هابوا إلا عشيرته.

---

(١) سورة هود: آية ٨٠.

(٢) سورة هود: آية ٩١.

الدَّيْن[١]

من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدَّيْنُ يَنْقُص ذا الحَسب**»[٢].

قال الشاعر:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْن لم يكن قضاءً ولكن كان غُرْماً على غُرْمِ

وقال سفيان الثوري: **الدَّيْنُ** هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار[٣]، فإذا أراد الله أن يُذل عبداً جعله قلادة في عنقه.

ورأى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً مُتقنِّعاً، فقال له: كان لقمان الحكيم

---

(١) ونورد بعض الأحاديث تحت هذا العنوان ومنها:

ـ قوله ﷺ: «**الدَّين دَيْنَان، فمن مات وهو ينوي قضاءه فأنا وليه، ومن مات ولا ينوي قضاءه فذاك الذي يؤخذ من حسناته، ليس يومئذ دينار ولا درهم**» رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر قال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع [٣٤١٨].

ـ وقال ﷺ: «**الدَّيْنُ قبل الوصية، وليس لوارث وصية**» رواه البيهقي في سننه عن علي رضي الله عنه. وقال الألباني: حديث حسن، انظر المصدر السابق [٣٤١٩] وانظر الإرواء [١٦٥٥].

ـ وقال ﷺ: «**من أخذ دَيْناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عز وجل**» أخرجه النسائي عن ميمونة رضي الله عنها. وله طرق أخرى، قال الألباني صحيح بمجموع الطرق. انظر الصحيحة [١٠٢٩].

ـ وقال ﷺ: «**إن الله مع الدائن [أي المديُون] حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكره الله**» أخرجه الدارمي وابن ماجه والحاكم وأبونعيم وابن عساكر عن عبدالله بن جعفر، وزادوا إلا الحاكم: «قال: وكان عبدالله بن جعفر يقول لخازنه: اذهب فخذ لي بدين فإني أكره أن أبيت ليلة إلا والله معي، بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ، فذكر الحديث وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. انظر الصحيحة [١٠٠٠].

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس بنحوه عن عائشة رضي الله عنها، قال الألباني: موضوع. انظر ضعيف الجامع [٣٠٣٤] وانظر الضعيفة [٣٦٢] و[٣٧٤].

(٣) روى الديلمي عن عائشة رضي الله عنها: «**الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار**» قال الألباني: ضعيف جدًا. انظر ضعيف الجامع [٣٠٣٣] والضعيفة [٣٦١٩].

يقول: القِنَاع رِيبةٌ بالليل ذُلٌّ بالنهار؛ فقال الرجلُ: إنّ لُقمان الحكيم لم يكن عليه دَيْن.

وقال المُقَنَّع الكِنْدي:

يعاتبني في الدِّين قومي وإنما ... تَداينتُ في أشياء تُكْسِبهم حَمْدَا
إذا أكلوا لَحْمي وَفَرتُ لُحومهم ... وإن هَدَمُوا مَجْدِي بنيتُ لهم مَجْدَا

مجانبة الخُلْف والكذب

وقال النبي ﷺ: «**الكَذِب مُجانب الإيمان**»(١).

وقالت الحُكماء: لَيس لكَذّاب مُروءة.

وقالوا: مَن عُرف بالكَذِب لم يَجُزْ صِدْقه.

وقال النبي ﷺ: «**لا يُجوز الكَذِب في جِدّ ولا هَزْل**»(٢).

وقال: «**لا يكون المؤمن كَذّابًا**»(٣).

وقال عبدالله بن عُمر: خُلْف الوَعْدِ ثُلُث النِّفاق.

وقال حبيب الطائي في عَيّاش:

يا أكثرَ الناسِ وَعْدًا حَشْوهُ خُلْفُ ... وأكثرَ الناسِ قولاً حَشْوُه كَذِبُ

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «**الكذب يُجانب الإيمان**» وأخرجه عنه مرفوعًا وقال: الصحيح موقوف، انظر ابن حجر / فتح الباري ٥٠٨/١٠.

(٢) رواه الإمام أحمد بنحوه (٤١٠/١) والدارمي في سننه / باب في الكذب عن أبي الأحوص عن عبدالله مرفوعًا.

(٣) روى مالك عن صفوان بن سُلَيْم أنه قال: «قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ فقال: لا». انظر الموطأ [كتاب الجامع ـ ما في الصدق والكذب].

ومن قولنا في هذا المعنى:

صَحيفةٌ أُفنِيَتْ ليتٌ بها وعسى ... عُنْوانها راحةُ الرَّاجي إذا يَئِسَا
وَعْدٌ لها هاجسٌ في القَلْب قد بَرِمتْ ... أَحشاءُ صَدْري به من طُول ما انحبسا
مَواعِدٌ غَرَّني منها وَمِيضُ سَنَى ... حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتَبِسا
فَصادفتْ حَجَرًا لو كنتَ تَضْرِبه ... مِن لُؤْمه بعَصَا مُوسى لما انْبَجَسا
كأنما صِيغ من بُخل ومن كَذِب ... فكان ذاكَ لهُ رُوحاً وذا نَفَسا

التنزه عن استماع الخنا والقول به

اعلم أن السامع شَرِيك القائل في الشر. قال الله تعالى: ﴿سمَّاعون للكذب﴾[1].

وقال العُتبى: حَدّثني أبي عن سَعد القصير قال: نَظر إليَّ عمرو بن عُتبة ورجل يَشْتُم رجلاً بين يديّ، فقال لي، ويلك ـ وما قال لي ويلك قبْلها ـ نَزِّه سَمْعك عن استماع الخَنا كما تُنزِّه لسانَك عن الكلام به، فإن السامعَ شريكُ القائل، وإنه عَمد إلى شرٍّ ما في وعائه فأَفْرغه في وِعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل في فِيهِ لَسَعِدَ رادُّها كما شَقي قائلُها.

باب في الغُلُوِّ في الدين

تُوُفِّي رجل في عَهد عمرَ بن ذَرّ ممن أَسرَف على نفسه في الذنوب، وجاوَزَ في الطُّغيان، فتَحامَى الناسُ عن جنازته، فحضرَها عمرُ بن ذرّ وصلّى عليه، فلما أَدْلَيَ في قبره قال: يَرْحمك الله أبا فُلان، صَحِبْت عُمْرك بالتوحيد، وعَفَّرت وجهك لله بالسُّجود، فإن قالوا مُذْنِب وذُو خَطايا، فَمَن منَّا غيرُ مُذنب وذِي خطايا.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَات واعمَلوا صالحًا إني بما تَعْملون عَليم﴾**[1]، **وقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كلوا من طيِّبَات ما رَزَقْنَاكُمْ﴾**[2]، **ثم ذكر الرجل يُرى أشعثَ أغبرَ يَمُدُّ يديه إلى السماء يقول: يارَب يارَبّ، ومَطْعَمه حَرَام ومشْرَبه حَرام ومَلْبسه حَرام، فأنّى يُستجاب له؟**»[3].

وقال ﷺ: «**إن هذا الدين متين فأوْغل فيه برفق، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطع ولا ظَهْرًا أبقى**»[4].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خَير هذه الأمَّة هذا النَّمط الأوْسط، يَرْجع إليهم الغالي ويَلحق بهم التّالي.

وقال سلمان الفارسي: القصد والدَّوام فأنت الجَواد السابق.

وقالوا: طالب العِلم وعاملُ البرِّ كآكِل الطَّعام، إن أكل منه قوتاً عَصمه وإن أسْرَف منه أبْشَمه.

ونظير هذا أن رُفْقة من الأشعريين كانوا في سَفر، فلما قَدِموا قالوا: ما رأينا يارسولَ الله بعدَك أفضلَ من فلان، كان يَصُوم النهار، فإذا نزَلنا قام من الليل حتى نرتحل، قال: **فَمَن كان يَمْهَن له ويكفُله؟** قالوا: كلّنا؛ قال: **كلّكم أفضلُ منه**[5].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٣) رواه مسلم بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر صحيح مسلم / كتاب الزكاة [٦٥].

(٤) رواه البزار عن جابر وهو ضعيف قاله الألباني، انظر ضعيف الجامع [٢٠٢٢] وانظر الضعيفة ١/ ٢١، ٢٤٨٠ ويغني عنه ما رواه البخاري والنسائي والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «**إن هذا الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربُوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَة**»

(٥) ضعيف قال الألباني: «لم أجده في كتب السُّنَّة وإنما أخرجه ابن قتيبة في عيون الأخبار بسند ضعيف». انظر الضعيفة [٨٤].

ويغني عن هذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنّا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم =

وقيل للزُّهري: ما الزّهد في الدنيا؟ قال: أمّا إنه ما هو بتَشعيث اللِّمَّة، ولا قَشَف الهيئة، ولكنَّه ظَلَف النَّفس عن الشَّهوة.

عليٌّ بن عاصم عن أبي إسحاق الشيباني قال:

رأيت محمد بن الحنفيَّة واقفًا بعَرفات على بِرْذَوْن وعليه مُطْرَف خز أصْفَر.

السُّدِّي عن ابن جُريج عن عثمان بن أبي سليمان: أن ابن عباس كان يَرْتدي رِدَاء بأَلْف.

إسماعيل بن عبدالله بن جعفر عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ عليه ثوبان مَصْبُوغان بالزَّعفران: رداء وعمامة[1].

أبـوحاتم عن الأصمعي: أن ابن عَوْن اشترى بُرْنساً فمرَّ على مُعاذَة العَدَويَّة، فقالت: مِثلُك يَلْبس هذا؟ فذكرتُ ذلك لابن سيرين، قال: أفَلاَ أخبرتَها أن تميمًا الدارمي اشترى حُلَّة بألف فصلّى فيها.

أبوالحسن المدائني قال: دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مُسلم وَالي خُراسان في مِدْرَعة صوف، فقال له: ما يدعوكَ إلى لِباس هذه؟ فسكَت؛ فقال له قتَيبة: أكلّمك ولا تُجيبني؟ قال: أكرَه أن أقولَ زُهدًا فأزَكّي نفسي، أو أقولَ فَقْرًا فأشكو ربي، فما جوابُك إلا السُّكوت.

= ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصُّوَّام فقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسَقُوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**». رواه البخاري ومسلم.

(١) قال الهيثمي رواه أبويعلى (٦٧٨٩) وفيه عبدالله بن مصعب الزهري ضعفه ابن معين. انظر مجمع الزوائد ج٥ كتاب اللباس / باب ما جاء في الصباغ. تحقيق محمد عبدالله الدرويش، ويغني عنه ما رواه البخاري عن أنس قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتزعفر الرجل» كتاب اللباس / باب التزعفر للرجال. وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال: «**إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها**». كتاب اللباس والزينة / باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر.

قال ابن السَّماك لأصحاب الصُّوف: والله لئن كان لباسُكم وَفْقاً لسرائركم فقد أَحبَبْتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لها فقد هَلكتم.

وكان القاسمُ بن محمد يَلبس الخزّ، وسالم بن عبدالله يَلْبس الصُّوف، ويَقْعُدان في مجلس المدينة، فلا يُنكر هذا على هذا شيئاً ولا ذا على هذا.

وصلّى الأعمشُ في مسجد قوم فأطال بهم الإمام، فلما فَرغ، قال له: ياهذا، لا تُطِلْ صلاتك، فإنه يكون خَلْفك ذو الحاجة والكَبير والضَّعيف؛ قال الإمام: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين؛ فقال له الأعمش: أنا رسولُ الخاشعين إليك، إنهم لا يَحتاجون إلى هذا منك.

العُتْبيّ قال: أصابت الربيعَ بن زياد نُشَابةٌ في جبينه، فكانت تنتقض عليه كل عام، فأتاه عليُّ بن أبي طالب عائداً، فقال له: كيف تَجدك يا أبا عبدالرحمن؟ قال: أجدُني لو كان لا يذهب ما بي إلا بذَهاب بَصَري لتمنّيت ذهابَه، قال له: وما قيمة بَصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدُّنيا فديتُه بها؛ قال: لا جَرم، ليُعطينّك الله على قَدْر الدُّنيا، لو كانت لك لأنفقتها في سبيله، إن الله يُعطي على قَدْر الألم والمُصيبة، وعنده بعدُ تَضْعيفٌ كثير. قال له الرَّبيع: يا أميرَ المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد؟ قال: وما له؟ قال: لَبسَ العَباء، وتَرَك المُلاء، وغَمّ أهْلَه، وأحْزن وَلَده؛ قال: عليَّ عاصمًا. فلما أتاه عَبس في وَجْهه، وقال: ويْلك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره منك أخْذَك منها، أنت أهونُ على الله من ذلك، أو ما سمعْته يقول: ﴿**مَرَجَ البحرين يلتقيان بينما برزخٌ لا يَبْغيان**﴾[1] حتى قال: ﴿**يَخْرُجُ منهما اللؤلؤ والمَرْجان**﴾[2]. وتالله لابتذال نِعَم الله بالفِعال، أحبُّ إليَّ من ابتذالها بالمَقال، وقد سمعته يقول: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾[3] وقوله: ﴿**قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾[4]. قال عاصم: فعلام اقتصرتَ أنت يا

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان، ١٩ و٢٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

أمير المؤمنين؟ على لِبْس الخشن وأكل الحَشف؟ قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدِّروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع بالفقير فقره. قال: فما برح حتى لبس المُلَاء وترك العباء.

محمد بن حاطب الجمحي قال: حدثني من سمع عمرو بن شُعيب، وكنت سمعته أنا وأبي جميعاً، قال: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبدالله ابن مسعود قال: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم أمَّ عبدالله بن عمرو بن العاص، وكانت امرأة تلْطُف برسول الله ﷺ، فقال: «**كيف أنتِ يا أمَّ عبدالله؟**» قالت: كيف أكونُ وعبدالله بن عمرو رجلٌ قد تخلّى من الدنيا، قال لها: «**كيف ذلك؟**» قالت: حرّم النوم فلا ينام، ولا يُفطر، ولا يَطْعم اللحم، ولا يؤدِّي إلى أهله حقَّهم؛ قال: «**فأين هو؟**» قالت: خرج ويُوشك أن يَرْجع الساعة، قال: «**فإذا رجع فاحبسيه عليَّ**». فخرج رسولُ الله ﷺ، وجاء عبدُالله وأوْشك رسولُ الله ﷺ في الرَّجعة، فقال: «**يا عبدالله بن عمرو، ماهذا الذي بلغني عنك**»، قال: وما ذاك يارسولَ الله؟ قال: «**بَلَغني أنك لا تنام ولا تُفْطر؟**» قال: أردتُ بذلك الأمنَ من الفزع الأكبر؛ قال: «**وبلغني أنك لا تَطْعم اللَّحم**»؛ قال: أردتُ بذلك ما هو خيرٌ منه في الجنة؛ قال: «**وبلغني أنك لا تؤدِّي إلى أهلك حقَّهم**»؛ قال: أردتُ بذلك نساء هنَّ خير منهن. فقال رسول الله ﷺ: «**يا عبدالله بن عمرو، إن لك في رسول الله أُسْوة حسنة، فرسولُ الله يَصوم ويُفطر ويأكل اللَّحم، ويُؤدِّي إلى أهله حقوقَهم. يا عبدالله بن عمرو، إن لله عليك حقّاً، وإن لبدنك عليك حقّاً، وإن لأهلك عليك حقّاً**»، فقال: يارسول الله، ما تأمرني أن أصوم خمسة أيام وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فأصوم أربعة وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فأصوم ثلاثة وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فيومين وأُفطر يوماً؟ قال: «**لا**»؛ قال: فيوماً وأُفْطر يوماً؟ قال: «**ذلك صيام أخي داود، يا عبدالله بن عمرو، كيف بك إذا بَقِيت في حُثالة من الناس قد مَرِجَتْ[1] عهودُهم ومواثيقُهم فكانوا هكذا ـ وخالف بين أصابعه ـ**» قال: فما تأمرني

(١) مرجت: فسدت.

به يارسول الله؟ قال: «**تأخذ ما تَعرف، وتَدَع ما تُنكر، وتَعمل بخاصَّة نَفْسك، وتَدع الناس وعوامَّ أمرهم**». قال: ثم أخذه بيده وجعل يمشي به حتى وضَع يده في يد أبيه. «**أطع أباك**». فلما كان يومُ صِفّين، قال له أبوه عمرو: يا عبدالله، اخرج فقاتل؛ فقال: يا أبتاه، أتأمُروني أن أخرج فأقاتل وقد سمعتُ من رسول الله ﷺ ما سمعت وعَهِد إليَّ ما عهد؟ قال: أنشدك الله، ألم يكن آخر ما قال لك أن أخذ بيدك فوضعها في يدي، وقال لك: أطِعْ أباك؟ قال: اللهم بلى؛ قال: فإني أعزم عليك أن تَخْرج فتقاتل. قال: فخرج فقاتل متقلِّداً بسيفين[1].

القول في القَدَر

أتى قومٌ من أهل القدر مُحَمَّدَ بن المُنْكدر. فقالوا له: أنت الذي تقول: إن الله يُعذِّب الخلق على ما قدَّر عليهم؟ فصرف وجهه عنهم ولم يُجبهم. فقالوا له: أصلحك الله، إن كنت لا تُجيبنا فلا تُخْلِنا من بركة دعائك؛ فقال: اللهم لا تُرْدِنا بعُقوبتك، ولا تَمكُر بنا حِيلتك، ولا تُؤاخذنا بتَقْصيرنا عن رضاك، قليل أعمالنا تَقبّل، وعظيم خطايانا اغفر، أنت الله الذي لم يكن شيء قبلك، ولا يكونُ شيء بعدك، وليّ الأشياء، ترفع بالهُدى من تشاء؛ لا مَن أحسن استغنى عن عَونك، ولا مَن أساء غَلَبك، ولا استبدَّ شيء عن حُكومتك وقُدرتك، لا ملجأ إلا إليك، فكيف لنا بالمعرفة وليست إلَّا في يديك، وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك، حفيظ لا ينسى، قديم لا يَبلى، حيّ لا يموت، بك عرفناك، وبك اهتدينا إليك، ولولا أنت لم نَدْرِ ما أنت، سُبحانك وتعاليت. فقال القوم: قد والله أخبر وما قَصّر.

وقال: ذُكر القَدَر في مجلس الحسن البصريّ، فقال: إن الله خلق الخلق للابتلاء،

---

(١) قال الهيثمي: في الصحيح أوله ـ رواه الطبراني من رواية عبدالملك بن قدامة الجمحي عن عمرو بن شعيب وعبدالملك، وثَّقَهُ ابن معين وغيره وضَعَّفَهُ أبوحاتم وغيره. انظر مجمع الزوائد (٢٤٢/٧) مؤسسة المعارف ـ بيروت.

لم يُطيعوه بإكراه، ولم يَعْصُوه بغَلبة، لم يُهملهم من المُلْك، وهو القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملَّكهم إياه، فإن يأتمر العِباد بطاعة الله لم يكن الله مُثَبِّطاً لهم، بل يزيدهم هدى إلى هداهم، وتقوى إلى تقواهم، وإن يأتمروا بمعصية الله، كان الله قادرًا على صرفهم إن شاء، وإن خَلّى بينهم وبين المعصية، فمن بعد إعذار وإنذار.

مروان بن موسى قال: حدثنا أبوضمرة[١] أن غيلان قدم بكلمة قد صاغها حتى وقف على ربيعة[٢]، فقال له: أنت الذي تزعم أن الله أحبَّ أن يُعْصَى؟ فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أن الله يُعصى كَرهاً؟ فكأنما ألقمه حجراً.

قال الأصمعي: سألت أعرابيًا فقلت له: ما فضلُ بني فلان على بني فلان؟ قال: الكتاب، يعني القَدَر.

وقال الله عز وجل: ﴿**إنَّا كُلَّ شيء خلقناه بقَدَر**﴾[٣]. وقال: ﴿**كُلٌّ في كتاب مبين**﴾[٤]. وقال: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين**﴾[٥] يعني القَدَر. وقال: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا**﴾[٦].

قال الخُشني أبوعبدالله محمد بن عبدالسلام: شاعران من فُحُول الجاهلية لهما بَيْتان ذَهب أحدهما في بيته مَذْهب العَدْلية، والآخر ذَهب مَذْهب الجَبْرية، فالذي ذهب مذهب العدلية أعشى بكر حيث يقول:

استأثر الله بالوفاء وبالـــــعدل وولَّى الملامة الرَّجلا

والذي ذهب مذهب الجبرية لبيد بن ربيعة حيث يقول:

إنَّ تقــوى ربِّــنَــا خَــيْرُ نَفَــل وبــإذن الله ريْــثِــي وعَــجَــلْ

---

(١) هو أنس بن عياض الليثي المدني.

(٢) هو ربيعة الرأي أبوعثمان بن عبدالرحمن.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٦.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٧١.

(٦) سورة طه، الآية: ١٢٩.

من هَدَاهُ سُبُلَ الخير اهتدى ناعِمَ البال ومنْ شَاءَ أضَل

وقال إياس بن معاوية: كلَّمتُ الفرق كلها ببعض عقلي، وكلَّمت القدري بعقلي كله، فقلت له: دخولك فيما ليس لك ظلم منك؛ قال: نعم؛ قلت: فإن الأمر كله لله.

ومن قول الله عز وجل في القدر: ﴿**قل فلله الحجَّةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**﴾(١). وقال: ﴿**يَمُنُّونَ عليك أن أسْلَمُوا قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾(٢).

ابن شهاب قال: أنزل الله على نبيه آية في القَدَرِيَّة: ﴿**الذين قالوا لإخوانهم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾(٣) وقال: ﴿**قل لو كُنْتُم في بيُوتِكُم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهم**﴾(٤).

وقال محمد بن سيرين: ما يُنكر القَدَرِيَّة أن يكون الله قد عَلِمَ من خلقه علماً فكتبه عليهم.

وقال رجلٌ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما تقول في القَدَر؟ قال: ويْحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟ قال: نعم؛ قال علي: أسْلَم صاحبُكم وقد كان كافراً؟ فقال الرجل له: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها وقوَّم خلقي، أقوم وأقعد، وأقبِضُ وأبْسُط؟ قال له علي: إنك بعدُ في المشيئة؛ أما إني أسألك عن ثلاث؛ فإن قلت في واحدة منهن لا، كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت، فمدَّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال له علي: أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء؛ قال: فخلقك الله لما شئت أو لما شاء؟ قال: بل لما شاء، قال: فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ قال: بل بما شاء، قال: قُمْ فلا مشيئة لك.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان هشام بن عبدالملك قد أنكر على غَيْلَان التكلم في القدر، وتقدم إليه في ذلك أشد التَقَدُّم، وقال له في بعض ما توعده به من الكلام: ما أحسبك تنتهي حتى تنزل بك دعوة عمر بن عبدالعزيز إذا احتجّ عليك في المشيئة بقول الله عز وجل: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾[1]، فزعمت أنك لم تُلْقِ لها بالاً؛ فقال عمر: اللهم إن كان كاذباً فاقطع يده ورجله ولسانه واضرب عنقه، فانتَه أوْلى لك، ودع عنك ما ضَرُّهُ إليك أقربُ من نَفْعِه، فقال له غَيْلان، لحَيْنه وشقوته: ابعث إليَّ يا أمير المؤمنين من يكلمني ويحتج علي، فإن أخَذْتُهُ حُجَّتي أمسكتَ عَنِّي فلا سبيل لك إليَّ، وإن أخَذَتني حُجَّتُه، فسألتك بالذي أكرمك بالخلافة إلا نفَّذت فيَّ ما دعا به عمر عليَّ. فغاظ قوله هشاماً، فبعث إلى الأوزاعي فحكى له ما قال لغَيْلان، وما رَدَّ غَيْلانُ عليه، فالتفت إليه الأوزاعي، فقال له: أسألك عن خمس أو عن ثلاث؟ فقال غيلان: بل عن ثلاث؛ قال الأوزاعي: هل علمتَ أن الله أعان على ما حرَّم؟ قال غيلان: ما علمت، [وعَظُمَتْ عنده]. قال: فهل علمتَ أن الله قَضى على ما نَهى؟ قال غيلان: هذا أعظمُ! ما لي بهذا من عِلْم؛ قال: فهل علمتَ أن الله حال دون ما أمر؟ قال غيلان: حال دون ما أمر؟ ما علمتُ؛ قال الأوزاعي: هذا مرتاب من أهل الزَّيغ. فأمر هشامُ بقطع يده ورجله، ثم أُلقي في الكُناسة. فاحْتَوشه[2] الناسُ، يَعجبون من عَظيم ما أنزل الله به من نِقمته. ثم أقبل رجلٌ كان كثيراً ما يُنْكر عليه التكلّم في القَدَر، فتخلّل الناس حتى وَصل إليه، فقال: يا غيلانُ، اذكُر دُعاء عمر رحمه الله؛ فقال غيلان: أفلح إذًا هشام، إن كان الذي نَزَل بي بدُعاء عمر أو بقضاء سابق فإنه لا حَرج على هشام فيما أمر به، فبلغت كلمته هشامًا، فأمر بقطع لسانه وضرب عُنقه لتمام دَعْوة عمر. ثم التفت هشام إلى الأوزاعي وقال له: قد قلت يا أبا عمرو فَفَسِّر؛ فقال: نعم، قَضى على ما نَهى عنه، نَهى آدم عن أكل الشجرة، وقضى عليه بأكلها؛ وحال دُون ما أمر،

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) احتوشه الناس، أي جعلوه وسطهم.

أمر إبليس بالسُّجود لآدم، وحال بينه وبين ذلك؛ وأعان على ما حرَّم، حرَّم المَيْتة، وأعان المُضطر على أكلها.

الرَّياشي عن سعيد بن عامر عن جُوَيرية عن سَعيد بن أبي عَرُوبة، قال: لما سألتُ قتادةَ عن القَدَر، فقال: رأْيَ العرب تُريد فيه أم رأي العَجم؟ فقلت: بل رَأْيَ العرب؛ قال: فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلا وهو يُثْبت القدر، وأنشد:

ما كان قَطْعي هَوْلَ كلِّ تَنُوفة ... إلا كتاباً قد خلا مَسْطُورَا

وقال أعرابيّ: الناظرُ في قَدَر الله كالناظر في عَين الشمس، يعرف ضَوْءها ولا يَختم على حدودها.

وقال كعب بن زُهَير:

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعجَبني ... سَعْيُ الفَتَى وهو مَخْبُوءٌ له القَدَرُ
يَسْعى الفتَى لأمور ليس يُدْركها ... فالنَّفْس واحدةٌ والهمُّ مُنْتشر
والمَرْءُ ما عاش مَمْدُودٌ له أَمَل ... لا تَنْتهي العينُ حتى يَنْتهي الأثر

وقال آخر:

والجَدّ أَنْهض بالفتَى من عَقْله ... فانهضْ بجَدٍّ في الحَوادث أو ذَر
ما أَقربَ الأشْياء حين يَسُوقها ... قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تُقْدَر

عبدالرحمن القَصِير قال: حدّثنا يونس بن بلال عن يَزيد بن أبي حَبيب، أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: يارسول الله، أيقدّر الله عليَّ الشرّ ثم يُعذِّبني عليه؟ قال: «**نعم، وأنت أَظْلم**»[1].

وحدّث أبوعبدالرحمن المُقْرِيء، يَرْفعه إلى أبي هُريرة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله قال: «**لا تجالسوا أهل القَدَر ولا تُفاتحوهم**»[2].

---

(١) الحديث مرسل حيث إن يزيد بن أبي حبيب تابعي.

(٢) رواه أبوداود بسند ضعيف فيه حكيم بن شريك الهزلي وهو مجهول، ومن طريقه رواه أحمد في المسند وفي السُّنَّة. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية [٢١٨].

ومن حديث عبدالله بن مسعود، قال: ما كان كُفْر بعد نُبوة قط، إلا كان مِفْتاحه التَّكذيب بالقَدَر[١].

ثمامة بن أَشْرَس قال: دَخل أبوالعتاهية على المأمون لما قَدِم العراق، فأمر له بمال، وجعل يحادثه، فقال له يوماً: ما في الناس أجهل من القدرية؛ فقال له المأمون: أنت بصناعتك أبصر، فلا تتخطَّها إلى غيرها؛ قال له: يا أمير المؤمنين، أجمع بيني وبين من شئت منهم. فأَرسَلَ إليَّ، فدخلت عليه، فقال لي: هذا يزعم أنك وأصحابك لا حُجَّة عندكم. قلت: فليسأل عما بدا له، فحرك أبوالعتاهية يده وقال: من حَرَّك هذه؟ قلت: من ناك أمه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، شتمني؛ قلت له: نقضت أصلك يا ماصّ بَظْر أمّه؛ فضحك المأمون؛ فقلت له: يا جاهل، تُحرِّك يدك، ثم تقول: مَن حَرَّكها؟ فإن كان الله حركها، فلم أشتُمك، وإن كنت أنت المُحرك لها، فهو قولي[٢]؛ قال له المأمون: عندك زيادةٌ في المسألة.

قال الكندي في الفن التاسع من التوحيد: اعلم أن العالم كله مسوس بالقضاء والقدر ـ أعني بالقضاء ـ ما قُسم لكل مَعْلول مما هو أصلح وأحْكَم وأتقن في بِنْية الكُل، لأنه ـ جل ثناؤه ـ خَلَق وأبدع مُضطرًّا ومُختارًا بتمام القُدْرة، فلما كان المختار غيرَ تام الحكمة، لأن تمام الحكمة لمُبدع الكُلّ، كان لو أُطلقَ واختيارَهُ لاختارَ كثيرًا مما فيه فَسادُ الكُلّ، فقَدَّر ـ جل ثناؤه ـ بِنْيةً للكل تقديراً محكمًا. فصيّر بعضه سوانحَ لبعض، يختار بإرادته ومشيئته غير مقهور مما هو أصلح وأحكم في بنية الكل، فتقدير هذه السَّوانح هو القَدَر، فبالقضاء والقَدَر ساس ـ جل ثناؤه ـ جميع ما أبدع بهذه السِّياسة المُحكمة المُنظمة، التي لا يَدْخلها زَلَل ولا نَقْص، فاتَّضَح أن كل مَعْلول فيما قَسم له ربُّه من الأحوال لا خارج عنها، وأن بعضَ ذلك باضطرار وبعضَه

---

(١) لم أقف عليه. وقد أورد ابن الجوزي حديثاً حول هذا المعنى عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ما كانت زندقة قط إلا أصلها التكذيب بالقدر**» وبلفظ آخر عن سهل بن سعد مرفوعاً. وقال هذا حديث موضوع. انظر الموضوعات ١/ ٢٧٤.

(٢) فهو قولي: أي شتمه إياه.

باختيار، وأن المُختار عن سَوانح قَدَره اختار، وبإرادته لا بالكَرْه منه فَعل.

سُئل أعرابيّ عن القَدَر فقال: ذاك عِلْم اختَصَت فيه الظُّنون، وكَثر فيه المُختلفون، والواجب علينا أن نَرُد ما أَشْكل من حُكْمه إلى ما سبق في عِلْمه.

واصْطَحب مَجوسي وقَدَري في سفر، فقال القدريّ للمجوسي: ما لك لا تُسلم؟ قال: إن أذن الله في ذلك كان؛ قال: إن الله قد أذن إلا أن الشيطان لا يدعك؛ قال: فأنا مع أقواهما.

وقال رجل لهشام بن الحكم: أنت تزعم أنت الله في فضله وكرمه وعدله كلفنا ما لا نُطيقه، ثم يُعذِّبنا عليه؟ قال هشام: قد والله فعل، ولكن لا نستطيع أن نتكلم.

اجتمع عمرو بن عُبيد مع الحارث بن مسكين بمِنَى، فقال له: إن مِثلي ومثلك لا يجتمعان في مثل هذا الموضع، فيَفترقان من غير فائدة، فإن شِئتَ فُقلْ، وإن شئتَ فأنا أقول؛ قال له: قل؛ قال: هل تعلم أحداً أقبلَ للعذر من الله عز وجل؟ قال: لا؛ قال: فهل تعلم عذرًا أبينَ من عُذْر من قال لا أقدر، فيما تعلم أنت أنه لا يقدر عليه؟ قال: لا؛ قال: فلِمَ لا يقبل ـ من لا أقْبَلَ للعذر منه ـ عُذْر من لا أبْيَنَ من عُذْره؟ فانقطع الحارث بن مسكين فلم يَرُدّ شيئًا.

رد المأمون على الملحدين وأهل الأهواء

قال المأمون للثَّنوي الذي تكلّم عنده: أسألك عن حَرْفين لا أزيد عليهما، هل نَدِم مُسيء قطُّ على إساءته؟ قال: بلى؛ قال: فالنَّدم على الإساءة إساءةٌ أم إحسان؟ قال: بل إحسان؛ قال: فالذي نَدِم هو الذي أساء أم غَيْره؟ قال: بل هو الذي أساء؛ قال: فأرَى صاحب الخَيْر هو صاحب الشر؟ قال: فإني أقول: إن الذي نَدِم غير الذي أساء. قال: فنَدِم على شيء كان منه أم على شيء كان من غَيْره؟ فسكت.

قال له أيضًا: أخبرني عن قولك باثنين، هل يستطيع أحدُهما أن يَخلُق خلقاً لا يَستعين فيه بصاحبه؟ قال: نعم؛ قال: فما تَصنع باثنين؟ واحدٌ يخلق كل شيء خيرٌ لك وأصح.

وقال المأمون للمُرتد الخُراساني الذي أسلم على يديه وحمله معه إلى العراق فارتدَّ عن الإسلام: أخبرني ما الذي أوْحَشك مما كنتَ به آنساً من ديننا؟ فوالله لأن أستحْييك بحق، أحبَّ إليَّ من أن أقتلُك بحق، وقد صرت مسلماً بعد أن كنت كافرًا، ثم عدت كافرًا بعد أن صرت مسلماً، وإن وجدت عندنا دواء لدائك تداويت به، وإن أخطأك الشِّفاء، وتباعد عنك، كنتَ قد أبليتَ العُذْر في نفسك، ولم تُقصِّر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناك في الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار واليقين، ولم تُفَرِّط في الدُّخول من باب الحزْم؛ قال المرتد: أوْحشني منكم ما رأيتُ من كثرة الاختلاف في دينكم؛ قال المأمون: لنا اختلافان: أحدُهما كاختلافنا في الآذان، وتكبير الجنائز، وصلاة العيدين، والتشهّد، والتَّسليم من الصلاة، ووُجوه القرآات، واختلاف وُجوه الفُتيا، وما أشبه ذلك، وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير وتَوْسعة وتخفيف من السنَّة، فمن أذَّن مثنى وأقام مثنى لم يأْثم، ومن ربَّع لم يأثم. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبينا، مع اجتماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان إنما أوْحشك هذا، فينبغي أن يكون اللفظُ بجميع التوراة والإنجيل متفقًا على تأويله كما يكون متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلافٌ في شيء من التأويلات، ولو شاء الله أن يُنزِّل كُتبه مُفَسَّرة، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُختلف في تأويله لفعل، ولكنَّا لم نجد شيئًا من أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طُولِ البحث والتحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك لسَقَطت البَلْوى والمِحن، وذَهَب التفاضُل والتبايُن، ولما عُرف الحازم من العاجز، ولا الجاهل من العالم، وليس على هذا بُنيت الدنيا. قال المُرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبدالله، وأن محمدًا صادق، وأنك أمير المؤمنين حقّا.

وقال المأمون لعلي بن موسى الرِّضا: بم تَدَّعُوَن هذا الأمر؟ قال: بقرابة عليّ من رسول الله ﷺ وعلى آله، وبقرابة فاطمة منه؛ فقال له المأمون: إن لم يكن هاهنا إلا القرابة، فقد خَلَّف رسول الله ﷺ من أهل بيته من كان أقرب إليه من عَليّ، أو من

في مثل قُعْدُده[١]، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ، فإن الحقَّ بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيَّان، فإذا كان الأمر كذلك، فإن عليًّا قد ابتزَّهما حقّهما وهما صحيحان، واستولى على ما لا يجب له. فما أجابه علي ابن موسى بشيء.

كتب واصل بن عَطاء الغزّال إلى عمرو بن عبيد: أما بعد، فإن استلاب نعمة العبد وتعجيل المعاقبة بيد الله، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثار، والمجاورة للجدال الذي يحول بين المرء وقلبه، وقد عرفتُ ما كان يُطعن به عليك ويُنسب إليك ونحن بين ظَهْراني الحسن بن أبي الحسن رحمه الله، لاستبشاع قُبْح مذهبك، نحن ومن قد عرفته من جميع أصحابنا، ولُمَّة إخواننا، الحاملين الواعين عن الحسن، فلله تلكم لُمَّة وأوعياء وحفظة، ما أدمث الطبائع، وأرْزن المجالس، وأبينَ الزُّهد، وأصدقَ الألسنة، اقتدوا والله بمن مَضى شبهاً بهم، وأخذوا بهديهم. عهدي والله بالحسن وعهدكم به أمس في مَسْجد رسول الله ﷺ بشرقيّ الأجنحة، وآخر حديث حدثنا إذ ذَكر الموت وهول المُطَّلع، فأسف على نفسه واعترف بذنبه، ثم التفت والله يمنة ويَسرة مُعتبرًا باكيًا، فكأني أنظر إليه يمسَح مُرْفض العَرَق عن جبينه، ثم قال: اللهم إني قد شَددْت وَضِين[٢] راحلتي، وأخذت في أهبة سَفَري إلى محلّ القبر وفَرْش العَفْر، فلا تؤاخذني بما ينسبون إليَّ من بعدي، اللهم إني قد بلَّغْتُ ما بَلغني عن رسولك، وفسَّرت من مُحْكم تأويلك ما قد صَدَّقه حديثُ نبيّك، ألا وإني خائفٌ عَمْراً، ألا وإني خائف عَمْرا، شكاية لك إلى ربِّه جَهرًا، وأنت عن يمين أبي حُذيفة أقربنا إليه؛ وقد بلغني كبير ما حمّلته نفسَك، وقلّدته عنقك، من تَفسير التنزيل، وعبارة التأويل، ثم نظرتُ في كتبك، وما أدّته إلينا روايتك من تنقيص المعاني، وتفريق المَباني، فدلَّت شكاية الحسن عليك بالتَّحقيق بظهور ما ابتَدَعت، وعظيم ما تحمَّلت، فلا يَغْرُرك [أي أخي] تَدْبيرُ مَن حولك، وتعظيمهم طولَك، وخَفضهم أعينهم عنك إجلالاً

(١) قعدده، أي قرب نسبه.

(٢) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر، أو لا يكون إلا من جلد.

لك، غداً والله تمضى الخُيلاء والتفاخر، وتُجْزى كلّ نَفْس بما تَسعى، ولم يكُن كتابي إليك، وتَجليبي عليك، إلا لَتذْكيرك بحديث الحسن رحمه الله، وهو آخر حَديث حدّثناه، فأدِّ المَسموع، وأنطق بالمفرُوض، ودَعْ تأويلك الأحاديث على غير وَجْهها، وكن من الله وَجِلاً.

باب من أخبار الخوارج

لما خرجت الخوارج على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا من أصحابه، وكان من أمر الحكَمَيْن ما كان، واختداع عمرو لأبي مُوسى الأشعري، قالوا: لا حُكْم إلا لله. فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه نداءهم، قال: كلمة حق يُراد بها باطل، وإنما مَذْهبهم أن لا يكون أمير، ولابُدَّ من أمير بَرّاً كان أو فاجراً. وقالوا لعليّ: شككت في أمرك، وحكَّمت عدوّك في نَفْسك. وخرجوا إلى حَرُوراء، وخرج إليهم عليٌّ رضي الله عنه، فَخطبهم متوكّئًا على قَوْسه، وقال: هذا مَقامُ مَن أفلح فيه أفلح يوم القيامة، أنْشُدكم الله، هل عَلِمتم أنْ أحداً كان أكرَه للحكومة منّي؟ قالوا: اللهم لا؛ قال: أفعلمتم أنكم أكرهتموني عليها حتى قِبلتُها؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: فعلام خالفتُموني ونابذتموني؟ قالوا: إنّا أتينا ذنباً عظيماً فتُبْنا إلى الله منه، فتُب إلى الله منه، واستغفره نعُدْ إليك. فقال عليٌّ: إني أستغفر الله من كل ذنب، فرَجَعوا معه وهم في ستّة آلاف. فلما استقرُّوا بالكوفة أشاعُوا أن عليّاً رَجع عن التَّحْكيم، وتاب منه، ورآه ضلالاً. فأتى الأشعثُ بن قيس عليّاً رضي الله عنه؛ فقال: ياأمير المؤمنين، إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيتَ الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كُفرًا وتُبْت. فخطب عليٌّ الناس فقال: من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فهو أضل منها. فخرجت الخوارج من المسجد فحكّمت، فقيل لعلي: إنهم خارجون عليك؛ فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون.

فوجه إليهم عبدالله بن العباس، فلما سار إليهم رحَّبوا به وأكرموه، فرأى لهم

جباهاً قرحة لطول السجود، وأيديًا كثَفِنات[١] الإبل، وعليهم قمُص مُرْحَضة[٢] وهم مُشمِّرُون، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ قال: جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه، وأعلمنا بربه وسنة نبيه، ومن عند المهاجرين والأنصار؛ فقالوا: إنا أتينا عظيماً حين حَكّمنا الرجالَ في دين الله، فإن تاب كما تُبْنا ونهض لمُجَاهدة عدوّنا رَجعنا. فقال ابن عباس: نَشدتكم الله إلا ما صَدَقتم أنفسكم أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تُساوي رُبع درهم تُصَادُ في الحرم، وفي شقاق رجل وامرأته؟ فقالوا: اللهم نعم؛ قال: فأنشدكم الله، هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية؟ قالوا: نعم، ولكن عليّاً محا نفسه من خلافة المسلمين. قال ابن عباس: ليس ذلك يُزيلها عنه، وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة، وقال سهيل بن عمرو: لو علمتُ أنك رسول الله ما حاربتُك، فقال للكاتب: «**اكتُب: محمد بن عبدالله**». وقد أخذ على الحَكَمَين أن لا يجورا، وإن يَجُورا، فعليٌّ أوْلى من مُعاوية وغيره؛ قالوا: إن مُعاويةَ يدَّعي مثلَ دعوى عليّ؛ قال فأيُّهما رأيتُموه أوْلى فولُّوه؛ قالوا: صدقتَ. قال ابن عباس: ومتى جار الحَكَمان فلا طاعة لهما ولا قَبُول لقولهما فاتَّبعه منهم ألفان وبَقي أربعة آلاف.[٣]

فصلّى بهم صلاتَهُم ابنُ الكَوّاء، وقال: متى كانت حرب فرئيسُكم شَبَث بن رِبْعِي الرِّياحي فلم يزالوا على ذلك حتى أجمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرَّاسبيّ، فخرج بهم إلى النَّهروان، فأوقع بهم عليّ، فقتل منهم ألفين وثمانمائة، وكان

---

(١) الثفنات: جمع ثفنة، وهي من البعير الركبة، وما مس الأرض من كركرته وسعداناته وأصول أفخاذه.

(٢) مرحضة: مغسولة.

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك (٢/١٦٦) كتاب أهل البغي وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال ابن حجر: «أخرج النسائي في الخصائص صفة مناظرة ابن عباس لهم بطولها» انظر فتح الباري ١٢/٢٩٦. وانظر الوادعي/المسند الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ١/٤٩٦.

عددُهم ستة آلاف، وكان منهم بالكوفة زُهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمره، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌّ رضي الله عنه: ارجعوا وادفعُوا إلينا قاتل عبدالله بن خَبّاب؛ قالوا: كلنا قتله وشرِك في دَمه، وذلك أنهم لما خرجوا النهروان لقوا مسلمًا ونصرانيًا، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيرًا، وقالوا: احفظُوا ذمّة نبيكم. ولُقوا عبدالله بن خَبّاب، وفي عنقه المصحف ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك، فقال لهم: أحيوا ما أحيا القرآن، أميتوا ما أمات القرآن، قالوا: حدثنا عن أبيك، قال: حدثني أبي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، فكُن عبدالله المقتول ولاتكن عبدالله القاتل**»[1] قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيرًا، قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وفي عثمان؟ فأثنى خيرًا، قالوا: فما تقول في الحكومة والتحكيم؟ قال: أقول: إن عليّاً أعلمُ بكتاب الله منكم، وأشد تَوقّياً على دينه وأبعد بصيرة؛ قالوا: إنك لست تتّبع الهدى بل الرجال على أسمائها، ثم قَرَّبوه إلى شاطيء البحر فذبحوه، فامذَقَرَّ دمُه، أي جَرى مستقيمًا على دقة وسامُوا رجلاً نَصْرانيًا بنَخلْه، فقال: هي لكم هِبَة؛ قالوا: ما كنا نأخذها إلا بثَمن؛ فقال: ما أعجب هذا! أتقتلون مثل عبدالله بن خباب، ولا تقبلون منا جنَى نخلة إلا بثَمن!

ثم افترقت الخوارج على أربعة أضرب: الإباضية، أصحاب عبدالله بن إباض؛ والصُّفرية، واختلفوا في نَسبهم، فقال قوم: سُمُّوا بابن الصَّفار، وقال قوم: نهكتهم العبادة فاصفرّت وجوهُهم؛ ومنهم البَيْهسية، وهم أصحاب ابن بَيْهس؛ ومنهم الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكانوا قبلُ على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشيء الشاذ.

---

(١) أورده ابن حجر بنحوه. انظر المصدر السابق ١٢/٢٩٧.

وقال ابن الديبع له شواهد يتقوى بعضها ببعض. انظر تمييز الطيب من الخبيث [١٠٥٣]، وأيضاً قاله السخاوي انظر المقاصد الحسنة [٨٤٦]، وانظر أرواء الغليل ٨/١٠٠ [٢٤٥١].

رد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه على شوذب الخارجي

الهيثم بن عدي قال: أخبرني عوانة بن الحكم عن محمد بن الزُّبير قال: بعثني عمر بن عبدالعزيز مع عون بن عبدالله بن مسعود إلى شوذب الخارجي وأصحابه إذ خرجوا بالجزيرة، وكتب معنا كتابًا، فقدمنا عليهم ودفعنا كتابه إليهم، فبعثوا معنا رجلاً من بني شيبان ورجلاً فيه حبشية يقال له شوذب. فقدما معنا على عمر وهو بخناصرة[1]، فصعدنا إليه، وكان في غرفة ومعه ابنه عبدالملك وحاجبه مُزاحم، فأخبرناه بمكان الخارجيَّيْن؛ فقال عمر: فتِّشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما، فلما دخلا قال: السلام عليكم، ثم جلسا؛ فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم عن حُكمي هذا وما نقمتم علي؟ فتكلَّم الأسود منهما، قال: إنا والله ما نقمنا عليك في سيرتك، وتحريك العدل والإحسان إلى من وليت، ولكن بيننا وبينك أمرًا إن أعطيتناه فنحن منك وأنت مِنَّا، وإن منعتناه، فلست مِنَّا ولسنا منك؛ قال عمر: ما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أهل بيتك وسمَّيتها مظالم وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هُدى وهم على ضلال فالعنهم وابرأ منهم؛ فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يُفرِّق. فتكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، وإني سائلُكما عن أمر، فبالله أصدقاني فيه مبلغ علمكما؛ قالا: نعم؛ قال: أخبراني عن أبي بكر وعُمر، أليسا من أسلافكما، ومن تتولَّيان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالا: اللهم نعم؛ فهل علمتما أن أبابكر حين قُبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري؟ قالا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها؟ قالا:

---

(١) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين.

نعم؛ قال: فهل بريء عمر من أبي بكر أو تبرءون أنتم من أحد منهما؟ قالا: لا؛ قال: فأخبراني عن أهل النهروان، أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: نعم؛ قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفّوا أيديهم، فلم يسفكوا دمًا، ولم يُخيفوا آمنًا، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعَر بن فُديك استعرضوا الناس يقتلونهم، ولقوا عبدالله بن خباب بن الأرت، صاحب رسول الله ﷺ، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقونهم في قُدور الأقط[1] وهي تفور؟ قالا: قد كان ذلك؛ قال: فهل بريء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالا: لا؛ قال: فهل تبرءون أنتم من إحدى الفئتين؟ قالا: لا؛ قال: أفرأيتم الدِّين، أليس هو واحد، أم الدِّين اثنان؟ قالا: بل واحد؛ قال: فهل يسعكم منه شيء يعجزني؟ قالا: لا؛ قال: فكيف وسعكم أن تولَّيتم أبابكر وعمر وتولَّى كلُّ واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة وتولَّى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: الدماء والفُروج والأموال؛ ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي والتبرُّؤ منهم؟ أورأيتَ[2] لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها؟ فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ قال: ما أذكر أني لعنته؛ قال: ويحك! أيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق، ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جُهَّال أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تردُّن على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ، بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلا أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله، ووجبت حرمته، وأمِنَ به عند رسول الله ﷺ، وكان إسوة المسلمين، وكان حسابه على الله، أفلستم تلقون من خَلَع الأوثان، ورَفَضَ الأديان، وشَهِدَ أن لا إله

---

(١) الأقط (مثلثة ككتف، وفيها لغات أخرى): طعام يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل.

(٢) يلاحظ أنه أفرد الضمير هنا وفيما سيأتي، ولعله يخاطب شوذبًا الخارجي.

إلا الله وأن محمدًا رسول الله تستحلون دمه وماله، ويلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرِّمون دمه وماله [ويأمن عندكم]؛ فقال الأسود: ما سمعتُ كاليوم أحداً أبين حُجّة، ولا أقرب مأخذاً، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأني بريءٌ ممن بريء منك. فقال عمر لصاحبه: يا أخا بني شَيبان، ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما قُلْتَ ووصفتَ، غير أني لا أفتات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت وأنظر ما حجتهم؛ قال: أنت وذاك. فأقام الحبشي مع عمر، وأمر له بالعطاء فلم يلبث أن مات، ولحق الشيباني بأصحابه، فقُتل معهم بعد وفاة عمر [رضي الله عنه].

القول في أصحاب الأهواء

وذُكر رجلٌ عند النبي ﷺ، فذَكروا فضلَه وشدَّة اجتهاده في العبادة. فبينما هم في ذِكْره حتى طَلع عليهم الرجلُ، فقالوا: يارسول الله، هو هذا؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أما إني أرى بين عينيه سفعة من الشيطان**»، فأقبل الرجل حتى وقف فسلم عليهم، فقال: «**هل حدثتك نفسك إذ طلعت علينا أنه ليس في القوم أحسنُ منك**»؟ قال: نعم، ثم ذهب إلى المسجد فصفّ بين قدميه يصلِّي. فقال النبي ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله؟**» فقال أبوبكر: أنا يارسول الله. فقام إليه فوجده يصلي فهابه فانصرف؛ فقال: ما صنعتَ؟ قال: وجدته يصلِّي يارسول الله فهبته. فقال النبي ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله**»؟ فقال عمر: أنا يارسول الله. فقام إليه فوجده يصلِّي فهابه فانصرف، فقال: يا رسول الله، وجدته يصلي فهبته. فقال رسول الله ﷺ: «**أيكم يقوم إليه فيقتله؟**» قال عليٌّ: أنا يارسول الله؛ قال: «**أنت له إن أدركته**». فقام إليه فوجده قد انصرف. فقال النبي ﷺ: «**هذا أول قَرْنٍ يَطلُعُ في أمتي، لو قتلتموه ما اختلف بعده اثنان، إن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه**

الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي الجماعة»[1].

الرافضة

إنما قيل لهم رافضة، لأنهم رفضوا أبابكر وعمر ولم يرفضهما أحدٌ من أهل الأهواء غيرهم، والشيعة دونهم، وهم الذين يفضلون عليًّا على عثمان، ويتولون أبابكر وعمر. فأما الرافضة فلها غلو شديد في عليّ، ذهب بعضهم مذهب النصارى في المسيح، وهم السَّبئية أصحاب عبدالله بن سبأ، عليهم لعنة الله، وفيهم يقول السيد الحميري:

قومٌ غلوا في عليٍّ لا أبَا لهمُ ... وأجشَمُوا أنفُسا في حُبِّه تَعَبَا
قالوا هو الله، جَلَّ الله خالقُنا ... من أن يكون ابنَ شيء أو يكون أبا

وقد أحْرقهم عليٌّ رضي الله عنه بالنَّار.

ومن الرَّوافض: المغيرة بن سعد مولى بَجيلة. قال الأعمش: دخلتُ على المُغيرة بن سعد، فسألتُه عن فضائل عليّ؛ فقال: إنك لا تَحْتملها؛ قلتُ: بلى. فَذَكر آدم صلوات الله عليه، فقال: عليٌّ خير منه، ثم ذكر مَن دونه من الأنبياء، فقال عليٌّ خير منهم، حتى انتهى إلى محمد ﷺ، فقال: عليٌّ مثلُه، فقلت: كذبت، عليك لعنة الله؛ قال: قد أعلمتُك أنك لا تحتملها.

ومن الروافض: من يزعُم أن عليّاً رضي الله عنه في السحاب، فإذا أطلَّت عليهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن. وقد ذكرهم الشاعر فقال:

بَرِئتُ من الخوارج لستُ منهم ... من الغَزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذَكروا عليًّا ... يردُّون السلامَ على السَّحاب

(١) قال ابن الجوزي هذا حديث لا يصح انظر العلل المتناهية [١٣٦٠] ج٢ ص٨١٢. وأما افتراق الأمة فقد وردت أحاديث صحيحة تبين ذلك.

ولكنّي أُحبُّ بكلّ قَلْبي ... واعْلم أن ذاك من الصواب
رسولَ الله والصِّدِّيقَ حَقًّا ... به أرجو غدًا حُسن الثَّواب

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم: المنصورية. وهم أصحاب أبي منصور الكِسْف، وإنما سُمِّي الكِسْف لأنه كان يتأوَّل في قول الله عز وجل: ﴿**وإن يروا كِسْفاً من السماء ساقِطاً يقولوا سَحَابٌ مركوم**﴾[1]، فالكِسْفُ عليٌّ وهو في السحاب.

وكان المغيرة بن سعد من السَّبئية الذين أحْرقهم عليٌّ رضي الله تعالى عنه بالنار، وكان يقول: لو شاء عليٌّ لأحيا عادًا وثمودَ وقرونًا بين ذلك كثيرًا. وقد خرج على خالد بن عبدالله، فقتله خالدٌ وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر.

ومن الرَّوافض كُثيِّر عَزَّة الشاعر. ولما حضرته الوفاة، دعا ابنةَ أخٍ له، فقال: يا بنتَ أخي، إن عمك كان يحب هذا الرجل فأحبِّيه ـ يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ فقالت: نصيحتك يا عم مردودة عليك، أحبُّه والله خلافَ الحُبِّ الذي أحببتَه أنت؛ فقال لها: برئت منك، وأنشد يقول:

برئت إلى الإله من ابن أَرْوى ... ومن قولِ الخوارج أجمعينَا
ومن عُمرٍ برئتُ ومن عَتيق ... غداةَ دُعي أميرَ المؤمنينا

ابنُ أروى: عثمان.

والرَّوافض كلها تؤمن بالرَّجعة، وتقول: لا تقوم الساعةُ حتى يخرج المهديُّ، وهو محمد بن عليّ، فيملؤها عَدْلاً كما مُلِئتْ جَوْرًا، ويُحيي لهم موتاهم فيَرْجعون إلى الدنيا، ويكون الناسُ أمةً واحدة. وفي ذلك يقول الشاعر:

ألا إنَّ الأئمة من قريش ... وُلاةَ العَدْل أربعةٌ سَواء
عليٌّ والثلاثةُ من بَنيه ... همُ الأسباط ليس بهم خَفاء
فسِبْطٌ سِبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسِبْط غَيَّبته كَرْبلاء

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، وهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٤.

ومن الروافض: السيد الحِميري، وكان يُلقَى له وسائد في مسجد الكوفة يجلس عليها، وكان يؤمن بالرَّجعة، وفي ذلك يقول:

إذا ما المرْء شابَ له قَذالُ ... وعَلَّله المَواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودَى ... فقُم بأبيك فابكِ على الشَّباب
فليس بعائدٍ ما فاتَ منه ... إلى أحدٍ إلى يوم المَآب
إلى يومٍ يؤوب النَّاسُ فيه ... إلى دُنْياهُمُ قَبْلَ الحساب
أدين بأن ذاك كذاك حقًّا ... وما أنا في النشور بذي ارتياب
لأن الله خَبَّر عن رجالٍ ... حَيُوا من بعد دَسٍّ في التُّراب

وقال يرثي أخاه:

يا ابن أمِّي فدتك نفسي ومالي ... كنتَ رُكني ومَفْزعي وجَمَالي
ولعمري لئن تركتك مَيْتاً ... رهن رمس ضَنْك عليك مُهالَ
لوشيكاً ألقاك حيّاً صحيحاً ... سامعاً مُبْصرًا على خير حال
قد بُعثتم من القبور فأبتم ... بعد ما رَمَّت العظام البَوالي
أو كسبعين وافداً مع موسى ... عاينوا هائلاً من الأهوال
حين راموا من خبثهم رؤية اللـ ... ـه وأنى برؤية المتعالي
فرماهم بصعقة أحرقتهم ... ثم أحْيَاهُمُ شديدُ المِحال

دخل رجل من الحِسْبانيَّة على المأمون، فقال: لثُمامة بن أشرس: كلمه؛ فقال له: ما تقول وما مذهبك؟ فقال: أقول إن الأشياء كلها على التوهُّم والحِسْبان، وإنما يُدْرك منها الناس على قَدْر عقولهم، ولا حقَّ في الحقيقة. فقام إليه ثُمامة، فلطمه لطمة سودت وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين، يفعل بي مثل هذا في مجلسك! فقال له ثمامة: وما فعلت بك؟ قال: لطمتني قال: ولعل إنما دهنتُك بالبان، ثم أنشأ يقول:

ولعلَّ آدمَ أُمُّنا ... والأب حوّا في الحِساب
ولعلَّ ما أبصرتَ من ... بيض الطيور هو الغُراب
وعَساك حين قَعَدْتَ قُمـ ... ـتَ وحين جئت هو الذهاب

وعسى البنفسج زئبقاً وعسى البهار هو السَّذاب[1]
وعساك تأكل من خَرَا ك وأنتَ تَحْسبه الكَباب

ومن حديث ابن أبي شيبة أن عبدالله بن شداد قال: قال لي عبدالله بن عباس: لأخبرنَّك بأعجب شيء: قَرَع اليومَ على الباب رجلٌ لما وضعتُ ثيابي للظَّهيرة، فقلتُ: ما أتى به في مثل هذا الحين إلا أمرٌ مهمّ، أدخلوه. فلما دخل قال: متى يُبعث ذلك الرجل؟ قلت: أي رجل؟ قال: عليّ بن أبي طالب؛ قلت: لا يُبعث حتى يَبعث الله من في القبور؛ قال: وإنك لتقول بقول هذه الجَهلة! قلت: أخرجوه عني لعنه الله.

ومن الروافض الكَيْسانية، قلتُ: وهم أصحاب المُختار بن أبي عُبيد، ويقولون إن اسمه كَيْسان.

ومن الرافضة الحُسينية، وهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر، وكانوا يطوفون بالليل في أزقَّة الكوفة وينادون: يا ثارات الحُسين؛ فقيل لهم: الحُسينية.

ومن الرافضة الغُرابية: سمِّيت بذلك لقولهم: عليٌّ أشبه بالنبي من الغُراب بالغراب.

ومن الرافضة الزيدية، وهم أصحاب زيد بن علي المقتول بخراسان، وهم أقلُّ الرافضة غُلوًا، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج.

مالك بن معاوية قال: قال لي الشعبي، وذكرنا الرافضة: يا مالك لو أردت أن يعطوني رقابهم عبيداً وأن يملئوا بيتي ذهبًا عليِّ على أن أكذب لهم على عليّ كذبة واحدة لقبلوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبداً، يا مالك، إني درست الأهواء كلها فلم أر قومًا أحمق من الرافضة، فلو كانوا من الدواب لكانوا حميرًا، أو كانوا من الطير لكانوا رَخَمًا. ثم قال: أحذِّرك الأهواء المضلة شرُّها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يُبغضون الإسلام، كما يُبغض اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبَغْيًا عليهم، وقد أحرَقهم عليٌّ بن أبي طالب

(١) السذاب: نوع من البقول.

رضي الله عنه بالنار، ونفاهم إلى البُلدان، منهم: عبدالله بن سبأ، نفاه إلى ساباط، وعبدُالله بن سباب، نفاه إلى الجازر[١]، وأبوالكَرَوَّس، وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل دواد، وقالت الرافضة: لا جهادَ في سبيل الله حتى يخرجُ المهديُّ، وينْزل سبَب من السماء، واليَهود يُؤخِّرون صلاةَ المغرب حتى تشتبك النُّجوم، وكذلك الرافضة، واليهود لا ترى الطَّلاق الثلاث شيئًا، وكذا الرافضة، واليهود لا ترى على النساء عدة وكذلك الرافضة، واليهود تستحل دم كلِّ مسلم، وكذلك الرافضة، واليهود حَرّفوا التوراة وكذلك الرافضة حَرّفت القرآن، واليهود تُبْغض جبريلَ وتقول: هو عَدوُّنا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غَلط جبريلُ في الوَحْي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب، واليهود لا تأكل لحم الجزور، وكذلك الرافضة. ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرافضة في خصلتين، سُئِل اليهود من خَيْر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسُئلت النصارى، فقالوا: أصحاب عيسى، وسُئلت الرافضة: من شرّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحابُ محمد، أمرهم الله بالاستغفار لهم[٢] فَشَتَموهم، فالسيفُ مَسْلول عليهم إلى يوم القيامة، لا تَثْبُت لهم قدم، ولا تَقومُ لهم راية، ولا تُجمع لهم كلمة، دَعْوتُهم مَدْحورة، وكَلِمتهم مُختلفة، وجَمْعهم مُفرَّق، كلما أَوْقدُوا نارًا للحرب أطْفأها الله.

وذكرت الرافضةُ يومًا عند الشَّعبي فقال: لقد بغَّضُوا إلينا حديثَ عليّ بن أبي طالب.

وقال الشعبي: ما شَبَّهتُ تأويل الروافض في القرآن إلا بتأويل رَجل مَضْعوف من بني مَخْزوم من أهل مكة وجدته قاعداً بفناء الكَعْبة، فقال يا شعبي: ما عندك في

---

(١) الجازر: قرية من نواحي النهروان، من أعمال بغداد قرب المدائن.

(٢) أمرهم، أي أمر الله الناس ومنهم الرافضة بالاستغفار لهم، أي لأصحاب محمد.

تأويل هذا البيت؟ فإن بني تميم يغلطون فيه ويزعمون أنه إنما قيل في رجل منهم، وهو قول الشاعر:

بيْتاً زُرَارَةُ مُحتَبٍ بفِنائه ومُجاشِعٌ وأبو الفَوارس نَهْشَلُ

فقلت له: وما عندك أنت فيه؟ قال: البيتُ هو هذا البيت، وأشار بيده إلى الكعبة، وزرارة الحجر، زُرِّر حول البيت؛ فقلت له: فَمُجاشع؟ قال: زمزم جشعت بالماء؛ قلت: فأبوالفوارس؟ قال: هو أبوقُبيس جبل مكة؛ قلت: فنهشل؟ ففكر فيه طويلاً ثم قال: أصبتُه، هو مصباح الكعبة طويلٌ أسود، وهو النهشل.

باب في الحياء

قال النبي ﷺ: «**الحَيَاءُ خيرٌ كلَّه**»(١). «**الحياء شُعْبَةٌ من الإيمان**»(٢).

وقال عليه السلام: «**إن الله تبارك وتعالى يحب الحيي الحليم المتعفف، ويكره البذيء السَّأَّل المُلْحِف**»(٣).

وقال عون بن عبدالله: الحياء والحلم والصَّمتُ من الإيمان.

وقال ابن عمر: الحياء والإيمان مقرونان جميعاً، فإذا رُفع أحدهما ارتفع الآخر معه.

وذكر أعرابيٌّ رجلاً حيّاً فقال: لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى به عنك وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المُسيء.

---

(١) رواه مسلم وأبوداود عن عمران بن حصين، انظر مختصر مسلم [٣١].

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» انظر مختصر مسلم [٣٠].

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه. وفيه سوار بن مصعب وهو متروك انظر المعجم الكبير ١٠/٢٤١ والمجمع ٨/١٦٩ - ١٧٠.

لليلي الأخيلية:

فتى هو أحْيَا من فَتَاةٍ حييَّةٍ ... وأشجَعُ من ليثٍ بخفَّان خادِر

ولابن قيس أيضاً:

تَخَالُهم للحِلْم صُمّاً عن الخَنَا ... وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجر

ومرضى إذا لوقُوا حياءً وعفَّةً ... وعند الحِفاظِ كالليوث الخوادر

وقال الشعبي: تعاشر الناس فيما بينهم زماناً بالدِّين والتَّقوى، ثم رُفع ذلك فتعاشروا بالحياء والتذمُّم، ثم رُفع ذلك، فما يتعاشر الناس إلا بالرَّغبة والرَّهبة، وسيجيء ما هو شر من ذلك.

ولبعضهم:

فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياء[1]

وقال آخر:

إذا رُزق الفتى وجهاً وَقاحاً ... تقلَّب في الأمور كما يشاء

ولم يكُ للدَّواء ولا لشيء ... تعالجه به فيه غَناء

ورُبَّ قبيحةٍ ما حالَ بيني ... وبين رُكُوبها إلا الحَياء

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: قُرنت الهيبةُ بالخَيْبة، والحياء بالحِرْمان.

وقد قيل:

ارفع حياءَكَ فيما جئتَ طالبَه ... إن الحياء مع الحرمان مَقرونُ

قال الحسن: من استتر بالحياء[2] لبس الجهل سِرْباله، فقطِّعوا سرابيل الحياء، فإنه مَن رقّ وجهه رق عِلْمه.

وَصَف رجل الحياء عند الأحنف فقال: إن الحياء لَيَتمُّ لمقدار من المقادير، فما زاد على ذلك فسمِّه بما أحببت[2].

---

(١) هذا البيت لأبي تمام من شعر له في التعريض ببعض بني حميد، أوله:

إذا جاريت في خلق دَنِيّاً ... فأنْتَ ومَن تُجاريه سَواء

(٢) المقصود هنا بالحياء الخجل، فإنه مذموم عند الرجال، أما الحياء فكله خير.

وللشّماخ:

أُجاملُ أقواماً حياءً وقد أَرى ... صدورهم بادٍ عَليَّ مراضُها

ولابن أبي حازم:

وإني ليَثْنيني عن الجهل والخنا ... وعن شَتْم ذي القُربى خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلام وتَقْوى وأنَّني ... كريم ومِثْلي قد يَضُرُّ ويَنْفع

وقال آخر:

إذا حُرم المرءُ الحَيَاءَ فإنه ... بكلّ قبيح كان منه جديرُ
له قِحة في كل أمر وسِرُّه ... مُباح وجدواه جفاً وغرور
يَرى الشَّتْم مَدْحاً والدناءة رِفْعة ... وللسَّمْع منه في العِظات نُفور
فرجِّ الفتى ما دام حيّاً فإنهُ ... إلى خيرِ حالات المُنيب يَصير

باب جامع الآداب

أدب الله لنبيه ﷺ

قال أبوعُمر أحمد بن محمد: أوّل ما نبدأ به أدبُ النبي ﷺ، ثم أدبه ﷺ لأمته، ثم الحكماء والعُلماء، وقد أدّب الله نبيه بأحسن الآداب كلها، فقال له: ﴿**ولا تجعَلْ يَدَك مَغْلُولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فتقعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾(١). فنهاه عن التَّقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسّط الحالين، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿**والذين إذا أنفقُوا لم يُسرفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَامًا**﴾(٢)، وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ جوامع الكَلِم في كتابه المُحكم، ونَظَم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات منه، فقال: ﴿**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عَنِ الجَاهِلين**﴾(٣). ففي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

أخذه العفو صلة من قطعه، والصفح عمن ظلمه، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج. ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدَّبه باللين في عريكته والرفق بأمته فقال: ﴿واخفِضْ جَنَاحَك لمن اتَّبعَكَ من المؤمنين﴾[١]. وقال: ﴿ولو كُنْتَ فظًّا غليظَ القَلب لانفَضُّوا من حَوْلك﴾[٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿لا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَع بالتي هي أحسَنُ فإذَا الذي بينك وبينَهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حَمِيم. وما يُلَقَّاهَا إلاَّ الذين صَبَروا ومَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حظٍّ عظيم﴾[٣]. فلما وعى عن الله عز وجل وكملت فيه هذه الآداب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حَريصٌ عَليكُم بالمؤمنين رءوفٌ رَحيم. فإن تَولَّوا فَقُل حَسْبي الله لا إله إلا هو عليه توكَّلتُ وهو رَبُّ العرشِ العَظِيم﴾[٤].

باب أدب النبي ﷺ لأمّته

قال النبي ﷺ فيما أدّب به أمته وحضَّها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام: «أوصاني ربي بتسع وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عَمَّن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عِبَراً»[٥].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٥) أورده الماوردي في أدب الدنيا والدين [٥٣٨] بنحوه دون ذكر السند، والحديث لم يصح عن النبي ﷺ والله أعلم.

وقد قال ﷺ: «**نهيتكم عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال**»(١).

وقد قال ﷺ: «**لا تقعدوا على ظهور الطرق، فإن أبيتم فغضُّوا الأبصار، وأفشوا السلام، واهدوا الضال، وأعينوا الضعيف**»(٢).

وقد قال ﷺ: «**أَوْكُوا السِّقاء، واكْفَئُوا الإناء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقًا، ولا يحل وكاء ولا يكشف الإناء**»(٣).

وقال ﷺ: «**ألا أنبئكم بشَرِّ الناس؟ قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: من أكل وحده وَمَنَعَ رِفْدَه، وجَلَدَ عَبْدَه**» ثم قال: «**ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**من لا يُقيل عثرة ولا يقبل معذرة**» ثم قال: «**ألا أنبئكم بشر من ذلك؟**» قالوا: بلى يارسول الله؛ قال: «**من يُبغض الناس ويُبغضونه**»(٤).

وقال ﷺ: «**حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداوُوا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء**»(٥).

---

(١) رواه البخاري بنحوه (كتاب الاستئذان) ومسلم (كتاب الأقضية) وأحمد ج٤ ص٢٥٠ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) روى البخاري في (كتاب الاستئذان) ومسلم في (كتاب السلام) عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس بالطرقات**» فقالوا: يارسول الله ما لنا من مجالسنا بُدّ نتحدث فيها فقال: «**إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**»، قالوا: وما حق الطريق يارسول الله؟ قال: «**غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» (واللفظ للبخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا خير في جلوس في الطرقات إلا لمن هدى السبيل، وردَّ التحية، وغضَّ البصر، وأعان على الحمُولَة**» المشكاة ٤٦٦١ كتاب الآداب.

(٣) أخرجه البخاري بنحوه «كتاب الاستئذان / باب غلق الأبواب بالليل» ومسلم «كتاب الأشربة / باب الأمر بتغطية الإناء» والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٠١) (٣/٣٧٤) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٤) رواه ابن عساكر عن معاذ بنحوه، وهو ضعيف قاله الألباني، انظر الضعيف [٢١٧٣].

(٥) رواه الطبراني في الكبير وأبونعيم في الحلية عن ابن مسعود. وقال الألباني: ضعيف جداً انظر الضعيف [٢٧٢٤] وانظر الضعيفة [٣٤٩٢]. وأما مداواة المرضى بالصدقة فقد روى أبوالشيخ في =

وقال ﷺ: «**ما قَلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألْهى**»(١).

وقال ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤُهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم**»(٢).

وقال ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السُّفلى**»(٣).

وقال ﷺ: «**وابدأ بمن تعول**»(٣).

وقال ﷺ: «**لا تَجْنِ يمينُكَ على شمالك، (ولا يُلدغ المؤمن من جُحر مرَّتين)**»(٤).

وقال ﷺ: «**المرء كثيرٌ بأخيه**»(٥).

= الثواب عن أبي أمامة «**داووا مرضاكم بالصدقة**» قال الألباني: حسن. انظر صحيح الجامع [٣٣٥٨].

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني وأبونعيم والحاكم والبيهقي والخطيب في كتاب البخلاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الهيثمي: رجال أحمد وبعض رجال أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد / كتاب الزهد (١٠/٤٤٨) طبعة دار الفكر تحقيق عبدالله الدرويش. وقد صححه الألباني بشواهده انظر الصحيحة (٩٤٧).

(٢) أخرجه أبوداود والنسائي عن علي رضي الله عنه بلفظ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يَدٌ على من سواهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده**». كما رواه ابن ماجه عن ابن عباس. قال الألباني: صحيح، انظر المشكاة [٣٤٧٥] [٣٤٧٦].

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له ومسلم عن حكيم بن حزام بلفظ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله**».

(٤) أول الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، وأما ما بين الأقواس فهو متفق عليه عن أبي هريرة بلفظ: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان عن سهل بن سعد. قال الألباني: ضعيف. انظر الضعيفة [١٨٩٥] وضعيف الجامع [٥٩٢٢].

وقال ﷺ: «**الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة واحدة، والناس كلهم سواء كأسنان المشط**»(١).

وقال ﷺ: «**رحم الله عبداً قال خيراً فغَنِم، أو سَكَتَ فَسَلِم**»(٢).

وقال ﷺ: «**خير المال سِكَّة مأبُورَة، ومُهرة مأمورة، وخير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة**»(٣).

وقال ﷺ: «**ما أملق تاجر صدوق**(٤) **وما أقفر بيت فيه خَلّ**»(٥).

وقال ﷺ: «**قَيّدوا العِلم بالكتابة**»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما / كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن خالد بن أبي عمران مرسلاً بلفظ: «**رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت** عن **سوء فسلم**» وحَسَّنه الألباني بمجموع طرقه، انظر الصحيحة [٨٥٥] وصحيح الجامع [٣٤٩٦].

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة بلفظ: «**خير مال المرء له مُهْرة مأمورة أو سِكَّة مأبورة**». وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، انظر مجمع الزوائد [٥/٢٥٨] وسكت عنه الحافظ في الفتح [٨/٣٩٥] والسِكَّة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة. والمأمورة: الكثيرة النسل والنتاج، وأما بقية الحديث الذي أورده ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ فلم أجده في المصادر التي بين يدي والله أعلم.

(٤) عزاه صاحب موسوعة أطراف الحديث إلى الجامع الكبير / المخطوط الجزء الثاني (٢/٤٧٥).

(٥) رواه الإمام أحمد (٣/٣٥٣) عن جابر (رضي الله عنه) قال الألباني: إسناده جيد، انظر الصحيحة [٢٢٢٠].

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير، والحاكم عن ابن عمرو رضي الله عنهما وقد رُوي بطرق أخرى وأورده ابن الجوزي في العلل، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الجامع [٤٤٣٤].

obeikandl.com

وقال ﷺ: «**افصِلُوا بين حديثكم بالاستغفار، (واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)**»(١).

وقال ﷺ: «**لا يُؤَم ذو سُلْطان في سُلْطانه، ولا يُجْلس على تَكْرمته إلا بإذنه**»(٢).

وقال ﷺ: «**يقول ابنُ آدم مالي مالي، وإنما له من ماله ما أكلَ فأفنى، أو لبس فأبلى، أو وهب فأمضى**»(٣).

وقال ﷺ: «**ستحرصون على الإمارة، فنعمت المُرْضعة وبئست الفاطمة**»(٤).

وقال ﷺ: «**لا يَحْكم الحاكم بين اثنَين وهو غَضْبان**»(٥).

وقال ﷺ: «**لو تكاشفتم ما تدافنتم**(٦)، **وما هلك امرؤ عَرَفَ قَدْرَه**»(٧).

---

(١) أول الحديث لم أجده في المصادر التي بين يدي، وأما ما بين الأقواس فقد أخرجه الطبراني في الكبير وأبونعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه بلفظ: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**».
كما رُوي بطرق أخرى وأورده ابن الجوزي في الموضوعات ونقل عن الإمام أحمد ويحيى بن معين رحمهما الله أنهما قالا: هو موضوع ليس له أصل. وقد سبق الكلام على هذا الحديث في باب «استنجاح الحوائج».

(٢) رواه مسلم بنحوه (١/١٨٦) وأحمد (٥/٢٧٢) والترمذي في سننه [باب ما جاء من أحق بالإمامة] وأبوداود (١/٢٢٨) والنسائي (١/١٢٦) وابن ماجة (١/١٦٠).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**يقول العبد: مالي مالي، وإن ما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**» (كتاب الزهد والرقائق).

(٤) أخرجه البخاري والنسائي عن أبي هريرة بنحوه. وقد مر بنا الحديث في باب الولاية والعزل.

(٥) متفق عليه عن أبي بكرة مرفوعًا بلفظ: «**لا يقضين حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**» وفي لفظ لمسلم: «**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**» انظر صحيح مسلم كتاب الأقضية.

(٦) ليس بحديث وينسب للحسن البصري. انظر الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث [١٥٢] طبعة الراية.

(٧) لم أجده في المصادر التي بين يدي، والله أعلم.

باب في آداب الحكماء والعلماء منه في فضيلة الأدب

أوصى بعضُ الحكماء بنيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعةً، وأنْفسها قيمةً، يَرْفع الأحساب الوَضيعة، ويُفيد الرَّغائب الجليلة ويُعِزّ بلا عشيرة، ويُكثر الأنصار بغَيْر[1] رزيَّة، فالبَسُوه حُلّة، وتزيَّنُوه حِلية، يُؤْنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة[2].

ومن كلام عليٍّ [رضي الله عنه]: فيما يُروى عنه أنه قال: مَن حَلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حُرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرِّآسة صبر على السِّياسة، ومن أبصر عيب نفسه عَمِيَ عن عَيب غيره، ومن سلَّ سيف البغْي قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومن نسي زلَّته استعظم زلّة غيره، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللُّجج غرق، ومن أُعجب برأيه ضلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ، ومن تجبَّر على الناس ذَلَّ، ومن تعمَّق في العمل مَلَّ؛ ومن صاحَب الأنذال حُقِّر، ومن جالس العلماء وُقِّر؛ ومن دخل مداخل السوء أُتُّهم، ومن حَسَنُ خُلقه، سهُلَت له طرقه، ومن حسَّن كلامه، كانت الهيبة أمامه، ومن خشي الله فاز، ومن استقاد الجهل، ترك طريق العدل، ومن عرف أجله، قصر أمله، ثم أنشأ يقول:

ألبِسْ أخاك على عيُوبه ... واستُر وغطِّ على ذُنوبه
واصْبر على بهت السفيه ... ولِلزمان على خُطوبه
ودَع الجوابَ تفضُّلاً ... وكِلِ الظَّلوم إلى حسيبه

---

(١) بغير رزية، أي بغير أن يرزءوك شيئا تتكلفه لهم كفاء نصرهم إياك.

(٢) ينطبق هذا الوصف على العلم الشرعي.

وقال شبيب بن شيبة: اطُلبوا الأدب فإنه مادة للعقل، ودليل على المروءة، وصاحب في الغربة، ومُؤنس في الوحشة، وحِلْيَة في المجلس، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاهاً بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفَّع: إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يعجبك ذلك، فإن الكرامة تزول بزوالهما، ولكن ليُعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأسُ الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنية.

وقال مصقلة الزبيري: لا يستغنى الأديب عن ثلاثة واثنين؛ فأما الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحُسن العبارة. وأما الاثنان، فالعلم بالأثر والحفظ للخبر.

وقال: الحَسب مُحتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بُزُرْجَمِهْر: ما وَرَّث الآباء الأبناء شيئاً خيرًا من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه.

وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قَدْرَه.

وقالوا: حُسْن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال سفيان الثوري: من عَرَف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه.

وقال أنوشروان للمُوبَذ، وهو العالم بالفارسية: ما كان أفضلُ الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العِلْم بالإشارة، وكما يموت البَذْر في السِّباخ[1]، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة، قال: صدقتَ، ونحن لهذا قلّدناك ما قلّدناك.

---

(١) السباخ: جمع سبخة (مُحَرَّكَة ومُسَكَّنَة) وهي أرض ذات نَزّ وملح.

وقيل لأرْدَشير: الأدب أغلب أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب، والطبيعة أملك، لأن بها الاعتقاد، ونماء الغراسة، وتمام الغِذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أعْوَنُ للعقل بعد الطبيعة المولودة؟ قال: أدب مُكتسب.

وقالوا: الأدب أدَبان: أدبُ الغَريزة وهو الأصل، وأدب الرِّواية وهو الفَرْع، ولا يتفرَّع شيء إلا عن أصله، ولا يَنْمى الأصل إلا باتصال المادة.

وقال الشاعر:

ولم أرَ فَرْعاً طال إلا بأَصْله ... ولم أرَ بَدْء العِلْم إلا تَعَلُّما

وقال حبيبت:

وما السيفُ إلا زُبْرَةٌ[1] لو تركتَه ... على الحالة الأولى لما كان يَقْطعُ

وقال آخر:

ما وهب الله لامريء هِبةً ... أفضلَ من عَقْله ومن أدبهْ
هُما حياةُ الفَتى فإن فُقِدَا ... فإن فَقْد الحياة أحسنُ به

وقال ابن عباس: كَفَاك من عِلْم الدّين أن تَعْرف ما لا يَسعك جهلُه، وكفاكَ من عِلْم الأدب أن تَرْوي الشاهد والمثَل.

قال ابن قُتيبة: إذا أردتَ أن تكون عالماً فاطلب فَنّاً واحداً، وإذا أردتَ أن تكون أديبًا فتفنَّن في العلوم.

وقالت الحُكماء: إذا كان الرجل طاهرَ الأثواب، كثيرَ الآداب، حسنَ المَذْهب، تأدَّب بأدبه وصَلُح لصلاحه جميع أهله وولده. قال الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المَرْء يُصْلح أهلَه ... ويُفسدهم ربُّ الفَساد إذا فَسَدْ
يُعظَّم في الدنيا لِفَضْل صَلاحه ... ويُحْفَظ بعد الموت في الأهْل والوَلد

---

(١) الزبرة: القطعة من الحديد.

وفي رقة الأدب

قال أبوبكر بن أبي شيبة: قيل للعباس بن عبدالمطلب: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: هو أكبر مني وأنا أسنّ منه[١].

وقيل لأبي وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنّاً، وهو أكبر مني عقلاً.

وقال أبان بن عثمان لطويس المغني: أنا أكبر أم أنت؟ قال: جعلت فداك، لقد شهدت زفاف أمك المباركة على أبيك الطيب. انظر إلى حذقه ورقة أدبه كيف لم يقل أمك الطيبة إلى أبيك المبارك.

وقيل لعمر بن ذَرّ: كيف برّ ابنك بك؟ قال: ما مَشَيت نهاراً قطُّ إلا مَشى خَلْفي، ولا ليلاً إلا مَشى أمامي، ولا رَقى عليّة وأنا تحته.

ومن حديث عائشة، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يُبجِّل أحداً تبجيله لعمّه العباس[٢].

وكان عمر وعثمان إذا لقيا العباس نزلا إعظاماً له، إذا كانا راكبَيْن[٣].

ومن قولنا في رقة الأدب:

أدبٌ كمثْل الماء لو أفْرغتَه ... يوماً لسال كما يَسيلُ الماء

وقال عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت أكرم أدباً ولا أكرم عِشْرَةً من أبيك، سَمَرتُ عنده ليلة، فبينا نحن كذلك إذا عَشى المصباحُ ونام الغلام، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، قد عَشى المصباح ونام الغلام، فلو أذنتَ لي

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة عن أبي رزين قال: قيل للعباس أنت أكبر أو رسول الله ﷺ؟ قال: هو أكبر مني وولدت أنا قبله. انظر المصنف في الأحاديث والآثار ج٨ كتاب الأدب [٦٣٠٧].

(٢) لم أجده في المصادر التي بين يدي، ولكن أورد ابن حجر، عن أبي سفيان بن الحارث عن أبيه قال: كان العباس أعظم الناس عند رسول الله ﷺ. انظر ابن حجر / الإصابة ج٤ ص٣٠.

(٣) أورد ذلك ابن عبدالبر (رحمه الله) انظر الاستيعاب ج٢ ص ٨١٤.

أصلحتُه، فقال: إنه ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفَه، ثم حط رداءه عن منكبيه، وقام إلى الدَّبَّة فصبَّ من الزيت في المصباح وأشْخص الفتيلة، ثم رجع وأخذ رداءه وقال: قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

العتبي عن أبيه قال: صوَّت رجل عند عمر بن الخطاب في المسجد، فلما كانت الصلاة قال عمر: عَزَمتُ على صاحب الصوت إلا قام فتوضأ؛ فلم يَقُم أحدٌ. فقال جرير بن عبدالله: يا أمير المؤمنين، اعزم علينا كلّنا أن نقوم فنتوضأ، قال: صدقت، ولا عَلِمتُك إلا سيداً في الجاهلية، فقيهاً في الإسلام، قوموا فتوضئوا[1].

الرياشي عن الأصمعي قال: حدثني عثمان الشحَّام، قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد، قال: لبيِّك؛ قلت: أتقول لي لبيك؟ قال: إني أقولها لخادمي.

وقال الشاعر[2]:

يا حبَّذا حين تُمسي الريحُ بادرةً ... وادِي أُشَيٍّ[3] وفتيانٌ به هُضمُ[4]
مُخَدَّمون كرامٌ في مجالسهم ... وفي الرحال إذا جرَّبتهم خَدم
وما أُصاحب من قوم فأذكُرهم ... إلا يزيدهمُ حُبّاً إليَّ هُم

---

(١) قال الألباني: أخرجه الطبراني في الكبير عن مجالد موقوفاً على عمر رضي الله عنه وفي إسناده مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال عنه الحافظ في التقريب «ليس بالقوي وقد تغير في آخر عهده» وأشار الألباني إلى خطأ الهيثمي حول سند الحديث.
وقال الألباني: رواه ابن عساكر عن مجاهد مرفوعاً وقال عن الحديث باطل وذكر أن سنده ضعيف مسلسل بالعلل: الإرسال من مجاهد وضعف واصل بن أبي جميل والبابلتي. انظر الضعيفة [١١٣٢].

(٢) نسب هذا الشعر في معجم البلدان عند الكلام على «أشي» وفي لسان العرب (مادتي هضم وأشي) لزياد بن منقذ التميمي، أخو المرار. ونسب في الشعر والشعراء للمرار بن منقذ.

(٣) وادي أشي موضع بالوشم في نجد.

(٤) هضم: جمع هضيم، وهو الضامر اللطيف الكشح. يعني أنهم يجودون في وقت الجدب وضيق العيش، وأضيق ما كان عيشهم في زمن الشتاء.

الأدب في الحديث والاستماع

وقالت الحُكماء: رأسُ الأدب كلِّه حُسنُ الفَهم والتفهّم والإصغاءِ للمتكلّم.

وذكر الشّعبي قوماً فقال: مارأيتُ مثلهم أسدَّ تَناوباً في مَجلس، ولا أحسن فَهْماً من مُحدِّث.

وقال الشعبي، فيما يَصِف به عبدَ الملك بن مروان: والله ما علمتُه إلا آخذاً بثلاث، تاركاً لثلاث، آخذاً بحُسن الحديث إذا حَدّث، وبحُسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأَيْسر المؤونة إذا خُولف، تاركاً لمجاوبة اللئيم، ومماراة السَّفيه، ومُنازعة اللجُوج.

وقال بعض الحُكماء لابنه: يابُني، تعلّم حُسن الاستماع كما تتعلّم حُسن الحديث، وليعلم الناسُ أنك أحرصُ على أن تَسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تُسرع في القَول فيما تُحِبّ عنه الرُّجوع بالفِعْل، حتى يعلم الناسُ أنك على فِعل ما لم تَقُل أقربُ منك إلى قَوْل ما لم تَفْعل.

وقالوا: من حُسن الأدب أن لا تُغالب أحداً على كلامه، وإذا سُئِل غيرُك فلا تُجب عنه، وإذا حَدَّث بحديث فلا تُنازعه إياه، ولا تَقتحم عليه فيه، ولا تُره أنك تعلمه، وإذا كلّمت صاحبك فأخذته حُجتك فحسِّن مخرج ذلك عليه، ولا تُظهر الظَّفر به، وتَعلّم حُسنَ الاستماع، كما تعلم حُسنَ الكلام.

وقال الحسنُ البَصري: حَدِّثوا الناسَ ما أقبلوا عليكم بوجُوههم.

وقال أبو عبَّاد الكاتب: إذا أنكر المُتكلِّم عين السامع فَليسأله عن مَقاطع حديثه، والسبَب الذي أُجرى ذلك له؛ فإن وَجده يقف على الحقّ أتم له الحديث، وإلّا قطعه عنه وحَرمه مُؤانسته، وعَرّفه ما في سُوء الاستماع من الفُسُولة والحِرمان للفائدة.

الأدب في المجالسة

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة: أن النبيّ ﷺ قال: «**لا يَقُم الرجلُ للرجلِ من مجلسه ولكن ليوسِّعْ له**»(١).

وكان عبدُ الله بن عمر إذا قام له الرجلُ عن مجلسه لم يجلس فيه(٢)؛ وقال: لا يقم أحد لأحد عن مجلسه، ولكن افسَحوا يَفْسَحِ الله لكم.

أبو أُمامة قال: خرج إلينا النبيُّ ﷺ فقمنا إليه؛ فقال: **لا تقوموا كما يقوم العجم لعُظمائها**. فما قام إليه أحد منّا بعد ذلك(٣).

ومن حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: **إن خرجتُ عليكم وأنتم جُلوس فلا يَقُومنَّ أحدٌ منكم في وجهي، وإن قمت فكما أنتم، وإن جلست فكما أنتم، فإنّ ذلك خُلُقٌ من أخلاق المشركين**(٤).

وقال ﷺ: **الرّجل أحقُّ بصَدر دابَّته، وصَدر مجلسه، وصَدر فراشه، ومن قام عن مجلسه وَرَجع إليه فهو أحقّ به**(٥).

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**لا يُقِيْمُ الرجلُ الرجلَ من مقعده ثم يجلس فيه. ولكن تفسحوا وتوسعوا**».

(٢) رواه مسلم، انظر صحيح مسلم/ كتاب السلام، باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه.

(٣) رواه أبو داود عن أبي أمامة بنحوه. قال الألباني ضعيف، انظر ضعيف سنن أبي داود [باب في قيام الرجل للرجل] وانظر الضعيفة [٣٤٦] والمشكاة [٤٧٠٠].
ويغني عنه ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سَرَّهُ أن يتمثَّلَ له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**» رواه الترمذي وأبو داود. وقال الألباني إسناده صحيح، انظر تخريج المشكاة [٤٦٩٩].

(٤) لم أقف عليه وماقبله يغني عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢) عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «**الرجل أحق بصدر دابته وأحق بمجلسه إذا رجع**». حَسَّنه الألباني في صحيح الجامع [٣٥٤٣] وفي لفظ آخر «**الرجل أحق** =

وقال ﷺ: «إذا جلس إليك أحد فلا تقم حتى تستأذنه»[١].

وجَلس رجلٌ إلى الحسن بن عليّ عليهما الرّضوانُ، فقال له: إنك جلستَ إلينا، ونحن نريد القيام؛ أفتأذَنُ؟

وقال سعيدُ بنُ العاص: مامددتُ رجلي قَطُّ بين يَدَي جليسي، ولا قمتُ عن مجلسي حتى يقوم.

وقال إبراهيمُ النَّخعيّ: إذا دخل أحدُكم بيتاً فليَجلس حيثُ أجلسه أهلُه.

وطَرح أبو قِلابة لِرَجُل جَلَس إليه وسادةً فَرَدَّها؛ فقال: أَما سَمِعتَ الحديثَ: لا تَرُدَّ على أخيك كرامَته؟ [٢]

وقال علي بن أبي طالب رضوانُ الله عليه: لا يأبى الكرامةَ إلا حِمار[٣].

وقال سَعيد بن العاص: لجليسي عَلَيَّ ثلاثٌ: إذا دنَا رَحَّبتُ به، وإذا جَلَس وَسَّعتُ له، وإذا حَدَّث أقبلتُ عليه. وقال: إنّي لأكره أن يمرّ الذُّباب بجليسي مخافَة أن يُؤذيه.

الهيثمُ بن عديّ عن عامر الشَّعبي قال: دَخل الأحنفُ بنُ قيس على مُعاوية فأشار إليه إلى وسادة فلم يَجلس عليها، فقال له: ما مَنعك ياأَحنف أن تَجلس على الوسادة؟ فقال: ياأمير المؤمنين، إنَّ فيما أوصى به قيس بن عاصم ولده أن قال: لا تَسْعَ

= **بمجلسه، وإن خرج لحاجته ثم عاد فهو أحق بمجلسه»** أخرجه الترمذي [٤/٦] عن وهب ابن حذيفة، قال الألباني إسناده صحيح، انظر صحيح الجامع [٣٥٤٤] والإرواء [٤٩٤].

(١) ذكره ابن عبدالبر القرطبي دون ذكر سند الحديث. انظر بهجة المجالس ١/٤١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٦/١٥٠ عن أنس مرفوعاً بلفظ **«من أكرمه أخوه المسلم فليقبل كرامته فإنما هي كرامة الله فلا تردوا على الله كرامته»** وهذا الحديث ضعيف في إسناده سعيد بن عبدالله بن دينار قال أبو حاتم مجهول.

ويغني عنه مارواه الترمذي في كتاب الآدب عن ابن عمر مرفوعاً **«ثلاثة لا ترد الوسائد والدهن واللبن»** قال ابن حجر في الفتح اسناده حسن إلا أنه ليس على شرط البخاري. فتح الباري ج٥ ص ٢٤٧ كتاب الهبة/ باب مالا يرد من الهبة.

(٣) قال العجلوني «رواه الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً ثم قال ويقال انه من قول علي» قال السخاوي وهو كذلك انظر كشف الخفا ٣٠٩٨ والمقاصد الحسنة ١٣١٧.

للسُّلطان حتى يَمَلَّك، ولا تقطعه حتى يَنساك، ولا تَجلِس له على فراش ولا وسادة، واجعل بَينك وبينه مَجلسَ رجل أو رجلين.

وقال الحسنُ: مُجالسة الرَّجل من غير أن يُسأل عن اسمه واسم أبيه مُجالسة النَّوكى[1].

ولذلك قال شَبيب بن شَيبة لأبي جعفر، ولَقِيه في الطَّواف وهو لا يعرفه، فأعجبه حسن هَيئته وسَمته: أصلحك الله، إنِّي أُحب المعرفةَ، وأُجلك عن المسألة؛ فقال: أنا فُلان بنُ فلان.

قال زياد: ما أتيتُ مجلساً قطّ إلا تركتُ منه ما لو جلستُ فيه لكان لي، وتَرْكُ ما لي أحبُّ إليَّ من أخذ ما ليس لي.

وقال: إيّاكَ وصُدورَ المَجالس وإن صَدَّرك صاحبُها، فإنها مجالس قُلَعة[2].

وقال الشعبي: لأن أُدعَى مِن بُعد إلى قُرب أحبُّ إليَّ من أُقصى من قُرب إلى بُعد.

وذكروا أنه كان يوماً أبو السَّمراء عند عبد الله بن طاهر، وعنده إسحاقُ بن إبراهيم، فاستدنَى عبدُ الله إسحاقَ فَناجاه بشيء، وطالت النَّجوى بينهما. قال: فاعترَتني حَيرَةٌ فيما بين القُعود على ما هما عليه والقيام، حتى انقطع ما بينهما وتنحَّى إسحاق إلى مَوقفه، ونظر عبدُ الله إليَّ، فقال: يا أبا السَّمراء:

إذا النَّجيَّان سَرَّا عنك أمرَهما ... فانزح بِسَمعك تَجهَلْ ما يَقُولانِ
ولا تُحَمِّلهما ثِقْلاً لخوفهما ... على تَناجيهما بالمجلس الدَّاني

فما رأيتُ أكرَم منه، ولا أرفق أدباً، ترك مُطالبتي في هَفوتي بحق الأمراء، وأدَّبني أدبَ النُّظراء.

---

(١) النَّوكَي: جمع أَنْوَكُ وهو الأحمق. والنُّوْكُ (بالضم): الحمق، قال قيس بن الخطيم:

وداءُ الجسم ملتمس شفاء ... وداء النوكِ ليس له دواءُ

انظر ابن منظور/ لسان العرب مادة «نوك».

(٢) أي لا يثبت صاحبها فيها.

وقال النبيُّ ﷺ: [**إنما أحدُكم مِرآة أخيه، فإذا رأى عليه أذى فَليُمطه عنه**][1]، **وإذا أخذ أحدُكم على أخيه شيئاً فليقل: لا بك السُّوء، وصرَف الله عنك السُّوء**[2].

وقالوا: إذا اجتمعت حُرمتان، أسقطت الكبرى الصُّغرى.

وقال المُهلَّب بن أبي صُفرة: العيش كلّه في الجَليس المُمتع.

الأدب في المماشاة

وَجَّه هِشامُ بن عبد الملك ابنَه على الصَّائفة، ووجَّه معه ابنَ أخيه، وأوصى كلَّ واحد منهما بصاحبه؛ فلما قَدِما عليه، قال لابن أخيه: كيف رأيتَ ابنَ عمّك؟ فقال: إن شئتَ أجملتُ، وإن شئتَ فسّرتُ؛ قال: بل أجمل؛ قال: عرضت بيننا جادَّة فتركها كلُّ واحد منّا لصاحبه، فما رَكِبناها حتى رَجعنا إليك.

وقال يحيى بن أكثم: ما شيتُ المأمون يوماً من الأيام في بُستان مُؤنسة بنت المهدي، فكنتُ من الجانب الذي يَستُرُه من الشَّمس، فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع، وأردتُ أن أدور إلى الجانب الذي يَسْتُرُه من الشمس، فقال: لا تفعل، ولكن كُن بحالك حتى أسترك كما سَترتني، فقلت: ياأمير المؤمنين، لو قدرتُ أن أقيك حَرَّ النار لفعلتُ فكيف الشمسُ؟ فقال: ليس هذا من كرم الصُّحبة، ومَشى ساتراً لي من الشّمس كما سترتُه.

---

(١) ما بين القوسين قال الألباني: ضعيف جداً، رواه عبد الله بن المبارك في الزهد، وعنه رواه الترمذي وابن أبي شيبة والسمناني وأبو الحسن الحربي وابن عساكر عن يحيى بن عبيد الله قال سمعت أبي قال: سمعت أبا هريرة يقول مرفوعاً. ويحيى هذا متروك. انظر الضعيفة [١٨٨٩]. ويغني عنه ما أخرجه ابن وهب في الجامع وعنه أبو داود والبخاري في الأدب المفرد من طريق كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه**». قال العراقي سنده حسن. انظر المغني عن حمل الأسفار [١٨٢٤] وانظر صحيح الأدب المفرد ١٧٨ / ٢٣٩ والصحيحة [٩٢٦].

(٢) ما بعد القوس لم أجده في المصادر التي بين يدي.

وقيل لعُمَر بن ذر: كيف برُّ ابنك بك؟ قال: ما مشيتُ نهاراً قط إلا مَشى خَلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رَقِى سَطحاً وأنا تحته.

وقيل لزياد: إنك تَستخلص حارثة بن بَدر وهو يُواقع الشَّراب؛ فقال: وكيف لا أستخلصه وما سألته عن شيء قط إلا وجدتُ عنده منه عِلماً، ولا استودعتُه سِراً قطَّ فضَيَّعه، ولا راكبني قطُّ فمسَّت رُكبتي رُكبته.

محمد بن يزيد بن عُمر بن عبد العزيز قال: خرجتُ مع موسى الهادي أمير المُؤمنين من جُرجان؛ فقال لي: إمّا أن تَحملني، وإمّا أن أحملك، فعلمتُ ما أراد، فأنشدتهُ أبياتَ ابن صِرمة:

أوصِيْكُمُ بالله أولَ وَهلةٍ ... وأحسابكم والبرُّ بالله أوَّلُ
وإن قومُكم سادُوا فلا تَحسدُوهمُ ... وإن كُنتُم أهلَ السيادة فاعدِلوا
وإن أنتُمُ أعوزتُمُ فتعفَّفُوا ... وإن كان فَضلُ المال فيكم فأَفضِلوا
وإن نزلت إحدى الدَّواهي بقَومكم ... فأنفُسَكم دون العَشيرة فاجعلوا
وإن طَلبوا عُرفاً فلا تَحرموهُمُ ... وما حَمَّلوكم في المُلمّات فاحملوا

قال: فأمر لي بعشرين ألف دِرهم.

وقيل: إن سعيد بن سَلم راكب موسى الهادي، والحَربةُ بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تَسفي التراب، وعبدُ الله يَلحظ موضع مَسير مُوسى، فيتكلَّف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبلَ على سَعيد بن سَلم، فقال: أما ترى ما نَلْقى من هذا الخائن؟ قال: والله ياأميرَ المؤمنين ما قَصَّر من الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق.

باب السلام والإذن

قال النبي ﷺ: «**أطِيبُوا الكلام، وأفشُوا السلام، وأطعِموا الأيتام، وَصَلُّوا بالليل والناسُ نِيام**»(١).

وقال ﷺ: «**إن أبخل الناس الذي يبخل بالسلام**»(٢).

وأتى رجلٌ النبيَّ ﷺ، فقال: عليك السلامُ يارسول الله؛ فقال: «**لا تقُل: عليك السلام، فإنها تحيَّة الموتى، وقل: السَّلام عليك**»(٣).

وقال صاحبُ حَرس عمر بن عبد العزيز: خرج علينا عمرُ في يوم عِيد وعليه قميصُ كتَّانٍ وعمامة على قلنسوة لاطئة، فقُمنا إليه وسَلَّمنا عليه؛ فقال: مَه، أنا واحدٌ وأنتم جماعة، السلامُ عليّ والردُّ عليكم. ثم سلّم ورَددنا عليه ومشى، فمشينا معه إلى المسجد.

قال النبي ﷺ: «**يُسَلِّم الماشي على القاعد، والراكب على الرَّاجِل، والصغير على الكبير**»(٤).

ودخل رجلٌ على النبي ﷺ فقال له: أبي يُقرِئك السلام؛ فقال: **وعليك وعلى أبيك السلام**(٥).

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي بنحوه عن عبد الله بن سلام، ورواه الترمذي وابن ماجه بنحوه عن عبد الله بن عمر.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «**أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بَخِل بالسلام**» قال العجلوني ورجاله رجال الصحيح انظر كشف الخفا [٦٦٧] وصححه الألباني انظر الصحيحة [٦٠١] وصحيح الجامع [١٠٤٤].

(٣) رواه أبو داود عن جابر بن سليم، وللحديث بقية، وروى الترمذي منه حديث السلام.
قال الألباني: إسناده صحيح. انظر مشكاة المصابيح [١٩١٨]. والرجل الذي سلَّم على النبي ﷺ هو جابر بن سليم رضي الله عنه.

(٤) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير**».

(٥) رواه أبو داود. وانظر مشكاة المصابيح [٤٦٥٥].

إبراهيم عن الأسود قال: قال لي عبدُ الله بن مسعود: إذا لقيتَ عُمرَ فاقرأ عليه السلام قال: فلقيتُه فأقرأته السلام؛ فقال: عليك وعليه السلام.

دخل مَيون بن مِهران على سُليمان بن هِشام، وهو والي الجزيرة، فقال: السلام عليكم؛ فقال له سُليمان: ما مَنعك أن تُسَلِّم بالإمرة؟ فقال: إنما يُسلَّم على الوالي بالإمرة إذا كان عنده الناس.

أبو بكر بن أبي شَيبة قال: كان الحَسن وإبراهيم وميمون بن مِهران يَكرهون أن يقول الرجلُ: حيَّاك الله حتى يقول السَّلام.

وسُئل عبد الله بن عُمر عن الرجل يَدخل المَسجدَ أو البيتَ ليس فيه أحد؛ قال يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ومرّ رجل بالنبي ﷺ وهو يَبول، فسلّم عليه، فلم يرد عليه السلام[1].

وقال رجلٌ لعائشة رضي الله عنها: كيف أَصْبَحْتِ ياأم المؤمنين؟ قالت: بنِعمة من الله.

وقال رجل لشُرَيح: كيف أصبحتَ؟ قال: بنعمة، ومَدَّ إصبعه السَّبابة إلى السماء.

وقيل لمحمد بن وكيع: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ طويلاً أملي، قصيراً أجلي، سيئاً عملي.

وقيل لسُفيان الثَّوريّ: كيف أصبحتَ؟ قال: أصبحتُ في دار حارت فيها الأدِلَّاء.

واستأذن رجلٌ من بني عامر على النبيّ ﷺ وهو في بيت، فقال: أَلِجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «**أخرُج إلى هذا فعَلِّمه الاستئذان، وقُل له يقول: السَّلام عليكم، أَدْخُل؟**»[2].

---

(١) أخرجه الجماعة إلا البخاري عن ابن عمر. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. انظر المباركفوري/ تحفة الأحوذي/ الطهارة ٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٧٧) من طريق ربعي، قال الألباني إسناده صحيح، انظر الصحيحة [٨١٩] المكتب الإسلامي.

جابر بن عبد الله قال: استأذنتُ على النبيّ ﷺ، فقال: **مَن أنت؟** فقلت: أنا؛ قال: **أنا أنا**[١].

وقال النبي ﷺ: **الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلاَّ فارجع**[٢].

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الأولى إذن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمة، إما أن يأذنوا وإما أن يردّوا.

باب في تأديب الصغير

قالت الحُكماء: مَن أَدَّبَ ولدَه صغيراً، سُرَّ به كبيراً.

وقالوا: اطبَع الطِّين ما كان رَطبا، واغمِز العُود ما كان لَدْنا.

وقالوا: مَن أدَّب ولدَه غَمّ حاسدَه.

وقال ابنُ عبّاس: مَن لم يَجلِس في الصِّغر حيثُ يَكره لم يَجلِس في الكِبَر حيث يُحبّ.

قال الشاعر:

إذا المَـرءُ أعـيَتـه المُـروءةُ ناشِئـاً ... فَمَـطلَبهـا كَهـلاً عليـه شديـدُ

وقالوا: ما أشدَّ فِطامَ الكبير وأعسرَ رياضةَ الهَرم.

قال الشاعر:

وتَـرُوض عِرسَـك بعـد ما هَرمت ... ومِـن العَنـاء ريـاضـةُ الهَـرِمِ

وكتب شُرَيح إلى معلِّم ولده:

تَركَ الـصـلاةَ لأكْـلُبٍ يَسـعـى بها ... يَبغِي الهِـرَاشَ مع الغُـواة الـرُّجَّس

فَليَـأتـيـنَّـك غُدوةً بصـحـيـفـة ... كُتِـبـت له كصـحـيـفـة المُتَلمِّس[٣]

---

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه، انظر التجريد الصحيح [١٩٦٩] وانظر مختصر مسلم [١٤٢٣].

(٢) رواه مسلم والترمذي عن أبي موسى وأبي سعيد.

(٣) صحيفة المتلمس: تضرب لمن يحمل كتاباً فيه حتفه. وذلك أن عمرو بن المنذر حَمَّل المتلمس وطرفة كتابين إلى أحد عماله، يأمره فيهما بقتلهما، فأما المتلمس فعرف ما فيه فلم يذهب. وذهب طرفة بالكتاب فقُتل.

فإذا أتاكَ فَعَضَّه بمَلامةٍ ... وعظْتَهُ مَوعِظةُ الأديب الكَيِّس
فإذا هَمَمتَ بضَربه فبدِرَّةٍ ... وإذا بلغتَ بها ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنّك ما أتيتَ فَنَفْسُه ... مع ما تُجَرِّعُني أعزُّ الأنفس

وقال صالح بن عبد القدّوس :

وإنَّ مَن أدَّبتَهُ في الصِّبا ... كالعُود يُسقَى الماءَ في غَرسِه
حتى تَراهُ مُورِقاً ناضِراً ... بَعد الذي أبصرتَ من يُبْسِه
والشيخُ لا يَترك أخلاقَه ... حتى يُوارَى في ثَرى رَمسه
إذا أرعوى عادَ له جَهلُه ... كذي الضَّنَى عاد إلى نُكسِه
ما يَبلغُ الأعداءُ من جاهل ... ما يَبلغ الجاهلُ من نَفسه

وقال عمرو بن عُتبة لمعلِّم ولده: ليكُن أوّلَ إصلاحك لولدي إصلاحُك لنفسك، فإنَّ عُيونهم مَعقودة بعَينك، فالحَسَنُ عندهم ما صَنعتَ، والقبيح عندهم ما تَركت. علِّمهم كتابَ الله ولا تُكرههم عليه فيَملّوه، ولا تَتركهم منه فيهجروه؛ رَوِّهم من الحديث أشرفَه، ومن الشعر أعفّه، ولا تَنقُلهم من عِلم إلى علم حتى يُحكِموه، فإنّ ازدحام الكلام في القَلب مَشْغَلةٌ للفهم، وعَلِّمهم سُنَن الحكماء، وجَنِّبهم مُحادثة النِّساء، ولا تَتّكل على عُذر منّي لك، فقد اتكلتُ على كِفاية منك.

باب في حُب الوَلَد

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: ياأبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: ياأمير المؤمنين، ثمار قُلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم أرضٌ ذَليلة، وسماء ظَليلة؛ فإن طلبوا فأعطِهم، وإن غَضبوا فأرضهم؛ يمنحوك وُدَّهم، ويُحبوك جَهْدَهُم؛ ولا تكن عليهم ثقيلاً فيَملُّوا حياتك، ويُحبُّوا وفاتك. فقال: لله أنت ياأحنف، لقد دخلتَ عليّ وإني لمملوء غَضباً على يزيد فسَلَلْتُه من قلبي. فلما خرج الأحنفُ من عنده، بعث مُعاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيدُ إلى الأحنف بمائة ألف دِرهم ومائة ثوب، شاطره إياها.

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كلَّ مَذهب، حتى لامه الناسُ فيه، فقال:

يَلُومونني في سالم وألومهم ... وجِلدةُ بين العَين والأنف سالمُ

وقال: إن ابني سالماً ليُحِب الله حُبًّا لو لم يَخَفه لم يَعصه.

وكان يحيى بن اليمان يَذهب بولده داود كلَّ مَذهب، حتى قال يوماً: أئمةُ الحَديث أربعة، كان عبد الله، ثم كان عَلقمة، ثم كان إبراهيم، ثم أنت يا داود.

وقال تزوجْتُ أُمَّ داود، فما كان عندنا شيءٌ أُلَفّه فيه، حتى اشتريتُ له كُسوة بدانِق[1].

وقال زيدُ بنُ عليٍّ لابنه: يابُنيَّ، إن الله لم يَرضك لي فأوصاك بي، ورَضيني لك فحذَّرنيك؛ واعلم أنَّ خيرَ الآباء للأبناء مَن لم تَدعه المَودَّةُ إلى التَّفريط، وخَيْرَ الأبناء للآباء مَن لم يَدعه التَّقصير إلى العُقوق.

وفي الحديث المَرفوع: «**ريح الوَلد من ريح الجنَّة**»[2].

ودخل عمرو بن العاص على مُعاوية وبين يديه بنته عائشة، فقال: مَن هذه ياأمير المؤمنين؟ فقال: هذه تُفَّاحة القَلب؛ فقال له: انبذها عنك ياأمير المؤمنين، فوالله إنّهن لَيَلِدنَ الأعداء، ويُقرِّبن البُعَداء، ويُورِّثن الضّغائن. قال: لا تَقُل ذاك ياعمرو، فوالله ما مَرّض المَرضى، ولا نَدَب الموتى، ولا أعان على الأحزان مِثْلهُنّ، ورُبَّ ابن أُخت قد نَفَع خاله.

وقال المُعلّى الطائيّ:

لولا بُنيات كزُغْب القَطا ... حُطِطْنَ من بَعْض إلى بَعض
لكان لي مُضطَرَبٌ واسعٌ ... في الأرض ذاتِ الطُّول والعَرض
وإنما أولادُنا بَيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرض

---

(١) الدانق: سُدسُ الدرهم.

(٢) رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عثمان بن سعيد، وهو ضعيف، انظر المقاصد الحسنة [٥٣٣] وانظر محمد الحوت/ أسنى المطالب [٧١٧] وانظر ضعيف الجامع [٣١٤٥] والضعيفة [٢٤٩٩].

إنْ هَبَّت الريحُ على بَعضهم لم تَشبع العينُ من الغَمْضِ

وقال عبد الله بن أبي بَكرة: مَوتُ الوَلد صَدْع في الكَبد، لا ينجبر آخرَ الأبد.

ونظر عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى رجل يحمل طِفلاً على عُنقه، فقال: ما هذا منك؟ قال: ابني ياأمير المؤمنين؛ قال: أما إنه إن عاش فَتَنَك، وإن مات حَزَنك.

وكانت فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ تُرَقِّص الحُسين بن علي رضي الله عنهما وتقول:

إنّ بُنيَّ شَبَهَ النبي ليس شَبيهاً بِعَلي

وكان الزُّبير يُرَقص ولده عُروَة ويقول:

أبيَضُ من آل أبي عَتيق مُبارَك مِن وَلد الصِّدِّيقِ
أَلذُّه كما أَلذّ رِيقي

وقال أعرابي وهو يُرَقّص ولده:

أُحبُّه حُبَّ الشّحيح مالَهْ قد كان ذاقَ الفَقر ثمَّ نالَه
إذا يُريد بذلَه بدالَه

وقال آخر وهو يُرقِّصُ ولده:

أعرِف منه قلَّة النُّعاس وخِفّةً في رَأسه من راسِي

وكان رجلٌ من طيّء يَقطع الطّريق، فمات وترَك بُنياً رضيعاً، فجعلت أمه تُرقصه وتقول:

يالَيتَه قد قطع الطّريقا ولم يُرِد في أمره رَفيقاً
وقد أخاف الفَجَّ والمضيقا فقَلَّ أن كان به شَفيقاً

وقال عبدُالملك بن مروان: أضرَّبنا في الوليد حُبُّنا له فلم نُؤدِّبه، وكأنَّ الوليدَ أدَّبنا.

وقال هارون الرشيد لابنه المعتصم: ما فعل وصيفك فلان؟ قال: مات فاستراح من الكُتَّاب؛ قال أو بلغ منك الكتّاب هذا المبلغ! والله لا حضرْته أبداً، ووجَّهَهَ إلى البادية، فتعلّم الفصاحة، وكان أُمِّيًّا، وهو المعروف بابن ماردة.

وفي بعض الحديث أنّ إبراهيم خليل الرَّحمن صلوات الله عليه كان من أَغْيَر

النَّاس، فلما حضَرَتْه الوفاة، دخل عليه ملك الموت في صُورة رجل أنكره فقال له: مَن أدخلك داري؟ قال الذي أسكنك فيها منذُ كذا وكذا سنة؛ قال: ومَن أنت؛ قال: أنا ملك الموت، جئت لقَبض رُوحك؛ قال: أتاركي أنت حتى أودِّع ابني إسحاق؟ قال: نعم، فأرسل إلى إسحاق، فلما أتاه أخبره، فتعلّق إسحاق بأبيه إبراهيم وجعل يتقطّع عليه بُكاءً؛ فخرج عنهما ملك الموت، وقال: يارَبِّ ذبيحُك إسحاق متعلّق بخليلك؛ فقال له الله: قل له إني قد أمهلتك، ففعل، وانحلَّ إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه، فقبض ملك الموت روحَه وهو نائم.[1]

بابُ الاعتضاد بالولد

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن عَبْده زكريَّا ودُعائه إليه في الولد: ﴿وَزَكَرِيا إِذ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرنِي فَرداً وَأَنتَ خَيرُ الوَارِثِين﴾[2]. وقال: ﴿وَإِنِّي خِفتُ المَوالِيَ مِن وَرَائِي وَكانت امرأتي عاقراً فَهَب لِي مِن لَدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِن آلِ يعقُوبَ وَاجعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[3]. والمَوالِي هاهنا بنو العم.

وقال الشاعر:

مَن كان ذا عَضُـد يُدرِك ظُلامتـه ... إنّ الـذّليـل الـذي لَيست له عَضدُ
تَنْبـو يداه إذا ما قَلَّ ناصرُه ... وَيَـأنَفُ الضّيم إن أثـرى له عدد

العُتبي قال: لمّا أسنَّ أبو بَراء عامرُ بن مالك، وضَعُفه بنو أخيه وخَرَّفوه ولم يكن له ولد يَحميه، أنشأ يقول:

دَفعتُكمُ عني ومـا دَفـعِ راحـةٍ ... بشيءٍ إذا لم تَسْتَعِن بالأنـامـلِ
يُضَعِّفني حِلمي وكثـرةُ جَهلكم ... عليّ وأني لا أَصُـول بجـاهـلِ

وقال آخر:

تَعْدُو الذِّئاب عَلَى من لا كلابَ لَه ... وتَتَّقـي سَورةَ المُستنفِـر الحـامِي

(١) لم أقف عليه.

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٩.

(٣) سورة مريم الآيتان ٥، ٦.

بابٌ في التجارب والتأدُّب بالزمان

قالت الحُكماء: كَفى بالتّجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عِظَة.

وقالوا: كَفى بالدَّهر مُؤَدِّباً، وبالعَقل مُرْشداً.

وقال حبيب:

أحاولتَ إرشادي فعَقلِيَ مُرْشِدي ... أم استَمت[1] تَأديبي فدَهري مُؤَدِّبي

وقال إبراهيم بن شَكلة:

مَن لم يؤدِّبهُ والداه ... أَدَّبه الليلُ والنَّهارُ

كم قد أذلَّ كَريمَ قَومٍ ... ليس له منهما انتصارُ

مَن ذا يَدُ الدهر لم تَنَله ... أو اطمأنَّت به الدِّيارُ

كُلٌّ عن الحادِثات مُغضٍ ... وعنده للزّمان ثارُ

وقال اخر:

وما أبقت لك الأيامُ عُذْراً ... وبالأيَّام يَتَّعظ اللَّبيب

وقالوا: كفَى بالدهر مُخبراً بما مَضى عما بَقي.

وقالوا: كفَى مخبراً لذَوي الألباب ما جَرَّبوا.

وقالوا لعيسى بن مريم عليهما السلام: مَن أدَّبك؟ قال: ما أَدَّبني أحد، رأيتُ الجَهل قبيحاً فاجتنبتُه.

باب في صُحْبَة الأيام بالموادَعَة

قالت الحُكَماء: أصْحَب الأيام بالمُوادعة ولا تُسابق الدهرَ فَتكْبُو.

وقال الشاعر:

مَن سابَق الدهرَ كَبا كَبْوةً ... لم يَستَقِلها من خُطا الدَّهرِ

فاخطُ مع الدَّهر إذا ما خَطا ... واجرِ مع الدهر كما يَجْرِي

---

(١) استمت: أردت.

وقال بشّار العُقَيلي:

أعاذِلُ إنّ العُسْرَ سَوف يُفِيق ... وإنّ يَساراً من غدٍ لخليُق
وما كنتُ إلا كالزّمان إذا صَحَا ... صحوتُ وإن مَاقَ الزّمان أَمُوقُ[1]

وقال آخر:

تحامَق مَع الحَمْقى إذا ما لَقيتَهم ... ولاقِهمُ بالجهل فِعْلَ ذوي الجَهْلِ
وَخَلِّط إذا لاقيْتَ يوماً مُخَلِّطاً ... يُخَلِّط في قولٍ صحيحٍ وفي هَزلِ
فإنّي رأيتُ المَرْءَ يَشقى بعَقله ... كما كان قبلَ اليومِ يَسْعَدُ بالعقل

وقال آخر:

إنّ المَقَادِيرَ إذا ساعَدَتْ ... أَلحقَتِ العاجِزَ بالحازِمِ

وقال الآخر:

والسَّبب المانعُ حظّ العاقل ... هو الذي سَبَّب حظّ الجاهِلِ

ومن أمثالهم في ذلك قولُهم: تطامن لها تَخْطُك.

ومن قولنا في هذا المعنى:

وتطَامن للزَّمان يجزكَ عَفواً ... وإن قالوا ذَليلٌ قُلْ ذليلُ

وقال حَبيب:

وكانت لَوْعَةً ثم اطمأنّت ... كذاك لكلّ سائلة قَرارُ

وقال آخر:

ماذا يُريك الدَّهْرُ من هَوانِه ... ارْفِن[1] لِقَرْد السَّوْء في زَمانِه

ولآخر:

الدّهرُ لا يَبْقَى على حالةٍ ... لابُدَّ أن يُقبلَ أو يُدْبِرْ
فإن تَلقّاكَ بِمكْروهةٍ ... فاصبِر فإنَّ الدَّهرَ لا يَصْبِر

---

(١) ماق: حمق.

(١) زفن: (من باب ضرب): رقص.

ولآخر:

آصْبِرْ لِدَهرٍ نالَ مِنْكَ ... فهكذا مَضَتْ الدُّهورُ
فَرَحاً وحُزْناً مّرةً ... لا الحُزنُ دَامَ ولا السُّرورُ

ولآخر :

عَفَا الله عَمَّن صَيَّر الهمّ واحداً ... وأيْقَنَ أنَّ الدَّائرات تَدُورُ
تَرُوحُ لنا الدُّنيا بغير الذي غَدَت ... وتَحْدُث مِن بعد الأمور أُمورُ
وتَجْري الليالي باجتماع وفُرْقة ... وتَطْلُع فيها أنجمٌ وتَغُورُ
وتَطْمَع أن يَبقى السُّرُورُ لأهله ... وهذا مُحال أن يَدُوم سُرُور

ولآخر :

سأنتظرُ الأيّامَ فيك لعلّها ... تَعود إلى الوَصل الذي هو أَجْمَلُ

باب التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلاً

قالت الحكماء: إيَّاك وما يُعتذر منه.

وقالوا: مَن عَرَّض نَفْسه للتُّهم فلا يأمَن مِن إساءة الظَّن.

وقالوا: حَسْبك من شرٍّ سماعُه.

وقالوا: كفى بالقَوْل عاراً وإن كان باطلاً.

وقال الشاعر:

ومَن دعا الناسَ إلى ذَمِّه ... ذَمُّوه بالحقّ وبالباطلِ
مَقالة السَّوء إلى أهلها ... أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائل

وقال آخر :

قد قِيل ذلك إن حقّاً وإن كَذِباً ... فما آعتذارُك من قَوْلٍ إذا قِيلا

وقال أرسطاطاليس للإسكندر: إنّ الناس إذا قَدروا أن يقُولوا قدروا أن يفعلوا، فاحترِس من أن يقولوا تَسلم من أن يفعلوا.

وقال آمرؤ القيس: وجُرح اللسان كجُرح اليَد

وقال الأخطل: والقول يَنْفُذ ما لا تَنفذ الإبرُ

وقال يَعقوب الحَمْدونيّ:

وقد يُرْجَى لجُرْح السَّيف بُرْءٌ ولا بُرْءٌ لما جَرَحَ اللّسَانُ

ولآخر:

قالوا ولَوْ صَحَّ ما قالُوا لفُزْتُ به مَن لي بتَصْدِيق ما قالوا وتَكْذِيبي

بابُ الأدب في تشميت العاطس

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: قال النبي ﷺ: «**لا تُشَمِّت العاطس حتى يَحمَدَ الله، فإن لم يَحمده فلا تُشَمِّته**»(١).

وقال: «**إذا عَطَس أحدُكم فحمِدَ الله فشَمِّتوه، وإن لم يحمد فلا تُشَمِّتُوه**»(٢).

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يُشَمَّت العاطس إلى ثلاث، فإن زاد فهو داء يَخْرج من رأسه.

عَطَس ابن عمر، فقالوا له: يَرْحمك الله؛ فقال: يَهديكم الله ويُصْلح بالكم(٣).

وعَطَس عليُّ بن أبي طالب فحمِد الله، فقيل له: يرْحمك الله؛ فقال: يَغفر الله لنا ولكم.

وقال عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه: إذا عَطَس أحدُكم فشَمِّتوه ثلاثاً؛ فإن زاد فقولوا: إنك مَضْنوك(٤).

وقال بعضُهم: التَّشْميت مرّة واحدة.

---

(١) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ومعناه صحيح يشهد له مابعده.

(٢) رواه مسلم بنحوه عن أبي موسى رضي الله عنه. / كتاب الزهد والرقائق/ باب تشميت العاطس وكراهة التثاؤب.

(٣) روى الإمام مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا عطس فقيل له: يرحمك الله. قال: يرحمنا الله وإياكم: ويغفر لنا ولكم. الموطأ/كتاب الجامع.

(٤) روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فشمته، ثم إن عطس فقل: إنك مضنوك. فقال عبد الله بن أبي بكر: لا أدري أبعد الثالثة أو الرابعة.؟ المصدر نفسه.

بابُ الإذْن في القُبْلَة[١]

من حديث الشعبي قال: لقي النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقَبّلَ بين عينيه[٢].

وقال إياسُ بن دغفل: رأيت أبا نضرة[٣] يقبل خد الحسن[٤].

---

(١) تم حذف ما ورد في تقبيل اليد ومن كره ذلك من الملوك لتكرارها تحت عنوان «قُبْلَة اليد» في هذا الجزء، وفيه تعليق على تقبيل اليد وما ورد فيها من أحاديث، ورأي العلماء حول هذه المسألة.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي في شُعَب الإيمان مرسلاً. قال الألباني إسناده ضعيف. انظر مشكاة المصابيح [٤٦٨٦] وانظر ضعيف أبي داود [١١١٦] وقد روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رجل: يارسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا. قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا. قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم». رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وله طرق جمعها وخَرَّجها الشيخ الألباني في الأحاديث الصحيحة. انظر الصحيحة [١٦٠] ومشكاة المصابيح [٤٦٨٠] ورياض الصالحين [٨٩٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم». متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه سَمْتاً وهَدْياً ودَلاً. وفي رواية: حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه، قام إليها، فأخذ بيدها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده فقَبَّلته وأجلسته في مجلسها. رواه أبو داود، وقال الألباني: إسناده جيد.

والسَّمْت: الهيئة والطريق. والدلّ: حسن الخلق ولطف الحديث. انظر المشكاة [٤٦٨٩] باب المصافحة والمعانقة. وعن البراء قال: دخلت مع أبي بكر رضي الله عنهما أول ما قدم المدينة، فإذا عائشة ابنته مضطجعة، قد أصابتها حُمَّى، فأتاها أبو بكر فقال: كيف أنت يابنية؟ وقبَّل خدها. رواه أبوداود. وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ أتى بصبي فقبَّله فقال: «**أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله**». ومعنى مبخلة مجبنة: أي يحملون آباءهم على البخل والجبن: انظر المشكاة [٤٦٩١].

(٣) هو المنذر بن مالك العبدي.

(٤) رواه أبوداود في سننه/ باب في قبلة اليد وأورد ابن قيم الجوزية تعليق المنذري على هذا الحديث. انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٤/ ١٣١.

باب الأدب في العِيَادَة

مَرض أبو عمرو بن العلاء، فدخل عليه رجل من أصحابه فقال له: أريد أن أُساهرَك الليلةَ؛ قال له: أنت مُعافًى وأنا مُبْتَلى، فالعافية لا تَدَعك أن تَسهر، والبلاءُ لا يَدَعني أن أنام، وأسأل الله أن يَهب لأهل العافية الشُّكر، ولأهل البلاء الصَّبر.

وكتب رجلٌ من أهل الأدب إلى عَليل:

نُبِّئْتُ أنّكَ مُعْتَلٌّ فقلتُ لهم ... نَفسي الفِداءُ لهُ من كلّ مَحذورِ
ياليتَ عِلْتَه بي ثمَّ كان له ... أجرُ العَليل وأنِّي غيرُ مأجورِ

وكتب آخر إلى عليل:

وَقَينَاك لو نُعطَى الهوى فيك والمُنَى ... لكان بنا الشَّكوى وكان لك الأجْرُ

وكان شاعرٌ يختلف إلى يحيى بن خالد بن بَرمك ويمتدحه، فغاب عنه أياماً لعلّة عرضت له، فلم يَفتَقده يحيى ولم يَسأل عنه، فلما أفاق الرجلُ من عِلّته كتب إليه:

أيهذا الأمير أكرمك اللـ ... ـه وأبقاكَ لي بَقاء طَويلاً
أَجَميلاً تراه أصلحك اللـ ... ـه لكَيما أراه أيضاً جَميلاً
أَنَّني قد أقمتُ عَنك قَليلاً ... لا تُرَى مُنْفذاً إليَّ رَسُولا
أَلذَنب فما عَلمتُ سوى الشُّكـ ... ـر لما قد أَوْليتنيه جَزيلاً
أَم مَلالاً فما عَلِمْتُك للحا ... فظ مِثْلي على الزَّمان مَلولاً
قد أَتى الله بالصَّلاح فما أنـ ... ـكَرْتُ مما عَهِدْتُ إلاَ قَليلاً
وأكلتُ الدُّرَاج وهو غِذاء ... أَفلت عِلْتي عليه أُفولاً
وكَأنِّي قدمتُ قبلك آتيـ ... ـك غداً إن أَجِدْ إليك سَبيلا

فكتب إليه الوزير يعتذر:

دَفَعَ الله عنكَ نائبةَ الدَّهْـ ... ـر وحاشاك أن تكون عَليلاً
أُشهدُ الله ما علمتُ وما ذَا ... كَ من العُذْر جائزاً مَقْبولاً
ولَعَلِّي لو قد عَلِمْتُ لعاوَدْ ... تُكَ شَهراً وكان ذاك قَليلاً

فاجعلنْ لي إلى التعلّق بالعُذْ ... ر سَبيلاً إن لم أَجِد لي سَبيلاً
فقديماً ما جاء ذو الفَضْل بالفَضْـ ... ـل وما سامَح الخَليلُ خَليلاً

وكتب المُعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

أَعْزِزْ عليَّ بأن أراك عَليلاً ... أو أن يكون بك السَّقامُ نزيلاً
فَوَدِدْتُ أنِّي مالكٌ لسَلامَتي ... فأُعيرَها لك بُكرةً وأَصيلاً
فتكونَ تَبقى سالماً بسلامتي ... وأكونَ مما قد عَرَاكَ بَديلاً
هذا أخٌ لك يَشْتكي ما تشتكي ... وكذا الخليل إذا أَحَبَّ خَليلاً

ومَرض يحيى بن خالد فكان إسماعيل بن صُبيح الكاتب إذا دَخل عليه يَعوده وقف عند رأسه ودَعا له، ثم يَخْرُج فيسأل الحاجبَ عن مَنامه وشَرَابه وطَعامه، فلما أفاق، قال يحيى بنُ خالد: ما عادني في مرضي هذا إلا إسماعيلُ بن صُبيح.

وقال الشاعر:

عِيادة المَرْء يومٌ بين يَوْمين ... وجَلسةٌ لك مِثْل اللَّحظ بالعين
لا تُبْرِمَنَّ مَريضاً في مُساءلة ... يكفيك من ذاكَ تَسْآل بحرفين

وقال بكر بنُ عبد الله لقوم عادوه في مرضه فأطالوا الجلوسَ عنده: المريض يُعاد والصحيح يُزار.

وقال سُفيان الثّوري: حُمْق العُوّاد أشدُّ على المَرضى من أمراضهم، يجيئون في غير وقت ويُطيلون الجلوس.

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز يَعوده في مرضه، فسأله عن علّته، فلما أخبره قال: مِن هذه العلة مات فلان ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدت المَرْضى فلا تَنْعَ إليهم المَوْتى، وإذا خرجتَ عنَّا فلا تَعُد إلينا.

وقال ابن عبّاس: إذا دخلتم على الرَّجل وهو في الموت فبشِّرُوه ليلقى ربَّه وهو حَسن الظن، ولقِّنُوه الشهادة ولا تُضْجروه[1].

---

(١) أخرج مسلم وابوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه في الجنائز عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة تؤمن على ماتقولون». =

وَمرض الأعمش فأبرمه الناس بالسُّؤال عن حاله، فكَتب قصَّته في كِتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحدٌ، قال: عندك القِصَّة في الكتاب فاقرأها.

ومَرِض محمدُ بن عبد الله بن طاهر، فكتبَ إلى أخيه عُبيد الله بن عبد الله:

إنِّي وجدتُ عَلَى جَفَا ... ئك من فِعالكَ شاهِدَا
إني اعتللت فما فَقَدْ ... تُ سِوى رَسولك عائدا
ولو آعتللتَ فلم أَجِدْ ... سَبباً إليك مُساعدا
لاستشعرتْ عيني الكَرَى ... حتى أُعُودَك راقِدَا

فأجابه:

كُحلت مُقْلتي بشَوْك القتَاد[1] ... لم أذق مُذْ حُمِمْتَ طَعْم الرُّقادِ
يا أَخي الباذل المودّة والنا ... زلَ من مُقلتي مكانَ السواد
مَنَعَتْني عليك رِقَّةُ قلبي ... من دُخولي إليك في العُوّاد
لوْ بأُذْني سمعتُ منكَ أنيناً ... لتَفَرَّى مع الأنين فؤادي

وكتب أبو تمام الطائي إلى مالك بن طَوْق في شَكاة له:

كم لَوْعةٍ للنَّدَى وكم قَلق ... للمجد والمَكْرمات في قَلَقِكْ
أَلْبَسكَ الله منهُ عافية ... في نومك المُعْترى وفي أَرقك
تُخْرج عن جِسْمك السَّقامَ كما ... أُخْرج ذَمّ الفَعال من عُنقك

وقال آخر في بعض الأمراء:

واعتلّ فاعتلّت الدنيا لعِلّته ... واعتلَّ فاعتلَّ فيه البأسُ والكرمُ
لما استقَلَّ أنار المَجْد وانقشعت ... عنه الضَّبابة والأحْزان والسَّقم

= وروى ابن حبان عن أبي هريرة مرفوعاً: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنه من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يوماً من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ماأصابه» وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع [٥١٥٠].

(١) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر وله وريقة غبراء وثمرة تنبت معها غبراء كأنها عجمة النوى. وفي المثل: من دون ذلك خرط القتاد. والإبل لا تأكل القتاد إلا في عام جدب فيجيء الرجل ويضرم فيه النار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله، ويسمى ذلك التقتيد. انظر لسان العرب (مادة قتد).

ومن قولنا في هذا المعنى:

رُوح النَّدى بين أثواب العُلا وَصِب ... يَعْتَنُّ[1] في جَسد للمجْد مَوْصوبِ
ماأنت وحدَك مكسُوًّا شُحوبَ ضَنى ... بل كلّنا بك من مُضنىً ومشحوب
يا مَن عليه حِجَابٌ من جَلالته ... وإن بدا لك يوماً غير مَحجوب
أَلْقَى عليك يداً للضرّ كاشفةً ... كَشّافُ ضُرّ نبي الله أيُّوبِ

ومثله من قولنا:

لا غرْو إن نال منك السُّقْمُ والضررُ ... قد تُكْسف الشمسُ لابل يُخْسَف القمرُ
يا غُرّة القمر الذّاوي غَضارتُها ... فِدًا لنُورك منِّي السَّمعُ والبَصر
إن يُمْس جسمُك موعوكاً بصالية[2] ... فهكذا يُوعَكُ الضرغامة الهَصِر
أنتَ الحُسام فإن تُفْلَلْ ضَاربُه ... فقبلَه ما يُفَلّ الصّارم الذّكَر
رُوح من المَجْد في جُثمان مَكْرُمة ... كأنما الصُّبْح من خَدَّيه يَنْفجر
لو غال مَجْلودَه شيءٌ سِوَى قَدَرٍ ... أكبرتُ ذاك ولكن غالَه القَدرُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

لا غرْوَ إن نال منك السُّقْمُ ما سألاَ ... قد يُكسَفُ البدرُ أحياناً إذا كَمُلاَ
ما تَشْتَكي عِلّةً في الدهر واحدةً ... إلا آشتكى الجُود من وَجْدٍ بها عِلَلا

الأدبُ في الاعتناق

أبو بكر بن محمد قال: حدّثنا سعيد بن إسحاق عن عليّ بن يونس المَدينيّ قال: كنتُ جالساً عند مالك بن أنس فإذا سُفيان بن عُيينة يَستأذن بالباب، فقال مالك: رجلٌ صالح صاحب سُنَّة، أدخِلوه؛ فدخل فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ السلام؛ فقال: سلامٌ خاص وعامّ عليك يا أبا عبد الله ورحمةُ الله؛

(١) يعتن: يعترض. وفي بعض الأصول: «يفتن».
(٢) يريد بالصالية: الحمى، لما فيها من حرارة وسخونة.

فقال مالك: وعليك السلامُ ياأبا محمد ورحمةُ الله، فصافَحه مالك، وقال: ياأبا محمد، لولا أنها بدعة لعانقناك؛ فقال سُفيان: قد عانق مَن هو خيرٌ منَّا، رسول الله ﷺ؛ فقال مالك: جعفراً؟ قال: نعم؛ فقال مالك: ذاك حديثٌ خاص ياأبا محمد ليس بعامّ؛ فقال سفيان: ما عمَّ جعفراً يَعُمنا وما خصه يخُصنا إذا كنَّا صالحين، أفتأذن لي أن أُحدِّث في مجلسك؟ قال: نعم ياأبا محمد: فقال: حدّثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس، أنه لما قَدِم جعفرٌ من أرض الحبشة اعتنقه النبيُّ ﷺ، وقَبَّل بين عينيه، وقال: **جعفر أشبه الناس بي خَلْقاً وخُلُقاً**[1].

بابُ الأدب في إصلاح المعيشة

قالوا: مَن أشبع أرضَه عملاً أشبعت بيته خُبزاً.

وقالوا: يقول الثَّوب لصاحبه: أكْرِمني داخلاً أكرِمك خارجاً.

وقال عمر بن الخطاب: لا تَنهَكوا وجه الأرض، فإن شَحمها في وَجهها.

وقال: فَرِّقوا بين المَنايا واجعلوا من الرأس رَأسين.

وقال: أملِكوا العجين فإنه أحد الرَّيعين.

وقال أبو بكر لغُلام له كان يتَّجر بالثياب: إذا كان الثوبُ سابغاً فانشرُه وأنت قائم، وإذا كان قَصيراً فانشُره وأنت جالس، وإنما البيع مِكَاس.

وقال عبد الملك بن مَروان: مَن كان في يده شيءٌ فليُصلحه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأوّل ما يَبذُل دينه.

---

(١) سبق التعليق على هذا الحديث في باب قُبْلَة اليد، وقد أوردنا حديث أنس حول المصافحة. وكان أنس رضي الله عنه يقول: «كان أصحاب النبي ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدِمُوا من سفر تعانقوا». رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح كما قال المنذري (٣/ ٢٧٠) والهيثمي (٨/ ٣٦) ويقول الألباني معلقاً على هذا الحديث: «يمكن أن يقال: إن المعانقة في السفر مستثنى من النهي لفعل الصحابة ذلك». انظر الصحيحة [١٦٠] المكتب الإسلامي.

بابُ الأدب في المؤاكلة

قال النبيُّ ﷺ: «**إذا أكل أحدُكم فليأكل بيمينه وليَشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**»(١).

وحدّث إبراهيمُ بن السِّندي قال: كان فتى من بني هاشم يَدخل على المنصور كثيراً، يُسلِّم من بعيد ويَنصرف. فأتاه يوماً فأدناه، ثم دعاه إلى الغداء، فقال: قد تغديتُ. فأمهله الربيعُ حاجب المنصور حتى ظنَّ أنه لم يفهم الخطيئة، فلما انصرف وصار وراء السِّتر دَفع في قفاه. فلما رأى من الحاجب دفعه في قَفاه شَكا الفتى حالَته وما ناله إلى عُمومته، فأقبلوا من غد إلى أبي جعفر، وقالوا: إنَّ الرَّبيع نال من هذا الفتى كذا وكذا؛ فقال لهم أبو جعفر: إنَّ الربيع لا يُقدم على مثل هذا إلا وفي يده حُجَّة، فإن شئتم أمسكنا عن ذلك وأغضينا، وإن شِئتم سألتُه وأسْمَعْتُكُم؛ قالوا: بل يَسأله أميرُ المؤمنين ونسمع. فدعاه فسأله فقال: إنّ هذا الفتى كان يأتي فيُسلِّم ويَنصرف من بعيد، فلما كان أمس أدناه أميرُ المؤمنين حتى سلَّم من قُرب، وتبذَّل بين يديه ودعاه إلى غدائه، فبلغ من جهله بحق المرتبة التي أحلّه فيها أن قال: قد تغدّيتُ، وإذا هو ليس عنده لمن أكل مع أمير المؤمنين وشاركه في يده إلا سَدُّ خَلّة الجوع، ومثل هذا لا يُقوِّمه القولُ دون الفعل. فسكت القومُ وانصرفوا.

وقال بكر بن عُبيد الله: أحقُّ الناس بلَطمةٍ مَن أتى طعاماً لم يُدعَ إليه؛ وأحقُّ الناس بلطمتين من يقول له صاحب البيت اجلس ها هنا، فيقول: لا، هاهنا؛ وأحقُّ الناس بثلاث لطمات من دُعي إلى طعام فقال لصاحب المنزل: ادعُ رَبّة البيت تأكل معنا.

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «**إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه. فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**». كتاب الأشربة/ باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

وعن عمر بن أبي سلمة، قال: كنت غلاماً في حِجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيشُ في الصحفة. فقال لي رسول الله ﷺ: «**سمِّ الله وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك**». متفق عليه.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لا ينبغي للفتى أن يكون مُكحْلا ولا مُقبِّباً ولا مُكوكباً ولا شُكامداً ولا حرامداً ولا نُقامدا، ثم فسّره فقال: أما المكحل فالذي يتعرق العظم حتى يَدعه كأنه مُكحلة عاج، والمُقبِّب فالذي يُركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قُبة. والمُكوكب: الذي يَبصق في الطِّست ويتَنَخّم فيها حتى يصير بُصاقه كأنه الكواكب في الطَّست. والحرَامد: الذي يأتي في وقت الغَداء والعَشاء فيقول: ما تأكلون؟ فيقولون من بُغضه: سُمًّا، فيُدخل يده ويقول: حرام العيش بعدكم. والشُّكامد: الذي يُتبع اللقمة بأُخرى قبل أن يُسيغها فيَختنق كأنه ديك قد ابتلع فأرة. والنُّقامد: الذي يضع الطعامَ بين يديه ويأكل من بين يدي غيره.

ومن الأدب: أن يبدأ صاحبُ الطعام بغَسْل يده قبل الطعام، ثم يقول لجلسائه: من شاء منكم فليغسل، فإذا غُسلَ بعد الطعام فَلْيُقدِّمهم ويتأخَّر.

أدبُ الملـــوك

وقال العلماء: **لا يُؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تَكرمته إلا بإذنه**[1].

وقال زِياد: لا يُسَلَّم على قادمٍ بين يدي أمير المؤمنين.

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية، ووسَّع له إلى جنبه، وأقبل عليه يُسائله ويحادثه، وزياد ساكت، فقال له ابن عبّاس: كيف حالُك أبا المُغيرة، كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هِجرة؟ فقال: لا، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين، قال ابن عبّاس: ما أدركت الناس إلا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم. فقال له مُعاوية: كُفَّ عنه يابن عبّاس، فإنك لا تَشاء أن تَغْلِبَ إلا غلبت.

الشّيباني قال: بَصَق ابنُ مروان فقَصَّر في بصقته، فوقعت في طرف البساط؛ فقام رجل من المجلس فمسَحه بكُمّه. فقال عبدُ الملك بن مروان: أربعة لا يُستحى من خدمتهم: الإمام والعالِم والوالد والضيف.

---

(١) هو حديث رواه مسلم بنحوه (١/١٨٦) وأحمد (٥/٢٧٢) والترمذي في سننه [باب ما جاء من أحق بالإمامة] وأبو داود (١/٢٢٨) والنسائي (١/١٢٦) وابن ماجه (١/١٦٠).

وقال يحيى بن خالد: مُساءَلة المُلوكِ عن حالها من تحيَّة النَّوكَى[١] فإذا أردتَ أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقُل: صَبَّح الله الأميرَ بالنِّعمة والكرامة؛ وإن كان عليلاً فأردتَ أن تَسأله عن حاله، فقُل: أنزل الله على الأمير الشِّفاء والرّحمة.

وقالوا: من تمام خِدمة الملوك أن يُقَرِّب الخادم إليه نَعْلَيْه، ولا يَدَعه يَمشي إليهما، ويَجعل النعلَ اليُمنى قُبالة الرِّجْل اليمنى، واليُسرى قُبالة الرِّجْل اليُسرى، وإذا رأى مُتَّكأ يَحتاج إلى إصلاح أَصْلَحَه، ولا يَنتظر فيه أمرَه، ويَتفقد الدَّواة قبلَ أن يَأمره، ويَنفُض عنها الغبار إذا قَرَّبها إليه، وإن رأى بين يديه قِرطاساً قد تباعد عنه قَرّبه إليه ووَضَعه بين يديه على كِسره.

وقال أصحابُ معاوية لمُعاوية: إنّا ربما جَلَسنا عندك فوقَ مِقدار شَهوتك، فأنت تَكره أن تَستَخفَّنا فتأمرنا بالقيام، ونحن نكره أن نُثقِل عليك في الجُلوس، فلو جعلتَ لنا علامة نَعرف بها ذلك؟ فقال: علامةُ ذلك أن أقولَ: إذا شِئتم.

وقيل مثلُ ذلك ليزيدَ بن مُعاوية. فقال: إذا قلتُ على بَرَكة الله.

وقيل مثلُ ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعتُ الخَيزُرانة.

وما سمعت بألطف معنى، ولا أكمل أدباً، ولا أحسنَ مَذهباً في مُساءلة الملوك من شَبيب بن شَيبة، وقوله لأبي جعفَر: أصلحك الله إني أُحِب المعرفة، وأُجلك عن السُّؤال. فقال له: فُلان بن فُلان.

بابُ الكناية والتعريض

ومن أحسن الكِناية اللَّطيفة عن المعنى الذي يَقبحُ ظاهرُه: قيل لعُمَر بن عبد العزيز وقد نَبت له حِبنٌ[٢] تحت أُنثييه[٣]: أين نبَتَ بك هذا الحِبن؟ قال بين الرانفة والصَّفن[٤].

(١) النَّوكَي: أي الحمقى، انظر لسان العرب (مادة: نوك).

(٢) الحبن (بالكسر): الدمل.

(٣) الأنثيان: الخصيتان.

(٤) الرانفة: أسفل الأَلية إذا كنت قائما: والصَّفن (بالفتح ويحرك): وعاء الخصية.

وقال آخر ونَبت به حِبن في إبطه: أين نبت بك هذا الحِبن؟ قال: تحت مَنكِبيّ.

وقد كَنَى الله تعالى في كتابه عن الجماع بالمُلامسة، وعن الحدث بالغائط فقال: ﴿**أو جَاءَ أحدٌ مِنكم من الغَائط**﴾[1]، والغائط: الفَحْص، [وهو المُطمئن من الأرض]؛ وجَمعه: غِيطان. ﴿**وقَالوا مَا لهذا الرّسول يأكُلُ الطَّعام**﴾[2]. وإنما كنّى به عن الحَدث. وقال تعالى: ﴿**واضمُم يَدَك إلى جَناحِك تَخرُج بَيضَاء مِن غير سُوء**﴾[3]. فكنى بالسوء عن البرَص.

ودخل الرّبيع بن زياد على النُّعمان بن المُنذر وبه وضَح، فقال: ماهذا البَياض بك؟ فقال: سيف الله جلاه.

ودخل حارثةُ بن بَدر على زياد وفي وجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثر الذي في وَجهك؟ قال: رَكبت فَرَسي الأشقر فجمح بي، فقال: أما إنك لو رَكِبت الأشهب لما فعل ذلك. فكنّى حارثة بالأشقر عن النَّبيذ، وكنى زياد بالأشهب عن اللبن.

وكان في المدينة رجلٌ يُسمى جعدة يُرجِّل شعره ويتعرض للنساء المعزبات، فكتب رجلٌ من الأنصار كان في الغَزو إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه:

ألا أبلغ أبا حَفص رسولاً ... فدى لك من أخي ثِقَة إزَاري
قَلائِصُنا هداك الله إنَّا ... شُغلنا عنكم زمنَ الحِصار
يُعقِّلُهُنَّ جَعْدُ شَيْظَمِيٌّ ... وبئس مُعَقِّلُ الذَّود الظُّؤار[4]

فكنَّى بالقلائص عن النساء. وعرَّض برجل يقال له جَعدَة. فسأل عنه عمرُ، فَدُلّ عليه، فجزّ شَعره، ونَفَاه عن المدينة.

---

(١) سورة النساء آية ٤٣.

(٢) سورة الفرقان آية ٧.

(٣) سورة طه آية ٢٢.

(٤) الشيظمي: الفتى من الإبل. والذود: من ثلاثة أبعرة إلى العشرة؛ وقيل غير ذلك. والظؤار: جمع ظئر، وهو العاطفة على ولد غيرها.

وسمع عمرُ بن الخطاب امرأة في الطّواف تقول:

فمِنهُن من تُسقى بعَذب مُبرَّد ... نُقاخ فتِلْكُمْ عند ذلك قرَّت
ومنهنّ من تُسْقَى بأخضرَ آجن ... أُجاجٌ ولولا خشيةُ الله فَرَّت

ففهم شكواها، فبَعث إلى زوجها، فوجده متغيِّر الفم. فخيَّره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقِها. فاختار الدَّراهم، فأعطاه وطَلّقها.

ودخل على زياد رجلٌ من أشراف البصرة فقال له زياد: أين مَسكنك من البَصرة؟ قال: في وَسطها، قال له: كم لك من الولد؟ قال: تِسعة، فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الوَلد إلا واحدٌ، وهو ساكن في طَرف البصرة. فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك، فقال له: ما كذبتُك، لي تسعة من الولد قدّمت منهم ثمانية فهم لي، وبقي معي واحد، فلا أدري أَلي يكون أم عليَّ، ومنزلي بين المدينة والجَبّانة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة؛ قال: صدقت.

الكناية يُوَرى بها عن الكذب والكفر

لما هَزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقتل أصحابه وأسَرَ بعضهم، كتب إليه عبد الملك بن مروان أن يَعرض الأسرى على السَّيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر خلَّى سبيله، ومن أبى يَقتله. فأُتي منهم بعامر الشَّعبى ومطرِّف بن عبد الله بن الشِّخير وسعيد بن جبير؛ فأما الشعبي ومطرِّف فذهبا إلى التعريض والكناية ولم يصرحا بالكفر، فَقَبِلَ كلامهما وعفا عنهما؛ وأما سعيد بن جبير فأبى ذلك فقُتل.

وكان مما عرَّض به الشعبي، فقال: أصلح الله الأمير، نَبا المنزل، وأحْزَنَ[1] بنا الجَناب، واستَحْلَسْنَا[2] الخوفَ، واكتحلنا السهر، وخبَطَتْنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فَجَرة أقوياء. قال: صدق والله، ما بَرُّوا بخروجهم علينا ولا قَووا، خَليا

(١) أحزن: غلظ.
(٢) استَحْلَسْنا الخوف: نفارقه.

عنه. ثم قُدِّم إليه مُطرِّف بن عبد الله، فقال له الحجّاج: أتُقر على نفسك بالكفر؟ قال: إن من شق الحصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر؛ قال: خلّيا عنه. ثم قُدّم إليه سعيد بن جبير، فقال له: أتقِر على نفسك بالكُفر؟ قال: ما كفرتُ بالله مُذْ آمنت به؛ قال: اضربوا عُنقه.

ولما وَلي الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دُوَاد للمحنة في القُرآن ودعا إليه الفُقهاء، أُتي فيهم بالحارث بن مِسكين، فقيل له: أتَشهد أنّ القرآن مخلوق؟ قال: أشهدُ أن التوراة والإنجيل والزَّبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومَدَّ أصابعه الأربع، فعرَّض بها وكنَّى عن خلق القرآن وخَلَّص مُهجته من القتل: وعجز أحمد بن نصر فقيهُ بغداد عن الكناية فأباها، فقُتل وَصُلِب.

ودَخل بعض النُساك على بعض الخُلفاء فدعاه إلى طعامه، فقال له: الصائم لا يأكل ياأمير المؤمنين، وما أُزكّي نفسي بل الله يُزكي من يشاء؛ وإنما كره طعامَه.

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر قال: بينما ابنُ عِرباض يَمشي مُقدماً لِطيَّته[1]، إذ استقبلتـه الخوارج يَحزُّون الناسَ بسيوفهم؛ فقال لهم: هل خرج إليكم في اليهود شيء؟ قالوا: لا؛ قال: فامضُوا راشِدين، فمضَوا وتركوه.

ولقي شيطانُ الطاق[2] رجلاً من الخوارج وبيده سيفٌ، فقال له الخارجي: والله لأقتلنَّك أو تبرأ من عليّ؛ فقال له: أنا من عليّ، ومن عثمان بريء[3].

الكناية عن الكذب في طريق المدح

المدائنيّ قال: أُتي العُريان بن الهَيثم بغلام سكران، فقال له: مَن أنت؟ فقال:

أنـا آبنُ الـذي لا يَنْزلُ الدَّهرَ قِدرُه ... وإن نزلـت يومـاً فسـوف تَعـودُ

---

(١) الطية: النية.

(٢) الطاق: حصن بطبرستان، سكن به محمد بن النعمان أبو جعفر الأحول، الملقب بشيطان الطاق، وإليه تنسب الطائفة النعمانية من غلاة الشيعة.

(٣) يريد أنه من علي، وبريء من عثمان. كما أورده ابن قتيبة في عيون الأخبار.

ترى الناسَ أفواجاً إلى ضَوء ناره فمنهم قِيامٌ حولها وقُعود

فظنّه ولداً لبعض الأشراف، فأمر بتخليته. فلما كُشف عنه، قيل له: إنه ابن باقلاّني.

ودخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شُبرُمة القاضي، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ ـ وكان رُمي عنده بربية ـ فقال: نعم، إن له بيتاً وقَدَماً وشرَفاً، فخلى سبيلَه، فلما انصرف ابن شبرمة قال له أصحابهُ: أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرفتُ أن له بيتاً يأوي إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرَفُه أُذناه ومَنكباه.

وخطب رجل لرجل إلى قوم، فسألوه: ما حِرفته؟ فقال: هو نخَّاس الدوَاب، فزوّجوه، فلما كُشف عنه وجدوه يبيع السَّنانير، فلما عنَّفوه في ذلك قال: أوَ ما السنانير دواب؟ ما كذبتكم في شيء.

ودخل مُعلَى الطائي على ابن السرَّيّ يعوده في مرضه، فأنشده شعراً يقول فيه:

فأُقْسِمُ إن منَّ الإلهُ بصحَّة ونَال السَّرِيُّ بن السَّرِيِّ شفاءَ
لأرتحلنَّ العِيس شهراً بحجَّة وأُعتق شُكراً سالماً وصَفَاء

فلما خرج من عنده قال له أصحابُه: والله ما نعلم عبدَك سالماً ولا عبدك صَفاء، فمن أردت أن تُعْتِق؟ قال: هما هِرَّتان عندي، والحجّ فريضة واجبة، فما عَلَيَّ في قولي شيء إن شاء الله تعالى.

بـاب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة

سُئل ابن سيرين عن رجل، فقال: تُوفّي البارحة، فلما رأى جَزع السائل، قال: ﴿الله يَتوفَّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في مَنامها﴾[1] وإنما أردت بالوَفاة النوم.

ومَرض زيادٌ فدخَل عليه شُريح القاضي يعوده. فلما خرج بعث إليه مَسرُوق بن الأجدَع يسأله: كيف تركتَ الأمير؟ قال: تركتُه يأمر وينهى؛ فقال مَسروق: إن

(١) سورة الزمر آية ٤٢.

شُريحاً صاحب تعريض عَويص فاسألوه، فسألوه فقال: تركتُه يأمر بالوصية وينهى عن البكاء.

وشاور زياد رجلاً من ثِقاته في امرأة يتزوَّجها، فقال: لا خير لك فيها، إني رأيت رجلاً يُقبِّلها، فتركها؛ وخالفَه الرجل إليه وتزوجها. فلما بلغ زياداً خبرُه أرسل إليه وقال له: أما قلتَ لي إنك رأيت رجلاً يُقبِّلها؟ قال: نعم، رأيتُ أباها يُقبِّلها.

وقال أعرابيٌّ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ياأمير المؤمنين، احملني[1] وسُحَيما[2] على جمل؛ فقال: نَشدتك الله ياأعرابيّ، أسُحيم هـذا زِق؟ قال: نعم؛ ثم قال: مَن لم يَنفعه ظَنُّه، لم يَنْفَعهُ يَقينُه.

وودَّع رجلٌ رجلاً كان يُبغِضُه، فقال: امض في سرٍ من حِفظ الله، وحِجاب من كلاءته[3]. فَفطِن له الرجل، فقال: رَفع الله مكانك، وشَدَّ ظهرك، وجَعلك مَنظوراً إليك[4].

باب في الصمت

كان لُقمان الحكيم يجلس إلى داود ﷺ مُقتَبساً، وكان عبداً أسود، فوجده وهو يَعمل دِرعاً من حديد؛ فعجب منه ولم يَرَ دِرعاً قبل ذلك، فلم يسأله لُقمان عما يَعمل ولم يُخبره داود، حتى تمَّت الدِّرع بعد سنة، فقاسها داودُ على نَفسه، وقال: زِرد طافا

---

(١) في الكنايات للجرجاني: «وقسم عمر رضي الله عنه مرة الغنيمة فقال له رجل: أعطني لي ولأخي والحبشي» ويريد بالحبشي: الزِق. وقد ورد تشبيه الزِق بالحبشي في الشعر، من ذلك قول بعض الشعراء:

عجبت من حبشي لا حراك به ... لا يدرك الثأر إلا وهو مذبوح

(٢) في اللسان «مادة سحم». قال: «وسُحَيْم تصغير أسْحَم، أراد به الزق لأنه أسود، وأوهمه أنه اسم رجل».

(٣) يدعو عليه بالبعد من حفظ الله وكلاءته.

(٤) يدعو عليه بالصلب، إذ المصلوب يكون على شيء مرتفع، مشدود الظهر إليه، منظوراً إليه من الناس.

ليوم قِرَافا. تفسيره: درع حَصينة ليوم قِتال. فقال لُقمان: الصَّمت حُكم وقَليل فاعلُه.

وقال أبو عُبيد الله كاتبُ المهدى: كُن على التماس الحظّ بالسكوتِ، أحرصَ منك على التماسه بالكلام، إن البلاء مُوكّلٌ بالمنطق.

وقال أبو الدَّرداء: أنصِف أُذنيك من فيك، فإنما جُعل لك أُذنان اثنان وفَم واحد لتسمع أكثر مما تقول.

ابن عَوف عن الحسن، قال: جلسوا عند مُعاوية فتكلموا وسكت الأحنف؛ فقال مُعاوية: ما لك لا تتكلم أبا بحر؟ قال: أخافُك إن صدقتُ، وأخاف الله إن كذبتُ.

وقال المُهلَّب بن أبي صُفرة: لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليَّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقال سالم بنُ عبد الملك: فَضْلُ العَقل على اللسان مُرُوءة، وفَضْلُ اللسان على العقل هُجنة.

وقالوا: مَن ضاق صدرُه اتسع لسانه، ومن كَثُر كلامه كَثُر سَقَطُه، ومن ساء خُلقه قَلَّ صديقُه.

وقال هَرم بن حيَّان: صاحب الكلام بين إحدى منزلتين، إن قصَّر فيه خُصم[1]، وإن أغرق فيه أثِم.

وقال شبيب بن شيبة: مَن سمع الكلمة يَكرهها فسكتَ عنها انقطع ضَرُّها عنه.

وقال أكثمُ بن صَيفيّ: مَقتل الرجل بين فَكيه.

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحُسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

يَمـوت الفتَى من عَثـرة بلسـانِـه ... وليس يمـوتُ المرءُ من عَثْرة الرِّجْل
فعثـرَتُـه مِن فيـه تَرمِي برأسـه ... وعثـرتُـه بالـرِّجـل تبرأ على مهـلِ

---

(١) خُصِمَ: أي غلبه الخصم.

وقال الشاعر:

الحِلم زينٌ والسُّكوتُ سَلامةٌ ... فإذا نَطقتَ فلا تَكُن مِكثارَا
ما إن نَدِمتُ على سكوتي مَرّةً ... لكن نَدمتُ على الكلام مِرَارا

وقال الحسن بن هانيء:

خَلِّ جَنبيك لِرَامِي ... وأمضِ عنه بسَلَامِ
مُت بداء الصَّمت خيرٌ ... لك من داء الكلام
ربَّ لفظٍ ساق آجا ... لَ فِئَام وفِئَام[1]
إنما السالِمُ من أَلْـ ... ـجَم فاهُ بِلِجَام

وقال بعض الحكماء: حَظّي من الصَّمت لي، ونفعُه مقصور عليَّ. وحظي من الكلام لغيري، ووَباله راجع عَلَيَّ.

وقالوا: إذا أعجبك الكلامُ فاصمُت.

وقال رجلٌ لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيتَ أن تَصمُت؛ قال: فمتى أصمُت؟ قال: إذا اشتهيتَ أن تتكلّم.

وقال النبيُّ ﷺ: «**ما أُعطي العبدُ شرًّا من طَلاقة اللسان**»[2].

وسَمِع عبد الله بن الأهتم رجلاً يتكلم فيُخطيء، فقال: بكلامك رُزق الصمتُ المحبةَ.

باب في المنطق

قال الذين فَضَّلوا المنطقَ: إنما بُعثَت الأنبياء بالكلام ولم يُبعثوا بالسُّكوت. وبالكلام وُصِف فَضل الصَّمت، ولم يوصف القولُ بالصمت، وبالكلام يُؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُعظَّم الله ويسبح بحمده، والبيان من الكلام هو الذي

---

(١) الفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه.

(٢) رواه الديلمي عن ابن عباس بلفظ: «**ماأعطي عبد شيئاً شراً من طلاقة لسانه**» قاله العراقي انظر تخريج أحاديث علوم الدين [٢٥٦٠] والهندي في كنز العمال [٧٨٩٢]. وقال ابن السبكي: =

مَنَّ الله به على عِباده، فقال: ﴿خَلقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان﴾[١]. والعِلم كلُّه لا يُؤديه إلى أوعية القُلوب إلا اللسان، فنفع المنطق عام لقائله وسامعه ومن بلغه، ونفع الصمتِ خاص بفاعله.

وأعدلُ شيء قِيل في الصمت والمَنطق قولهم: الكلامُ في الخير كلِّه أفضلُ من الصمت، والصمت في الشرِّ كله أفضلُ من الكلام.

وقال عبد الله بن المُبارك صاحبُ الرَّقائق يَرثي مالك بن أنس المَدَنيّ:

صَمُوتٌ إذا ما الصمتُ زَيَّن أهله ... وفَتَّاق أبكار الكلام المُخَتَّم
وَعَى ما وَعَى القرآنُ من كلِّ حِكمَة ... وسِيْطَت[٢] له الآدابُ باللحم والدَّمِ

وقال عمرُ بن الخطاب [رضي الله عنه]: ترك الحركة غفلة.

وقال بكرُ بن عبد الله المُزنيّ: طُول الصمت حُبْسَة.

وقالوا: الصمتُ نَوم، والكلام يَقظة.

وقالوا: ما شيء ثُني إلا قصُر، إلا الكلام فإنه كلما ثُني طال.

وقال الشاعر:

الصَّمتُ شِيمتُه فإنْ ... أبدَى مَقالاً كان فَصْلاً
أبدَى السكوتَ فإن تَكَلَّم لم ... لم يَدَعْ في القول فَضْلا

باب في الفصاحة

محمدُ بن سِيرين قال: ما رأيتُ عَلى امرأة أجمل من شَحم، ولا رأيتُ عَلى رَجُل أجمل من فصاحة.

وقال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن نبيه موسى ﷺ واستيحاشه بعدم الفصاحة: ﴿وَأخِي هَـرونُ هو أفْصَحُ مني لِسَاناً فأرسِلْهُ معيَ رِدْءًا يُصَدِّقُني﴾[٣].

= حديث: «ماأوتي رجل شراً من فضل في لسان» ذكره ابن أبي الدنيا في الصمت منقطع الإسناد من وسطه غير موصول انظر تخريج أحاديث علوم الدين [٢٥٦٠].

(١) سورة الرحمن: الآيتان ٣، ٤. (٢) سيطت: خلطت. (٣) سورة القصص آية ٣٤.

آفات المنطق

تكلّم ابنُ السَّمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تردّده؛ قال: أردده ليفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه.

الأصمعي قال: قال مُعاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّماط: ياأمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رُتَّة العراق، وتياسَرُوا عن كَشْكَشَة بكر، وتيامَنُوا عن شَنْشَنة تَغلب، ليس فيهم غَمْغَمة قُضاعة، ولا طُمطمانيّة حِمير. قال: مَن هم؟ قال: قومُك ياأمير المؤمنين قُريش؛ قال: صدقتَ، فمن أنت؟ قال: مِن جَرْم. قال الأصمعي: جَرْم فُصحَى الناس.

قال أبو العباس محمد بن يزيد النَّحوي. التَّمتمة في المَنطق: التردُّد في التاء، والعُقْلة: هي التواء اللسان عند إرادة الكلام؛ والحُبْسة: تعذُّر الكلام عند إرادته؛ واللَّفف: إدخالُ حَرف في حَرف؛ والرُّتة: كالرَّتَج تَمنُّع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل به. والغمغمة: أن تسمع الصوت ولا يَبين لك تقطيعُ الحروف. وأما الرُّتة: فإنها تكون غريزية، وقال الراجز:

يأيُّها المُخلّط الأَرَتّ

ويقال إنها تكثر في الأشراف. وأما الغَمغمة: فإنها قد تكون من الكلام وغيره. لأنها صَوت من لا يفهم تقطيع حُروفه.

قال عنترة:

وصاحب ناديته فغَمْغَمَا يُريدُ لَبيَّك وما تكلَّما
قد صار من خَوْف الكلام أَعجَمَا

والطَّمْطمة: أن يكون الكلام مُشبها لكلام العجم؛ واللُّكنة: أن تَعترض في الكلام اللغةُ الأعجمية ـ وسنفسِّر هذا حرفاً حرفاً، وما قيل فيه إن شاء الله ـ واللَّثغة: أن يُعدل بحَرف إلى حَرف؛ والغُنّة: أن يُشرب الحرفُ صوتَ الخَيشوم؛

والخُنَّة: أشد منها؛ والتّرخيم: حَذف الكلام؛ والفأفأة: التردد في الفاء؛ يقال: رجل فأفاء، تقديره فاعل، ونظيره من الكلام ساباط[١] وخاتام، قال الراجز:

يامَيُّ ذات الجَورب المُنشَقّ أخذتِ خاتامي بغير حَقّ

وقال آخر:

ليس بفأفاء ولا تمتام ولا مُحب سَقطَ الكلام

وأما كشكشة تميم[٢]: فإن بني عمرو بن تميم إذا ذَكرت كاف المؤنّث فوقفت عليها أبدلت منها شيئا، لقُرب الشين من الكاف في المخرج، وقال راجزُهم:

عل لكِ أن تَنْفَعِي وأنْفَعِشْ فتُدخلين اللَّذ مَعِي في اللَّذ مَعَش

وأما كسكسة بكر[٢]: فقوم منهم يُبدلون من الكاف سيناً كما فعل التميميون في الشين. وأما طُمطمانية حِمير: ففيها يقول عَنترة:

تَأوي له قُلُص النَّعام كما أَوَتْ حِزَقٌ يمانِيَةٌ لأعجمَ طِمْطِمِ

وكان صُهيب أبو يحيى رحمه الله يَرتضخ لُكنة روميّة.

وقال رسول الله ﷺ: **صُهيب سابق الروم**[٣].

وكان عُبيد الله بن زياد يرتضخُ لكنة فارسية مِن قِبَل زوج أُمه شيرويه الأسواريّ.

وكان زياد الأعجم، وهو رجل من بني عبد القيس. يَرتضخ لكنة أعجمية، وأنشد المُهلّب في مَدحه إياه:

فتى زاده السُّلتان في الحمد رغبةً إذا غيَّر السُّلْتَان كلَّ خَليلِ

يريد السلطان ـ وذلك أن بين التاء والطاء نسباً، لأن التاء من مخرج الطاء. وأما

(١) الساباط: سقيفة بين حائطين، أو بين دارين، من تحتها طريق نافذ.

(٢) في القاموس المحيط أن الكسكسة لغة لتميم لا لبكر. انظر تاج العروس ٤/ ٣٢٤، وفي فقه اللغة: الكسكسة لتميم، والكشكشة لبكر.

(٣) قال المناوي: رواه البزار والطبراني في الكبير والحاكم عن أنس والطبراني عن أم هاني وابن عدي عن أبي أمامة، انتهى. ولفظ الحديث: «**السُّبَّاق أربعة أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة**».

قال الذهبي: هذا حديث منكر فرد والأظهر أن بلالاً ليس بحبشي وأما صهيب فعربي من النمر ابن قاسط. انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٠ وفيض القدير [٤٧٩٣] وضعيف الجامع [٣٣٣٣].

الغُنة فتُستحسن من الجارية الحديثة السن. قال ابن الرّقاع في الظبية:

تُزجي أغَنَّ كأنَّ إبرةَ رَوْقِه[1] قلمٌ أصاب من الدَّواة مِدَادها

وقال ابن المُقَفع: إذا كثر تقليب اللسان رقَّت حواشيه ولانت عَذَبَتُه.

وقال العتّابي: إذا حُبس اللسانُ عن الاستعمال اشتدَّت عليه مخارج الحروف.

وقال الراجز:

كأن فيه لَفَفا إذا نَطَقْ من طُول تَحبِيسٍ وَهَمٍّ وأرَقْ

باب في الإعراب واللَّحن

أبو عُبيدة قال: مَرَّ الشعبيُّ بقَوم من الموالي يتذاكرون النحو، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأوَّل من أفسده.

قال أبو عُبيدة: ليته سَمِعَ لحن صَفوان وخالد بن صَفوان وخاقان والفتح ابن خاقان والوليد بن عبد الملك.

وقال عبد الملك بن مروان: اللَّحنُ في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثوب، والجُدري في الوجه.

وقيل له: لقد عَجِل عليك الشيبُ ياأمير المؤمنين، قال: شَيَّبني ارتقاء المنابر، وتوقّع اللَّحن.

وقال الحجَّاج لابن يَعْمَر: أتسمعني أَلحن؟ قال: لا، إلا أنه ربما سَبَقَكَ لسانُك ببعضه في آن وآن؛ قال: فإذا كان ذلك فعرِّفني.

وقال المأمون لأبي عليّ المعروف بأبي يعلى المِنقري: بلغني أنك أُمِّي، وأنك لا تُقيم الشِّعر، وأنك تَلْحَن في كلامك؛ فقال: ياأمير المؤمنين، أمّا اللَّحن فربما سَبقني لساني بالشيء منه، وأما الأمِّية وكسر الشعر فقد كان النبي ﷺ أُميا وكان لا يُنشد الشعر؛ قال المأمون: سألتُك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني عيباً رابعاً، وهو الجهل،

---

(١) تزجي: تسوق. والأغن من الظباء: ما في صوته غنة: والروق: القرن.

ياجاهل، إن ذلك في النبي ﷺ فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما مُنع ذلك النبي ﷺ لنفي الظِّنَّة عنه، لا لعيب في الشعر والكتاب، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وما كنت تَتْلُو من قبْلِه من كتابٍ ولا تخُطُّه بيمينِكَ إذاً لارتَابَ المُبطلُون﴾[1].

وقال عبدالملك بن مروان: الإعراب جمالٌ للوضيع، واللَّحن هُجْنَةٌ على الشريف.

وقال: تَعلموا النحو كما تتعلمون السُّنن والفرائض.

وقال رجل للحسن: إن لنا إماماً يَلْحَن؛ قال: أمِيطوه عنكم، فإن الإعراب حِلية الكلام.

وقال الشاعر:

النَّحوُ يَبسُط من لسان الألكن ... والمرءُ تُكْرِمُه إذا لم يَلحَنِ
فإذا طلبتَ من العُلوم أجلَّها ... فأجلُّها منها مُقِيمُ الألسُنِ

وقال آخر:

النَّحوُ صَعبٌ وطويلٌ سُلَّمه ... إذا ارتَقَى فيه الذي لا يعْلمُه
زَلَّت به إلى الحَضِيض قَدَمُه ... يُريدُ أن يُعربَهُ فيُعْجِمُه

وقال رجل للحسن: يا أبو سعيد؛ فقال: أحسَبُ أنّ الدَّوانِق[2] شَغَلتك عن أن تقول: ياأبا سعيد.

وكان عمرُ بن عبد العزيز جالساً عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لحَّاناً، فقال: ياغلام، ادْعُ لي صالح؛ فقال الغلام: ياصالحا؛ قال له الوليد: انقُص ألفاً. فقال عمر: وأنت ياأمير المؤمنين فزد ألفاً.

ودخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشراف قُريش، فقال له الوليد: من خَتَنك؟ قال له: فلانٌ اليهودي؛ فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما تسأل عن خَتَني[3] ياأمير المؤمنين، هو فلان بن فلان.

وقال عبدالملك بن مروان: أضرّ بنا في الوليد حُبُّنا له، فلم نُلزمه البادية.

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٨.

(٢) الدوانق: جمع دانق (بفتح النون وكسرها): سُدْس الدينار والدرهم. انظر لسان العرب مادة (دنق).

(٣) الختَن بالتحريك: الصِّهْر أو كل من كان من قِبَل المرأة كالأب والأخ.

وقد يَستثقل الإعرابُ في بعض المواضع كما يُسْتَخَفّ اللحنُ في بعضها.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة الفَزاري:

منطقٌ بارعٌ وتَلْحَنُ أحياناً وخيرُ الحديث ما كانَ لَحْنا

وذلك أنه من حَكى نادرةٍ مضحكة، وأراد أن يُوفي حروفها حظَّها من الإعراب، طمس حُسنها، وأخرجها عن مقدارها، ألا ترى أن مُزبداً المديني أكل طعاماً فكظَّه، فقيل له: ألا تَقي؟ قال: وما أَقي؟ خبز نقي ولحم طَري؟ مَرَتي طالق، لو وَجدت هذا فيئاً لأكلته.

قال: وكذلك يُستقبح الإعراب في غير موضعه كما استُقبح من عيسى بن عمر إذ قال وابن هُبيرة يَضربه بالسياط: والله إن كانت إلا أُثَيَّاباً في أُسَيْفاط قَبضها عَشَّاروك[1].

وقال رجل لشُريح: ما تقول في رجل تُوفي وترك أباه وأخيه؟ فقال له: أباه وأخاه؛ فقال: كم لأباه وأخاه؟ قال لأبيه وأخيه؛ قال: أنت علَّمتني فما أصنَع؟

بابٌ في اللَّحْن والتَّصْحيف

وكان أبو حنيفة لحاناً، على أنه كان في الفُتيا ولُطف النَّظر واحد زمانه. وسأله رجلٌ يوماً فقال له: ما تقول في رجل تناول صَخرة فضرب بها رأسَ رَجُلٍ فقتله، أتُقِيْدُه به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قُبيس[2].

وكان بِشر المريسي يقول لجلسائه: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه

---

(١) أثياب: تصغير أثواب. وأسيفاط: تصغير أسفاط. وأسفاط: جمع سَفَط (بالتحريك) وهو الذي يُعَبّى فيه الطيب وما أشبه من أدوات النساء. وعَشَّاروك: جمع عَشَّار. والعَشَّار: من يقبض عُشْر الأموال ويجيبها.

(٢) لا يصح ذلك عن أبي حنيفة رحمه الله ويكفينا ماأورده الذهبي في السير عن أبي يوسف قال: كان ابو حنيفة ربعة، من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقاً، وأعذبهم نغمة وأبينهم عما في نفسه. سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٩.

وأهنؤها. فسمع قاسم التَّمار يضحكون، فقال: هذا كما قال الشاعر:

إنّ سُلَيْمَى والله يَكلؤها ضنَّت بشيء ما كان يرزؤها

وبِشر المريسي رأسٌ في الرأي، وقاسم التَّمار متقدم في أصحاب الكلام، واحتجاجه لبِشر أعجبُ من لحن بِشر.

ودخل شَبيب بن شيبة على إسحاق بن عيسى يُعزيه عن طفل أصيب به، فقال في بعض كلامه: أصلح الله الأمير، إن الطفل لايزال مُحبنظياً على باب الجنة يقول: لا أدخل حتى يَدخل أبواي، قال إسحاق بن عيسى: سبحان الله! ماذا جئتَ به؟ إنما هو محبنطي، أما سمعت قول الراجز:

إنـي إذا أنشدتُ لا أُحْبَنطي ولا أُحِبُّ كثرة التمطِّي

قال شبيب: أَلي يقال مثل هذا وما بين لا بَتَيْهَا أعلمُ مني بها؟ فقال له إسحاق: وهذه أيضاً، أللبصرة لا بتان يالُكع؟ فأبان بتقريعه عَواره، فأخجله فسكت.

قوله المُحبنطي: المُمتنع امتناع طلب لا امتناع إباء، وهو بالطاء غير معجمة، ورواه شبيب بالظاء المعجمة. وقوله ما بين لا بَتَيْهَا، خطأ، إذ ليس للبصرة لابتَان، وإنما اللابة للمدينة والكوفة. واللَّابَة: الحَرَّة، وهي الأرض ذات الحجارة السُّود.

نوادر من الكلام

يقال: ماء نُقاخ، للماء العذب؛ وماء فُرات، وهو أعذب العذب؛ وماء قُعَاع، وهو شديد المُلوحة؛ وماء حُراق، وهو الذي يَحرق من مُلوحته؛ وماء شَرُوب، وهو دون العَذب قليلا؛ وماء مَسُوس، وهو دون الشَّرُوب؛ وماء شَريب، وهو العذب.

اجتمع المُفضَّل الضبيّ وعبد الملك بن قريب الأصمعي، فأنشد المُفضَّل:

تُصْمِتُ بالماء تَولباً جَذَعا[1]

---

(١) التولب: الجحش، ويستعمل للإنسان. وهذا عجز بيت لأوس بن حجر، يصف صبياً، وصدره:

وذات هدم عار نواشرها

والهدم (بالكسر): الثوب الخَلَقُ المرقَّع. والنواشر: عصب الذراع من داخل.

فقال له الأصمعي: تولباً جَدِعاً، والجَدع: السيِّء الغذاء. فضَجَّ المفضل وأكثر؛ فقال له الأصمعي: لو نفخت في الشبور[١] ما نفعك، تكلم بكلام النَّمل وأصِبْ.

وقال مروان بن أبي حفصة في قوم من رُواة الشعر لا يعلمون ما هو على كثرة استكثارهم من روايته:

زَوامِلْ[٢] للأشعار لا علمَ عندَهم ... بجيِّدها إلَّا كعِلم الأبَاعِر
لَعَمْرُك ما يدرى البعيرُ إذا غدا ... بأوسَاقِه أو راحَ ما في الغَرائر

بابُ نوادر من النحو

قال الخليل بن أحمد: أنشدني أعرابي:

وإنَّ كِلَاباً هذه عَشْرُ أبطُنٍ ... وأنت بَرِيءٌ من قَبائلها العَشْرِ[٣]

قال: فجعلتُ أعجب من قوله عَشرَ أبطُن [حيث أنث، لأنه عَنَى القبيلة][٤]، فلما رأى عَجبي، قال: أليس هكذا قولُ الآخر[٥]:

وكان مجَني دونَ من كنتُ أتَّقي ... ثلاثُ شُخُوْصٍ: كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

وقال أبو زيد قلت للخليل: لم قالوا في تَصغير واصل: أويصل، ولم يقولوا: وُوَيصل؟ قال: كرهوا أن يُشَبَّه كلامُهم بنبح الكلاب.

وقال أبو الأسود الدُّؤلي: من العرب من يقول: لزلاي لكان كذا وكذا[٦]. وقال الشاعر[٧]:

---

(١) الشبور (كتنور): البوق.

(٢) الزوامل: جمع زاملة، وهي ما يحمل عليها من الإبل.

(٣) البيت للنواح، أحد بني كلاب. (انظر خزانة الأدب للبغدادي ج٤ ص٤٨٤).

(٤) التكملة عن عيون الأخبار (ج٢ ص١٥٨).

(٥) هو عمر بن أبي ربيعة.

(٦) كان ذلك في الجاهلية، وجاء الإسلام وحرم قول ذلك.

(٧) الشاعر هو يزيد بن الحكم الثقفي، وهو ممن أسلم مع ثقيف يوم فتح الطائف، وهذا البيت من شعر له يعاتب به ابن عمه.

وكم مَوْطنٍ لولاي طِحْتَ كما هَوى بأجرامه من قُنَّة النِّيق[١] مُنْهوِى

وكذلك لولا أنتم ولولاكم، ابتداءٌ وخبره محذوف.

وقال أبو زيد: وراء وقُدَّام لا يُصْرَفان لأنهما مؤنثان، وتصغير قدَّام قُدَّيدمه، وتصغير وراء وُرَيِّئة، وقُدَّام خمسة أحرف، لأن الدال مشدَّدة: فأسقطوا الألف لأنها زائدة، ولئلا يُصغر اسم على خمسة أحرف.

أبو حاتم قال: يقال أمٌّ بيِّنة الأمومة: وعمٌّ بَيِّن العمومة. ويقال: مَأموم، إذا شُج أم رأسه[٢]. ورجل مَمُوم: إذا أصابه المُوم[٣].

وقال المازنيّ: يقال في حَسَب الرجل أُرْفَة[٤] ووَصْمَة وأُبنة، وكذلك يقال للعصا إذا كان فيها عيب. ويقال: قَذِيَتْ عينُهُ، إذا أصابها الرَّمد. وقد يقال في التقديم والتأخير مثلُ قول الشاعر:

شَرَّ يومَيْها وأغْوَاه[٥] لها رَكِبَتْ عَنزٌ[٦] بحِدْج[٧] جَملا

يريد: ركبت عَنز بحدج جملا في شرِّ يوميها: نصب لأنه ظرف.

وقد يُسمى الشيء باسم الشيء إذا جاوره. قال الفرزدق:

أخَذْنَا بآفاق السَّماء عليكمُ لنَا قَمراهَا والنجومُ الطَّوالعُ

قوله: لنا قَمراها: يريد الشمس والقمر.

---

(١) النيق: أعلى الجبل.

(٢) في بعض الأصول: «مأمومة» مكان: «أم رأسه» ولعل صواب العبارة: «شجت مأمومته». والمأمومة: أم الدماغ، كما قال المبرد.

(٣) الموم: الحمى. وقيل هو الجدري الكثير المتراكب.

(٤) الأرفة: العقدة.

(٥) كذا في اللسان (مادتي: حدج وعنز): والذي في الأصول: «وأخراه».

(٦) كذا في اللسان وعنز: امرأة من طسم أُخذت سَبيّة فحملوها في هودج وألطفوها بالقول والفعل، فعند ذلك قالت هذا البيت، وقيل غير ذلك. (انظر اللسان مادة عنز). والذي في الأصول: «هند».

(٧) الحدج (بالكسر): مركب من مراكب النساء نحو الهودج.

وكذلك قولُ الناس في العُمرين: أبي بكر وعمر.

قال أبو عُبيدة: المَعْيُون الذي ليس له منظر ولا مخبر، والمَعين: الذي قد أصيب بالعين. والمعين: الماء الظاهر.

الأصمعي قال: لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر. فقال له: كيف رَحلك؟ قال: ما تزداد إلا مثَالة؛ قال: فما هذه المعيوراء التي تَركض، يريد ما هذه الحمير التي تَركب.

يقال: مَعْيوراء ومَشيوخاء ومَعْبُوداء.

قال الأصمعي: إنما يُقال: اقْرأ عليه السلام. وأنشد:

اقرأ على عَصر الشَّباب تحية ... وإذا لقيتَ دَدَاً فَقَطْني من دَدِ[1]

وقال الفرزدق:

وما سُبق القيسيُّ من ضَعف عَقله ... ولكن طَفَت عَلياء قُلْفة خالدِ

[أراد: على الماء، فحذف]. وهذا آخر كتاب سيبويه. وقال بعض الورَّاقين:

رأيتُ يا حمَّاد في الصَّيد ... أرانباً تُؤخَذُ بالأيدِي
إن ذوي النَّحو لهم أنفسٌ ... مَعروفة بالمَكر والكيد
يَضرب عبدُ الله زيداً وما ... يُريد عَبْدُ الله من زَيْد؟

وأنشد أبو زيد الأنصاري[2]:

يا قُرطَ قُرطَ[3] حُيَّ لا أبَالكُمْ ... يا قُرطُ إني عليكم خائفٌ حَذرُ
قُلتُم له اهْجُ تَميماً لا أبَالكُمُ ... في فَم قائل هذا التُّربُ والحَجَرُ
فإنَّ بيتَ تميم ذُو سَمِعْتَ به ... بيتٌ به رَأَست في عِزِّها مُضرُ

ذو هنا في مكان الذي، لا يتغيّر عن حاله في جميع الإعراب. وهذه لغة طيء تجعل ذو في مكان الذي.

---

(١) الدد: اللهو واللعب.

(٢) الشعر لرجل من طيء. انظر الكامل للمبرد.

(٣) يريد: يابني قرط. وهو قرط بن أبي حارثة بن حيي، من بني ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء.

وقال الحسن بن هانيء:

حُبُّ المُدَامة ذو سمَعْتَ به ... لم يُبْقِ فيّ لغيرها فَضْلاً

وبعضُ العرب يقول: لا أباك في مكان لا أبا لك، [ولأن أبا لك] مضاف. لذلك بقيت الألف، ولو كانت غير مُعربة لقلت: لا أبَ لك، بغير ألف: وليس في الإضافة شيء يُشبه هذا لأنه حالَ بين المُضاف والمضاف إليه وقال الشاعر[1]:

أبالموتِ الذي لابُدَّ أني ... مُلاقٍ لا أُباكِ تُخَوفيْني

وقال آخر:

وقد مات شَمَّاخٌ ومات مُزَرِّد[2] ... وأي كريم لا أباكِ يُخلَدُ

وأنشد الفرَّاء لابن[3] مالك العُقيليّ:

إذا أنا لم أُمَنْ عليك ولم يَكُن ... لقاؤُك إلا من وراءُ وراءُ

هذا مثل قولهم: بين بين.

وقال الفرزدق:

وإذا الرّجال رأوا يزيدَ رأيتهم ... خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصارِ

قال أبو العبّاس محمد بن يزيد النّحوي: في هذا البيت شيء مُستطرف عند أهل النَّحو. وذلك أنه جمع فاعل على فواعل، وإذا كان هكذا لم يكن بين المُذكر والمُؤنث فَرْق، لأنك تقول: ضاربة وضوارب، ولا يقال في المذكّر فواعل إلا في موضعين، وذلك قولهم: فوارس وهوالك، ولكنّه اضطُر في الشّعر فأخرجه عن الأصل ولولا الضرورة ما جاز له.

وقال أبو غَسَّان [رَفيع بن سَلَمة] تلميذ أبي عُبيدة [المعروف بدَمَاذ، يخاطب أبا عثمان النحويَّ المازنيّ]:

تَفكَّرتُ في النَّحو حتى مَلِلتُ ... وأتعبتُ نفسي له والبَدن

---

(١) هو أبو حية النميري. انظر لسان العرب (مادة أبو).

(٢) هو مزرد بن ضرار، أخو الشماخ.

(٣) هو عتي بن مالك. انظر لسان العرب مادة وري.

وأتعبْت بَكراً[١] وأصحابَه ... بكل المَسائل في كُلّ فَن
سِوَى أنَّ باباً عليه العَفا ... ءُ لِلفاء يا ليتَهُ لم يَكُن
فكنتُ بظاهره عالماً ... وكنتُ بباطِنه ذا فَطَن
ولولاو بابٌ إلى جَنْبه ... من المَقْت أحسبُهُ قد لُعن
إذا قلتُ هاتُوا لماذا يُقا ... ل: لستُ بآتيك أو تَأتِيَنْ
أجيبُوا لما قِيلَ هذا كذا ... على النَّصب قالُوا لإضمار أن
وما إن رأيتُ لها مَوضعاً ... فأعرفَ ما قِيلَ إلَّا بفَن
فقد خِفتُ يابَكْرُ من طُولِ ما ... أُفكِّر في أمْر «أنْ» أو أُجَن

بابٌ في الغريب والتَّقْعيب[٢]

دخل أبو عَلقمة على أَعْيَنَ الطبيب، فقال: أصلحك الله، أكلتُ من لُحُوم هذه الجَوازل[٣] وطَسِئت[٤] طَسْأَة فأصابني وَجَعٌ بين الوابلة[٥] ودأية[٦] العُنق، فلم يزل يَنمو ويَربُو حتى خالَطَ الخِلْبَ والشَّراسيف[٧]، فهل عندك دواء؟ قال: نعم، خذ خَرْبَقاً[٨] وسَلْفَقاً وشِبرِقاً[٩] فزَهزِقْهُ وَزَقْرِقْهُ[١٠] واغسله بماء ذَؤب[١١] واشربه؛ فقال له أبو

(١) يعنى ببكر: أبا عثمان المازني. فبلغ ذلك المازني فقال: والله ما أحسب أنه سألني قط فكيف أتعبني.
(٢) تقعيب الكلام وتقعيره: بلوغ غوره.
(٣) الجوازل: فراخ الحمام. وورد في المحاسن والمساويء للبيهقي (ج٣ ص٤٧٠): «الجوازىء». والجوازىء: البقر والظباء التي جزأت بالرطب عن الماء.
(٤) طسىء: تخم من الطعام.
(٥) الوابلة: طرف العضد في الكتف.
(٦) الدأية: فقرة العنق.
(٧) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو رأس الضلع مما يلي البطن.
(٨) الخربق (كجعفر): ضرب من الأدوية، ونبت كالسم يُغشيَّ على آكله ولا يقتله.
(٩) الشبرق (كزبرج): نبت من جنس الشوك، فإذا كان رطباً فهو الشبرق، وإذا يلبس فهو الضريع.
(١٠) الزهزقة والزقزقة: ترقيص الأم للصبي. ولعله يريد هنا حركة الغربال ونحوه بما يوضع فيه لغربلته.
(١١) الذوب: العسل، أو ما في أبيات النحل، أو ما خلص من شمعه.

عَلقمة: لم أفهمك؛ فقال: ما أفهمتُك إلاَّ كما أفهمتني.

ودعا أبو علقمة بحَجَّام يَحجمُه فقال له: أنْقِ غَسْل المحَاجم، واشدُد قَصب المَلازم[١]، وأرهف ظُبَات المَشارط، وأسرع الوضعَ، وعجِّل النَّزع، وليكُن شرطُك وَخْزاً، ومَصَّك نَهزاً، ولا تَرُدَّن آتياً، ولا تُكْرِهَنّ آبياً. فوضع الحجَّام محاجمه في جُونته[٢] ومضى عنه.

وسَمع أعرابيٌّ أبا المَكنون النَّحوي في حَلقته وهو يقول في دعاء الاستسقاء: اللهم ربَّنا وإلهنا ومولانا فَصَلِّ على محمد نبيّنا، اللهم ومن أراد بنا سُوءاً فأحِطْ ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد، ثم أَرْسَخْهُ على هامَته، كرسُوخ السِّجِّيل[٣] على هام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غَيثاً مُغيثاً مَريئاً مَريعاً مُجلجلا[٤] مُسْحَنفرا[٥] هَزجاً[٦] سَحًّا سَفُوحاً طَبَقاً[٧] غَدقاً[٨] مُثعَنْجِراً[٩]، نَافعاً لعَامَّتنا، وغيرَ ضار لخاصَّتنا. فقال الأعرابيّ:

يا خليفة نُوح هذا الطُّوفان وربِّ الكعبة، دعنى حتى آوي إلى جَبَل يَعصمني من الماء.

وسمعه مرة أخرى يقول في يوم برد: إن هذا يوم بلّة[١٠] عَصَبصب[١١] بارد هِلَّوف[١٢]، فارتعد الأعرابي وقال: والله هذا مما يَزيدني برداً.

وخطب أبو بكر المَنكور فأغرب في خُطبته وتقَعَّر في كلامه، وعند أصل المِنبر رجلٌ

---

(١) الملازم: جمع ملزم (بكسر الميم): خشبتان مشدود أوساطها بحديد تجعل في طرفها قُنّاحة (مفتاح معوج طويل) فتلزم ما فيها لزوماً شديداً، تكون مع الصياقلة والأبّارين ومجلدي الكتب وغيرهم.

(٢) الجونة (بضم الجيم): سَلَّة مغشاة أدماً تكون مع العطارين.

(٣) السجيل: حجارة كالمدر.

(٤) المجلجل من السحاب: الذي فيه صوت الرعد.

(٥) المسحنفر: الكثير الصب الواسع.

(٦) الهزج: الذي به صوت.

(٧) طبقاً: عاماً واسعاً.

(٨) الغدق: الكثير.

(٩) المثعنجر: السحاب الممتلىء.

(١٠) البلة (بالكسر وبالضم): الندوة. والبلة (بالفتح): البلل.

(١١) عصبصب: شديد.

(١٢) الهلُّوف: الثقيل البطيء.

من أهل الكوفة يقال له حَنَش، فقال لرجل إلى جَنبه: إنى لأبغض الخطيب يكون فَصيحا بليغاً مُتقعِّرا. وسمعه أبو بكر المنكور الخطيبُ، فقال له: ما أحوجك ياحَنش إلى مُدَحْرج[1] مَفتول لينِّ الجلاز[2] لَدْن المَهزّة، عظيم الثّمرة[3]، تُؤخذ به من مَغرز العُنق إلى عَجب الذَّنب[4] فتُعلَى به فتَكثُر له رقصاتُك من غير جَذل.

وقال حبيب الطائي:

فما لك بالغريب يدٌ ولكن ... تَعاطيكَ الغَريبَ من الغَريب
أَمَا لو أنَّ جهلك عاد عِلماً ... إذاً لرسَخْتَ في عِلم الغُيوبَ

ومن قولنا نَمدح رجلا باستسهال اللفظ وحُسن الكلام:

قَولٌ كأنّ فَريْده ... سِحْرٌ على ذِهْن اللَّبيب
لا يَشمئز على اللَسا ... نِ ولا يَشِذّ عن القُلوب
لم يَغْلُ في شَنِع اللُغا ... تِ ولا تَوَحّشَ بالغريب
سَيفٌ تَقَلّدَ مثْلَهُ ... عَطْفَ القَضيب على القَضيبَ
هذا تُجَذّ بهِ الرِّقَا ... بُ وَذا تُجَذّ به الخُطُوب

---

(١) المدحرج: المدور، يصف سوطاً.
(٢) الجلاز: العقب المشدود في طرف السوط.
(٣) ثمرة السوط: طرفه.
(٤) مغرز العنق وعجب الذنب: أصلاهما.

باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه

قالوا: ليس الفِقْه بالتفقُّه، ولا الفَصاحة بالتفصُّح، لأنه لا يَزيد مُتَزيّد في كلام إلا لنَقص يجده في نَفْسه. ومما اتفقت عليه العربُ والعجمُ قولهم: الطَّبع أمْلك.

وقال حَفْص بنُ النُّعمان: المَرْء يَصْنع نَفْسه، فمتى ما تَبْلُهُ يَنْزِع إلى العِرْق.

وقال العَرْجيّ:

يا أيها المُتحلِّي غيرَ شِيمَته ... ومن شَمائله التَّبديلُ والمَلَقُ
ارْجع إلى خِيْمِك[1] المَعروفُ دَيْدَنُهُ ... إنَّ التخلّق يأتي دُونه الخُلُق

وقال آخر[2]:

ومن يَبتدع ما لَيس مِن خِيْمِ نَفْسِهِ ... يَدَعْه ويَغْلِبه على النَّفس خِيمُها

وقال آخر:

كلُّ امرِيءٍ راجِعٌ يوماً لِشِيمَته ... وإنْ تَخَلَّقَ أخلاقاً إلى حِينِ[3]

وقال الخَرَيمي:

يُلامُ أبو الفَضْل في جُودِه ... وهَلْ يَمْلِك البَحرُ ألّا يَفِيضَا

وقال أبوالأسود الدُّؤَلي:

ولائمةٍ لامَتْكَ يا فَيْضُ في النَّدَى ... فقُلْتُ لها هل يَقْدَحُ اللَّوْمُ في البَحْرِ
أَرادَتْ لتَثْني الفَيْضَ عن عادة النَّدَى ... ومَن ذا الذي يَثْني السحابَ عن القَطْرِ

وقال حَبيب:

تَعَوَّد بَسْط الكفِّ حتى لَوَ انه ... ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أَناملُه

---

(١) الخيم: الطبيعة. انظر لسان العرب مادة (خيم).

(٢) جاء هذا البيت منسوباً إلى كثير. انظر عيون الأخبار ج٢ ص٥.

(٣) نسب هذا البيت في عيون الأخبار لذي الإصبع العدواني.

وقال آخر:

وقَفَّعَ[١] أطرافَهُم قَبْضُها فإنْ طَلبُوا بَسْطَها تَنْكَسِرْ

وقالوا: إن مَلِكاً من ملوك فارس كان له وزير حازم مُجرِّب، فكان يُصْدِر عن رأيه، ويَتعرَّف اليُمْن في مَشُورته، ثم إنّه هَلَك ذلك الملكُ، وقام بعده ولدٌ له مُعجَب بنفسه مُستبدٌّ برأيه، فلم يُنزل ذلك الوزيرَ منزلته، ولا اهْتَبل[٢] رأيه ومشورته، فقيل له: إن أباك كان لا يَقطع أمراً دونه؛ فقال: كان يَغْلَط فيه وسأمتحنه بنَفْسي. فأرسل إليه، فقال له: أيّهما أغْلبُ على الرجل: الأدبُ أو الطبيعة؟ فقال له الوزير: الطبيعةُ أغلبُ، لأنها أصلٌ والأدب فَرْعٌ، وكلُّ فَرْع يَرْجع إلى أصله. فدعا الملكُ بسُفْرته، فلما وُضِعت أقبلت سَنانيرُ بأيديها الشَّمعُ، فوقفت حول السُّفرة، فقال للوزير: اعتبر خَطَأَك وضَعْف مَذْهبك، متى كان أبو هذه السنانير شَماعا. فسكت عنه الوزير، وقال: أمْهلني في الجواب إلى الليلة المُقبلة؛ فقال: ذلك لك فخَرج الوزيرُ، فدعا بغُلام له، فقال: الْتَمِسْ لي فأراً وارْبُطه في خَيط وجئْني به، فأتاه به الغلامُ، فعقده في سَبَنِيَّة[٣] وطرحه في كُمّه، ثم راح من الغد إلى الملك، فلما حضرت سُفرته أقبلت السنانير بالشّمع حتى حَفّت بها، فحلّ الوزيرُ الفأرَ من سَبنيّته، ثم ألقاه إليها، فاستبقت السنانيرُ إليه ورَمت الشمعَ حتى كاد البيتُ يضطرم عليهم ناراً. فقال الوزيرُ: كيف رأيتَ غَلَبة الطَّبيعة على الأدب، ورُجوعَ الفَرْع إلى أصله؟ قال: صدقتَ، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه. فإنما مَدار كل شيء على طبعه، والتكلُّف مَذْموم من كل وجه. قال الله تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ: قل يا محمد: ﴿**وما أنا من المتكلِّفين**﴾[٤]. وقالوا: من تَطبّع بغير طبعه نَزَعَتْهُ العادةُ حتى تردَّه إلى طَبْعه، كما أن الماء إذا أُسْخِنته ثم تركته ساعة عاد إلى طَبعه من البُرودة، والشجرةَ المُرّة لو طليتها بالعسل لا تُثمر إلا مُرًّا.

---

(١) قفع: قبض. (٢) اهتبل: اغتنم.

(٣) السبنية: ضرب من الثياب تتخذ من مشاقة الكتان. يريد قطعة من هذا النوع من الثياب.

(٤) سورة ص، الآية: ٨٦.

باب في ترك المشاراة والمماراة

دخل السّائب بن صَيْفيّ على النبيّ ﷺ، فقال: أتعرفني يارسول الله؟ قال: وكيف لا أعرف شَريكي في الجاهليّة الذي كان لا يُشارى ولا يُمارى[1]. وقال ابن المُقفّع: المُشاراة والمُماراة يُفْسدان الصَّداقة القديمة، ويَحُلّان العقدة الوثيقة، وأيسر ما فيهما أنهما ذَريعة إلى المُنافسة والمُغالبة. وقال عبدُالرحمن بنُ أبي لَيْلى: لا تُمارِ أخاك فإمّا أن تُغْضبه وإما أن تَكْذِبه.

وقال الشاعر:

فإيَّــاك إيَّــاك المِــرَاءَ فإنــه إلى السَّبّ دَعّاءٌ وللصَّرْم جالبُ

وقـال عبدُالله بن عبّاس: لا تُمار فقيهاً ولا سَفيهاً، فإنّ الفقيه يَغلبك والسَّفيه يُؤْذيك. وقال ﷺ: «**سِبَابُ المُؤْمن فُسوقٌ وقِتالهُ كُفْر**»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٥ عن السائب بن عبدالله، وأبوداود / كتاب الأدب ـ باب في كراهية المراء ٤٨١٥ عن السائب، والحاكم في المستدرك / كتاب البيوع عن السائب بن السائب. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص صحيح، وأخرجه ابن ماجـه/ كتاب التجارات ـ باب الشركة والمضاربة، عن السائب [٢٢٨٧] وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح ابن ماجة. وأخرجه ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن السائب / كتاب الصمت [١٤٥]. والزيلعي عن السائب ابن السائب / نصب الراية ـ كتاب الشركة. وقد اختلفت المصادر فيمن كان شريك النبي ﷺ انـظر ابن حجـر / الإصـابة ٣/٢٣٨ وابن عبدالبر / الاستيعاب ٢/٥٧٢، والسهيلي / الروض الأنف ٥/٣٤٨.

(٢) متفق عليه بلفظ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

باب في سوء الأدب

دخل عُرْوة بن مَسعود الثَّقفيّ على النبي ﷺ، فجعل يُحدِّثه ويُشير بيده إليه حتى تَمسّ لحيته، والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله ﷺ بيده السيفُ، فقال له: اقبض يدك عن لِحْيَة رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك. فقبض عُروة يدَه[1]. وعُروة هذا هو عظيم القريتين الذي قالت فيه قريش: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. ويقال إنه الوليد بن المغيرة المخزومي. ولما قَدِم وفدُ تميم على النبي ﷺ ناداه رجل منهم من وراءِ الجدار: يا محمد، اخرج إلينا. فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يُنَادُونَكَ مِن وراءِ الحُجُراتِ أكثرُهم لا يَعْقِلُون﴾[2]. وأنزل الله في ذلك: ﴿لا تجعلوا دُعَاءَ الرسول بينكُم كدُعَاءِ بعضِكُم بَعْضاً﴾[3].

ونظر أبوبكر الصِّديق (رضي الله عنه) إلى رجل يَبيع ثَوْباً، فقال له: أتبيع الثوبَ؟ قال: لا عافاك الله؛ قال: لقد علمتم لو تتعلّمون! قل: لا وعافاك الله.

وخطب الحسن في دَم. فأجابه صاحبُ الدم، فقال: قد وضعتُ ذلك الدم لله ولوجُوهكم. قال له الحسن: ألا قلت: قد وضعتُ ذلك لله خالصاً؟

وذكر أعرابيّ رجلاً بسوء الأدب فقال: إن حدّثْتَهُ سابقَك إلى ذلك الحديث، وإن تركتَه أخذ في التُّرَّهات. ودخل بعضُ الرُّوَاة على المَهديّ، فقال له. أنشدني قولَ زُهير:

* لمن الدِّيار بقُنَّة الحِجْر *

فأنشدها حتى أتى على آخرها. فقال له المهديُّ: ذَهب والله مَن كان يقول هذا؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما / كتاب الشروط، كما أوردها ابن سيد الناس بتوسع. انظر عيون الأثر ٢ / ١٦٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

فقال له: كما ذَهب والله من يُقال فيه. فاستجهله واستَحمقَه.

ودخل أبوالنَّجْم على هشام بن عبدالملك بأرجوزته التي أوّلها:

* الحمد لله الوَهُوب المُجْزِل *

وهي من أجود شِعْره. فاستحسنها هشام وأصغى إليها. فلما أتى على قوله:

* والشمسُ في الجوِّ كعَيْنِ الأحْول *

غضب هشامٌ وكان أحولَ، فأمر بصَفْع قَفاه وإخراجه.

ودخل كُثَيِّر عزَّة على عبدالعزيز بن مروان فأنشده مِدحَته التي يقول فيها:

وأنتَ فلا تُفْقِدْ ولازال مَنْكُمُ ... إمامٌ يُحيِّا في حِجَاب مُسَدَّنِ[1]

أَشَمُّ منَ الغادين في كُلِّ حُلَّة ... يَميسون في صَبْغ من العَصْب مُتْقن[2]

لهُم أُزُرٌ حُمْرُ الحَواشِي يَطَوْنَها ... بأقدامِهم في الحَضْرميّ المُلَسَّن[3]

فاستحسنها وقال له: سَلْ حاجَتك؛ فقال: تُولِّيني مكانَ ابن رُمَّانة كاتبك. فقال له: ويلك! ذا كاتبٌ وأنت شاعر، فكيف تَقوم مَقامه وتَسدُّ مَسدَّه؟ فلما خرج من عنده ندم وقال:

عَجِبتُ لأخذِي خُطَّة العَجْز بعدما ... تَبيَّنَ من عبدالعزيز قَبُولُها

لئن عاد لي عبدُالعزيز بمثْلها ... وأَمْكنني منها إذاً لا أقولها

ووقف الأحنف بن قيس ومحمدٌ بن الأشعث بباب معاوية، فأذِن للأحنف ثم لمحمد بن الأشعث، فأسرع محمدٌ في مشْيته حتى دَخل قبل الأحنف. فلما رآه مُعاوية قال له: والله إنِّي ما أذنتُ له قبلَك وأنا أُريد أن تَدْخل قبلَه، وإنّا كما نَلي أُموركم كذلك نلي أدبكم، ولا يزيد مُتَزَيِّد في أمره إلا لنقْص يجده في نَفْسه. وقال عبدُالملك ابن مروان: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يَستخِفَّ بهم: العُلماء والسُّلطان والإخْوان.

---

(١) مسدن: مرسل.

(٢) العَصْب: ضرب من برود اليمن، سمي عَصْباً، لأن غزله يُعْصَب، أي يدرج ثم يصبغ ثم يحاك.

(٣) يطونها، أي يطؤونها. ووطي يطي، لغة في وطيء يطأ. والحضرمي: نعل تنسب إلى حضر موت تتخذ بها. والملسن من التعلل: ما فيه طول ولطافة على هيئة اللسان.

فمن استخفَّ بالعُلماء أفسد دينه، ومَن استخفَّ بالسُّلطان أفسد دُنياه، ومن استخفَّ بالإخوان أفسد مروءته.

وقال أبو الزِّناد: كنتُ كاتباً لعُمر بن عبدالعزيز، فكان يكتب إلى عبدالحميد[1] عامله على المدينة في المَظالم فيُراجعه فيها، فكتَب إليه: إنه يُخيّل إليَّ أنِّي لو كتبتُ إليك أن تُعطِي رجلاً شاة، لكتبتَ إليّ: أضأناً أم مَعزاً؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إليَّ: أذكراً أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبت: أصغيراً أم كبيراً؟ فإذا كتبتُ إليك في مَظْلمة فنَفِّذ أمري ولا تراجعني فيها. وكتب أبوجعفر إلى سَلْم بن قُتيبة، يأمره بهدْم دُور مَن خَرج مع إبراهيم بن عبدالله، وعَقْر نخلهم، فكتب إليه: بأيّ ذلك تبدأ، بالدُّور أو بالنَّخل؟ فكتب إليه أبوجعفر: إنِّي لو أمرتك بإفساد تَمرهم، لكتبتَ: بأيّ ذلك نبدأ؟ بالصَّيْحانيّ[2] أم بالبَرْنيّ[3]؟ وعَزله وولّى محمد بن سليمان. ولمحمود الورّاق:

كم قد رأيتَ مَساءةً ... من حيثُ تَطْمعُ أنْ تُسَرّا
ولربما طَلب الفَتى ... لأخيه مَنْفعةً فَضرّا

ودخل عَدِي بن أرطأة على شُرَيح القاضي، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: اسمع منِّي. قال: قُلْ نَسْمَعْ. قال: إني رَجل من أهل الشام. قال: مكانٌ سَحيق. قال: وتزوّجتُ عندكم. قال: بالرِّفاء والبنين. قال: وأردتُ أن أُرَحِّلَها. قال: الرَّجلُ أحقُّ بأهله. قال: وشرَطتُ لها دارها. قال: الشَّرْطُ أَمْلك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلتُ. قال: فعلى مَن حكمتَ؟ قال: على ابن أمّك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك ـ أراد شُريك إقرارَه على نفسه بالشَّرْطِ ـ وكان شريح صاحب تعريض عويص.

---

(١) هو عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، ولي المدينة لعمر بن عبدالعزيز.

(٢) الصيحاني: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة.

(٣) البرني: ضرب من التمر أصفر مدور، وهو من التمور الجيدة. وفي الحديث المرفوع: «**خير تمراتكم البرني يذهب بالداء ولا داء فيه**» وصححه الألباني بمجموع شواهده. انظر الصحيحة ١٨٤٤.

وكان فتىً يُجالس الشَّعْبيّ، وكان كثيرَ الصَّمت، فالتفت إلى الشَّعبيّ، فقال له: إني لأجد في قَفاي حكَّة أفتأمُرني بالحِجامة؟ فقال الشَّعبيُّ: الحمدُ لله الذي حَوّلنا من الفِقْه إلى الحِجامة. قال: وأتى أحمد بن الخصيب بعضُ المتظلّمين يوماً، فأخرج رجْلَه من الرِّكاب فرَكله بها. فقال فيه الشاعر:

قُلْ للخليفةِ يا ابن عمِّ محمدٍ اشْكُل وزيرَك إنَّه ركَّالُ

باب في تحنك الفتى

قِيلَ لعُمَر بن الخطَّاب: إنَّ فُلاناً لا يَعْرف الشَّر. قال: ذلك أَحْرَى أن يَقع فيه. وقال سُفْيان الثَّوريّ: من لم يُحْسن أن يتفتَّى لم يُحسن أن يَتَقَرَّى[1]. وقال عمرو بن العاص[2]: ليس العاقلُ الذي يعرف الخيرَ من الشَّر، إنما العاقلُ الذي يَعرف خيرَ الشَّرَّيْن. ومثل ذلك قول الشاعر:

رَضيتُ ببعضِ الذُّل خوفَ جَميعه كذلك بعضُ الشّر أهونُ من بعضِ

وسُئِل المُغيرة بن شُعبة عن عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقال: كان والله له فَضْلٌ يمنعه من أن يَخدع، وعَقلٌ يَمنعه من أن يَنْخَدِع. قال إياس[3]: لستُ بِخَبّ والخَبُّ لا يَخْدَعُني. وتجادَل إياس والحَسنُ ـ وكان الحسن يرى كلَّ مسلم جائز الشهادة حتى تظَهر عليه سَقطةٌ أو يُجَرِّحه المشهود عليه، وكان إياسٌ لا يَرى ذلك ـ فأقبل رجلٌ إلى الحسن، فقال: إنَّ إياساً رَدّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه، فقال: أبا وائلة، لِمَ رددت شهادة هذا المُسلم؟ فقد قال ﷺ: «من صلَّى إلى قبلتنا فهو

---

(١) التفتي: عمل يعمله الفتيان. والتقرؤ: النسك.

(٢) هذا من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أيضاً هذا من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المُسلم، له مالنا وعليه ماعلينا»[1] فقال له إياسٌ: ياأباسعيد، يقول الله تعالى: ﴿ممن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء﴾[2] وهذا ممن لا نرضاه.

وكان عامرُ بن عبدالله بن الزُّبير في غاية الفَضْل والدِّين، وكان لا يَعْرف الشرّ، فبينا هو جالسٌ في المَسْجد، إذ أُتي بعطَائه، فقام إلى مَنْزله فنَسيه. فلما صار في بَيته ذَكَره، فقال لخادمه: اذهبْ إلى المَسجد فائْتني بعطائي. فقال له: وأين نجده؟ قال: سبحان الله! أوبَقي أحدٌ يأخذُ ما ليس له؟ وقال أيُّوب: مِنْ أصحابي من أرتجي بركةَ دُعائه ولا أقْبل شهادَته. وذُكرتْ فاطمةُ بنت الحسين رضي الله عنهما عند عُمر بن عبدالعزيز وكان لها مُعظِّما، فقيل إنها لا تَعْرِف الشرَّ. فقال عُمر: عدم معرفتها بالشر جَنَّبها الشر.

وكان يستحسنون الحُنْكة للفَتى والصَّبْوة للحَدَث، ويكرهون الشَّيب قبل أوانه، ويُشَبِّهون ذلك بيُبوس الثَّمرة قبل نُضْجها، وأن ذلك لا يَكُون إلا من ضَرر فيها. فأنفع الإخوان مجلساً، وأكرمهم عشرةً، وأشدُّهم حِذقا، وأنبههم نفساً، مَن لم يكن بالشَّاطِر المُتفَتِّك، ولا الزَّاهِد المُتنَسِّك، ولا الماجن المتَظرِّف، ولا العابد المُتقَشِّف، ولكن كما قال الشاعر:

يا هِنْدُ هل لك في شيخٍ فتىً أبداً ... وقد يكونُ شبابُ غَيْرُ فِتْيانِ

وقال آخر:

وفتى وهو قد أناف على الخَمْـ ... ـسِينَ يَلْقاكَ في ثيابِ غُلامِ

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ولفظ البخاري: «**من صَلَّى صَلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته**». انظر كتاب الصلاة / باب فضل استقبال القبلة. وعند النسائي / كتاب الإيمان وشرائعه / صفة المسلم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

وقال حبيب:

كَهْلُ الأناةِ فتى الشَّذاة[١] إذا عَدا ... للرَّوْعِ كان القَشْعَمَ الغِطْرِيفَا[٢]

ومن قولنا في هذا المعنى:

إذا جالسَ الفِتْيانَ ألفيتَه فتىً ... وجالسَ كَهْلَ الناسِ ألفيتَه كهْلَا

ونظيرهُ قول ابن حِطّان:

يوماً يمانٍ لاقيتَ ذا يَمَنٍ ... وإن لَقِيتَ مَعَدِّيّاً فَعَدْنانِي

وقولُ عمران بن حِطّان هذا يحتمل غير هذا المعنى، إلا أن هذا أقربُ إليه وأشبهُ به، لأنه أراد أنه مع اليماني يمانيّ، ومع العدناني عدناني، فيُحتمل أن ذلك لخوف منه أو مُساعدة، وكل ذلك داخلٌ في باب الحُنْكة والحِذْق والتَّجربة.

وقالوا: اصحب البَرَّ للتأسِّي به، والفاجرَ لتتحنَّك به. وقالوا: مَن لم يَصْحب البَرّ والفاجرَ ولم يؤدّبه الرَّخاء والشِّدة مَرَّة، ولم يَخْرج من الظِّل إلى الشَّمس مَرَّة فلا تَرْجُه. ومن هذا قولهم: حَلب فلانٌ الدهرَ أَشْطُره، وشَرِبَ أفاويقَه، إذ فَهِمَ خيرَه وشرَّه، فإذا نَزَلَ به الغِنَى عَرَفه ولم يُبْطره، وإذا نَزَل به البلاء صَبَر له ولم يُنكِره. وقال هُدْبة العُذْري:

ولستُ بمفراح إذا الدَّهرُ سَرَّني ... ولا جازعٍ مِنْ صَرْفه المُتَقَلِّب

ولا أتمنى الشَّرَّ والشرُّ تاركي ... ولكن متى أُحْمَلْ على الشَّرِّ أَرْكَب

وقال عبد العزيز بن زُرارةَ في هذا المعنى:

قد عِشْتُ في الدَّهر أطواراً على طُرُقٍ ... شَتَّى فصادفتُ منه اللِّينَ والفَظَعَا[٣]

كُلًّا بَلوتُ فلا النَّعماء تُبْطِرني ... ولا تخشَّعتُ من لأوائِه جَزَعا

---

(١) الشذاة: الحدة.

(٢) القشعم: الأسد. والغطريف: السيد الشريف.

(٣) رواية هذا البيت في اللسان (مادة فظع):

قد عشت في الناس أطواراً على خلق ... شتى وقاسيت فيه اللين والفظعا

لا يملأ الأمرُ صَدْري قبلَ وَقْعَتِه ... ولا أَضِيقُ به ذَرْعاً إذا وَقَعا

وقال آخر[1]:

فإن تَهْدِمُوا بالغَدْرِ داري فإنّها ... تُراثُ كَريمٍ لا يَخافُ العَواقِبَا
إذا هَمَّ ألقَى بين عَيْنيه عَزْمَه ... وأضْرَبَ عن ذِكْرِ العَواقب جانِبا
ولم يَسْتشِر في أمره غيرَ نَفْسه ... ولم يَرْضَ إلا قائمَ السَّيف صاحِبا
سأغسِلُ عني العارَ بالسَّيف جالباً ... عَلَيَّ قضاءُ الله ما كان جَالِبا

وسُئِلت هند عن معاوية، فقالت: والله لو جُمعت قريشٌ من أقطارها ثم رُمي به في وسطها لخرج من أي أعراضها شاء. وهذا نظير قول الشاعر:

برئت إلى الرحمن مِنْ كل صاحب ... أُصَاحِبُه إلا عِراكَ بن نائلِ
وعِلْمي به بين السِّماطين أنَّه ... سينجو بحقٍّ أو سينجو بباطل

وقال آخر:

لئنْ كنتُ محتاجاً إلى الحِلْم إنّني ... إلى الجَهْلِ في بَعض الأحايين أَحْوَجُ
وما كنتُ أرضَى الجهلَ خِدْناً وصاحباً ... ولكنني أرضَى به حين أُحْرَج
فإن قال قومٌ إنّ فيه سماجةً ... فقد صَدَقوا والذُّلّ بالحُرِّ أَسْمَجُ
ولي فَرَسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَمٌ ... ولي فَرس للجَهْل بالجهل مُسْرَج
فمن شاء تَقْويمي فإني مُقَوَّمٌ ... ومن شاء تَعويجي فإني مُعْوَجُّ

وقال معاوية في سفيان بن عوف الغامدي: هذا الذي لا يُكَفكف من عجلة، ولا يُدْفع في ظَهْره من بُطء، ولا يُضرَب على الأمور ضرْب الجَمل الثَّفَال[2]. وقال الحسنُ ابن هانيء:

---

(١) هو سعد بن ناشب، من بني مازن بن عمرو بن تميم، وكان أصاب دماً فهدم بلال داره.

(٢) الثفال: البطيء.

مَن للجِذَاع إذا المَيدانُ ماطَلَها[١] بشأو[٢] مُطَّلع الغايات قد قَرَحَا[٣]
من لا يُغَضغضُ[٤] منه البُؤسُ أُنْمُلةً ولا يُصَعِّد[٥] أطرافَ الرُّبَى[٦] فَرَحَاً

وقال جرير:

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ[٧]

باب في الرجل النفاع الضرار

يقال: إنه لخرَّاج وَلاّج، وإنه لحُوَّلُ قُلَّبْ، إذا كان مُتصرِّفاً في أموره، نَفّاعاً لأوليائه، ضرَّاراً لأعدائه. وإذا كان على غير ذلك، قيل: مايُحْلِي ولا يُمِرّ، ولا يُعدّ في العِير ولا في النَّفير، ومافيه خَير يُرْجَى ولا شرٌّ يُتَّقى.

وقال حبيب:

ولم أَر نَفْعاً عند من ليس ضَائِراً ولم أَرَ ضَرَّاً عند مَن ليس يَنْفَعُ

وسمع أعرابيٌّ رجلاً يقول: ما أتى فلانٌ بيوم خيرٍ قطُّ. فقال: إنْ لا يكُن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر. وقال الشاعر:

وما فعلت بنو ذُبيانَ خيراً ولا فعلت بنو ذُبيان شرًّا

---

(١) الجذاع: جمع جَذَع (بالتحريك)، وهو الفرس إذا استتم سنتين ودخل في الثالثة. وماطلها الميدان، أي طال عليها.

(٢) كذا في ديوان أبي نواس. والشأو: السبق. والذي في الأصول: «بكل».

(٣) القارح: الفرس إذا تمت أسنانه، وإنما تتم في خمس سنين.

(٤) يغضغض: ينقص.

(٥) يصعد: يرتقي. وفي رواية «يصدع».

(٦) يريد أنه لا يغيره البؤس كما لا يبطره الغنى.

(٧) ابن اللبون: هو من الإبل ما أتى عليه سنتان ودخل في الثالثة فصارت أمه لبوناً، أي ذات لبن، لأنها تكون قد حملت حملاً آخر ووضعته. ولز في قرن: شد به وضيق عليه. والبازل من الإبل: الذي استكمل الثامنة ودخل في التاسعة، وفطر نابه. والقناعيس: جمع قنعاس (بالكسر)، وهو العظيم من الإبل.

وقال آخر[١]:

قَبح الإلهُ عَداوةً لا تُتَّقَى ... وقَرابةً يُدْلَى بها لا تَنفَعُ

وفخر رجل فقال: أبي الذي قتل الملوك، وغَصَب المنابر، وفعل وفعل. فقال له رجل: لكنه أُسِر وقُتل وصُلب. فقال: دَعْني من أسره وقَتْله وصَلْبه، أبوك هل حدّث نفسَه بشيء من هذا قطُّ.

وقال رجل من العرب يذُمّ قومه وأغارت بنو شَيبان على إبله فاستنجدهم، فلم يُنجدوه، فقال فيهم:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلي ... بنُو اللّقيطة من ذُهْل بن شَيْبانَا
إذاً لقام بنَصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عند الحفيظة إن ذو لُوثة لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجِذَيه لهم ... طارُوا إليه زَرافات ووُحْدانا
لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبهم ... في النَّائبات على ما قال بُرْهانا
لكنَّ قَوْمي وإن كانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... ليسُوا من الشرِّ في شيء وإنْ هانا
يَجْزُون من ظُلْم أهل الظُّلم مَغْفِرَةً ... ومن إساءة أَهْل السُّوءِ إحسانا
كأن ربَّك لم يَخْلُقْ لِخَشْيَته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهمُ قوماً إذا رَكِبُوا ... شَنُّوا الإغارَة فُرْساناً ورُكْبانا

ولم يُرد بهذا أنه وَصفهم بالحِلْم ولا بالخَشْية لله، وإنما أراد به الذُلَّ والعجز، وكل من نفع في شيء فقد ضرَّ في شيء. وكذلك قول أشجع بن عمرو:

يَصْطاد أعناقاً بِمُنْصُله[١] ... ويَفُكّ أعْناقاً من الرِّقِّ

وقال آخر:

وليس فَتَى الفِتْيانِ مَن راحَ واغْتَدَى ... لشُرْبِ صَبُوح أو لِشُرْبِ غَبُوقِ[٢]
ولَكِنْ فَتَى الفِتْيانِ مَن راح واغتَدَى ... لِضَرِّ عدوٍّ أو لِنَفْعِ صَدِيق

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي.

(٢) المنصل: السيف.

(٣) الصبوح: ما شرب بالغداة فما دون القائلة. والغبوق: ما شرب بالعشي.

باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم

في كتاب للهنْد: من لم يركب الأهوال لم يَنل الرَّغائب، ومن ترك الأمر الذي لعلّه أن ينال منه حاجَته مخافةَ ما لعلّه يُوقَّاه فليس ببالغٍ جَسيماً، وإن الرجل ذا المُروءة ليكون خاملَ الذِّكْر خافض المنزلة، فتأبى مُروءتُه إلا أن يَسْتَعلي ويَرْتفع، كالشُّعلة من النار التي يَصُونها صاحبها وتأبَى إلا ارتفاعاً. وذو الفضل لا يخفى فضله، وإن أخفاه، كالمِسْك الذي يُختم عليه ثم لا يَمْنَع ذلك رِيحَه من التذكي والظُّهور، ومن قولنا في هذا المعنى:

خُتمتْ فأرةُ مسك[1] ... فأبَتْ إلا التَّذكِّي
ليس يخفى فضل ذي الفضـ ... ـل بزُورٍ وبإفْك
والذي بَرَّز في الفضـ ... ـل غنيٌّ عن مُزكِّي
رُبَّمَا غُمَّ هلالُ الـ ... ـفطر في ليلة شكّ
ثم جَلَّى وجهه النُّو ... رُ فجلَّى كلَّ حَلْك[2]
إنَّ ظَهْر اليَمِّ لا تَرْ ... كَبُهُ من غير فُلْك
ونِظامَ الدُّر لا تَعْـ ... ـقِدُهُ من غير سِلْك
ليسَ يَصْفُو الذَّهب الإبْـ ... ـريزُ إلا بعد سَبْك
هذه جُملة أُمْثا ... لٍ فمن شاء فَيَحْكي
أبطلتْ كلَّ يَمانيٍّ وشاميٍّ ومَكِّي
ليس ذا من صَوغ عَيْـ ... ـنيّ ولا مِن نَسْج عَكِّي[3]

---

(١) فأرة المسك: وعاؤه. (٢) الحلك (بفتحتين، وسَكَّنَ للشِّعر): شدة السواد.

(٣) عيني، يريد أبا إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي الشاعر العيني، نسبة إلى عين التمر، وأكثر شعره حكم وأمثال، وكانت وفاته سنة ١٥٥هـ. (انظر الأنساب للسمعاني). وعَكِّي: نسبة إلى عك، بلد باليمن، ولليمن شهرتها القديمة بنسج الثياب. والظاهر أنه يريد شاعراً يلقب بالعكي.

وقال حبيبٌ الطائي:

أعاذِلَتي ما أخشنَ اللَّيلَ مَرْكباً ... وأخشن منه في المُلِمَّات راكِبُهْ
ذريني وأهوال الزَّمان أُقاسِها ... فأهوالُه العُظْمَى تَليها رغائبُه

وقال كعب بن زهير:

وليس لمن لم يركب الهول بُغْيةٌ ... وليس لرَحْل حطَّهُ الله حامِلُ
إذا أنت لم تُعْرِضْ عن الجهل والخَنَا ... أصبْتَ حَليماً أو أصابَكَ جاهل

وقال الشَّمَّاخ:

فَتىً ليس بالرَّاضي بأدنى معيشةٍ ... ولا في بيوت الحيِّ بالمُتَوِلِّج
فتىً يملأ الشِّيزَي ويُرْوي سِنانَه ... ويَضْرِبُ في رأس الكَميِّ المدَجَّج[1]

وقال امرؤ القَيْس:

فلو أن ما أَسْعَى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّل ... وقد يُدْرِك المجدَ المُؤَثَّل أمثالي

وقال آخر:

لولا شماتةُ أعداء ذَوَيْ حَسَدٍ ... أو أن أنالَ بنفعي من يُرَجِّيني
لما خَطبتُ من الدُّنْيا مَطالبَها ... ولا بذلتُ لها عِرْضي ولا ديني
لكن منافسة الأكفاء تحملني ... على أمورٍ أراها سوف تُرْديني
وكيف لا كيف أنْ أرضى بمنزلة ... لا دينَ عندي ولا دُنْيا تُواتيني

وقال الحُطَيئة في هجائه الزِّبْرقان بن بَدْر:

دَعِ المكارمَ لا ترحل لبُغْيتها ... واقعُدْ فإنَّك أنت الطَّاعِمُ الكاسي

فاستعْدَى عليه عمر بن الخطاب وأسمعه الشعر. فقال: ما أرى مما قال بأساً. قال: والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قطُّ أشدَّ عليَّ منه. فأرسل إلى حَسَّان

---

(١) الشيزي: جفان تسوى من خشب الجوز أو الأبنوس. والكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه، لأنه كمي نفسه، أي سترها بالدرع والبيضة.

فسأله: هل هجاه؟ فقال: ما هجاه، ولكنه سَلَح عليه. وقد أخذ هذا المعنى من الحُطيئة بعضُ المُحدثين فقال:

إني وجدتُ من المكارم حَسْبُكُمْ ... أن تَلْبَسُوا خَزَّ الثِّياب وتَشْبَعُوا
فإذا تُذوكرت المكارمُ مَرّة ... في مجلس أنتم به فتقَنَّعُوا

وقالوا: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن طلب العظائم خاطرَ بعظيمته[1]. وقال يزيدُ بن عبدالملك لما أُتي برأس يزيد بن المُهلّب فنال منه بعضُ جلسائه، فقال: إن يزيد ركبَ عظيماً، وطلب جسيماً، ومات كريماً. وقال بعض الشعراء:

لا تَقْنَعَنَّ ومَطْلبٌ لك مُمْكِنٌ ... فإذا تضايقت المطالبُ فاقْنعِ

ومما جُبل عليه الحُرُّ الكريم، أن لا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملاً فيما هو أسنى منه درجةً وأرفعُ منزلةً؛ ولذلك قال عمر بن عبدالعزيز لدُكين الراجز: إن لي نفساً توّاقة، فإذا بلغك أني صِرْتُ إلى أشرفَ من منزلتي هذه، فبعَيْنٍ ما أَرَينَّك ـ قال له ذلك وهو عامل المدينة لسليمان بن عبدالملك ـ فلما صارت إليه الخلافة قَدِم عليه دُكين، فقال له: أنا كما أعلمتُك أن لي نفساً توّاقة، وإنَّ نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدُّنيا، فلما بلغتها وجدتُها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة. ومن الشاهد لهذا المعنى، أن موسى صلوات الله عليه ـ لما كلمه الله عز وجل تكليماً ـ سأله النظر إليه، إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرفَ من المنزلة التي نالها، فانبسط أملُه إلى ما لا سبيلَ إليه، ليُستدلّ بذلك على أن الحرّ الكريم لا يَقْنع بمنزلةٍ إذا رأى ما هو أشرفُ منها. ومن قولنا في هذا المعنى:

والحُرُّ لا يَكْتفي من نَيْل مكْرُمةٍ ... حتى يَرومَ التي من دُونها العَطَبُ
يَسْعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفَّه رَهَبٌ يَسْتَدْعِه رَغَب
لذاك ما سألَ مُوسى ربّه أرِني ... أنْظُرْ إليكَ وفي تَسْآله عَجَب

---

(١) نسب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بلفظ: «من طلب عظيماً خاطر بعظيمته» وأشار إلى رأسه.

يَبْغي التزيّدَ فيما نال من كرم ... وَهْو النَّجيُّ لديه الوَحْيُ والكُتُبُ

وقال تأبّط شرًّا في ابن عمّ له يَصفه برُكوب الأهوال وبَذْل الأموال:

وإني لَمُهْدٍ من ثنائي فقاصدٌ ... به لابن عم الصِّدْقِ شُمْس بن مالك
أَهُزُّ به في نَدْوَة الحيّ عِطْفَهُ ... كما هَزّ عطفي بالهِجَان الأوارك(١)
قليلُ التَّشكّي للمُهِمّ يُصيبُه ... كثيرُ النَّوى شَتَّى الهَوَى والمسالك
يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسي بغَيرها ... وحيداً ويعْروري ظُهورَ المهالك(٢)
ويَسْبق وفْدَ الرِّيح من حيثُ يَنْتحي ... بمُنْخَرق من شَدِّه المُتَدارك(٣)
إذا خاط عينَيْه كَرَى النَّوْم لم يزل ... له كالِئٌ من قلب شَيْحانَ فاتك(٤)
ويجعل عينيه ربيئةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من جَفْن أَخلَقَ باتك(٥)
إذا هَزَّه في عَظْم قِرْنٍ تَهلَّلت ... نَواجذُ أفواه المَنايا الضّواحك(٦)

وقال غيرُه من الشعراء [بل هي له]:

إذا المرءُ لم يَحْتل وقد جَدَّ جِدُّه ... أضاعَ وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الخطبُ إلا وَهْوَ للقَصْد مبْصِر
فذاك قَريعُ الدّهر ما عاش حُوَّلٌ ... إذا سُدّ منه مِنْخرٌ جاشَ مِنْخرُ(٧)

---

(١) الهجان من الإبل: البيض الكرام. والأوراك: التي اعتادت أكل الأراك.

(٢) الموماة: المفازة. ويعروري: يركب.

(٣) وفد الريح: أولها. والمنخرق: السريع، والشد: العدو. والمتدارك: المتلاحق. يصفه بالخفة والنشاط.

(٤) خاط عينيه الكرى، أي أطبق جفنيه أحدهما على الآخر. والشيحان: الحازم. يصفه بأنه متيقظ حتى إنه إذا نامت عينه لا ينام قلبه.

(٥) ربيئة، أي رقيباً. والسلة: المرة من سَلّ السيف، إذا جرّده. والأخلق: الأملس. والباتك: القاطع.

(٦) التهلل: الضحك.

(٧) قريع الدهر: المجرب للأمور. والحوَّل: البصير بتحويل الأمور.

باب في الحركة والسكون

شَاوَرَ عُتبة بن ربيعة أخاه شيبة بن ربيعة في النُّجْعَة، وقال: إني قد أجْدِبْتُ، ومن أجدب انتجع. فذهبت مثلاً. قال له شيبة: ليس من العزِّ أن تتعرَّض للذل. فذهبت مثلاً. فقال له عتبة: لن يَفرِس الليثُ الطُّلا[1] وهو رابض. فذهبت مثلاً، أخذه حبيب فقال:

أراد بأن يَحْوي الغِنَى وهو وادعٌ ... ولن يَفْرِس الليثُ الطُّلا وهو رابضُ

وقيل لأعشى بكر: إلى كم هذه النُّجعة والاغتراب، ما تَرضى بالخَفْض والدَّعة؟ فقال: لو دامت الشمسُ عليكم لمللتُموها. أخذه حبيبٌ فقال:

وطولُ مُقَامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيه فاغْتَرِب تتجدد
فإني رأيتُ الشمس زِيْدَت محبةً ... إلى الناسْ إذ ليسَتْ عليهم بسَرْمَدِ

قال أبوسعيد أحمد بن عبدالله المكي: سمعت الشافعي يقول: قلت بيتين من الشعر، وأنشدنا:

إني أرى نفسي تتوق إلى مِصْرٍ ... ومن دونها خوض المهامِهِ والقَفْرِ
فوالله ما أدري أللخفضِ والغِنَى ... أُقاد إليها أم أُقاد إلى قَبْرِي

فدخل مصر فمات. وقال موسى بن عمران عليه السلام: لا تذُمُّوا السفر، فإني أدركت فيه ما لم يُدْرك أحدٌ. يريد أن الله عز وجل كلَّمه فيه تكليماً.

وقال المأمون: لا شيء ألذُّ من سفر في كفاية، لأنك في كل يوم تَحُل محلة لم تَحُلَّها، وتُعاشر قوماً لم تُعاشرهم. وقال الشاعر:

لا يَمنعنَّك خَفْضُ العيش في دَعَةٍ ... من أن تُبدِّل أوطاناً بأوطانِ[2]

---

(١) الطلا: الأعناق. ويفرسها: يدقها.

(٢) رواية هذا البيت في عيون الأخبار (ج١ ص٢٣٤):

لا يمنعنك خفض العيش تطلبه ... نزاع شوق إلى أهل وأوطان

تَلْقى بكلّ بلادٍ إنْ حَللْتَ بها ... أهلاً بأهْلٍ وإخواناً بإخوان

مع أن المُقام بالمقام الواحد يُورث المَلالة.

وقال النبيُّ ﷺ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»(١). وقالت الحكماء: لا تُنَال الراحة إلا بالتَّعب، ولا تُدْرك الدَّعة إلا بالنَّصَبْ. وقال حبيب:

بَصُرْتَ بالراحة الكُبرى فلم ترها ... تُنَالُ إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

وقال أيضاً:

على أنَّني لم أَحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً(٢) ... قَرَرْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبَدَّدِ
ولم تُعْطني الأيامُ نوماً مُسَكِّناً ... أَلَذُّ به إلا بنَوْمٍ مُشَرَّد

وقال أيضاً:

وركْبٌ كأطْراف الأسِنَّةِ عرّسُوا(٣) ... على مثلها والليل تَسْطُوا غياهبُه
لأمرٍ عليهم أن تَتِمّ صُدُورُه ... وليس عليهم أنْ تتمّ عواقبُه

وبعدُ؛ فهل يجوز في وَهْم، أو يتمثَّل في عَقْل، أو يصحُّ في قياس، أن يُحصد زَرْع بغير بَذْر، أو تُجْنى ثمرة بغير غَرْس، أو يُورَى زَنْدٌ بغير قَدْح، أو يُثْمِر مال بغير طَلَب. ولهذا قال الخليلُ بن أحمد: لا تصل إلى ما تحتاجُ إليه إلّا بالوُقوف على ما لا تحتاجُ إليه؛ فقال له أبو شَمِر المتكلِّم: فقد احتجتَ إذاً إلى ما لا تحتاج إليه، إذ كنتَ لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا به؛ قال له الخليلُ وَيحك! وهل يَقْطَع السَّيف الحُسامُ إلا بالضَّرْب، أو يَجْري الجَوَادُ إلا بالرَّكْض، أو هل تُنال نهايةٌ أو تُدْرَك غايةٌ إلا بالسعي إليها، والإبضاع نحوَها، وقد يكون الإكْداء مع الكدّ، والخَيْبة مع الهَيْبة.

---

(١) قال السيوطي في الدرر المنتشرة [٢٤٦] رواه البزار والبيهقي في حديث أبي هريرة، وضعفاه. والديلمي من حديث ابن عمر، ورواه ابن عدي في أربعة عشر موضعا من الكامل وضعفها كلها. وقال السخاوي بمجموعها يتقوى الحديث انظر المقاصد الحسنة [٥٣٧] وصححه الألباني انظر صحيح الجامع [٣٥٦٨].

(٢) الوفر: المال الكثير.

(٣) عرسوا: نزلوا ليلا.

وقال الشاعر:

وما زلْتُ أقطع عَرْضَ البلادِ ... من المشرقين إلى المغْربينِ
وأدَّرِعُ الخَوْفَ تحت الدُّجَى ... وأستَصْحِبُ الجَدْيَ والفَرْقَدَيْنِ
وأَطْوي وأنشُرُ ثوْبَ الهُموم ... إلى أن رجعتُ بخُفَّيْ حُنَينْ
إلى كم أكونُ على حالةٍ ... مُقلاً من المال صِفْرَ اليَدَين
فَقِيرَ الصَّديق غنيّ العدوّ ... قليل الجَدَاء[1] عن الوالدين

ومثلُ هذا قليل في كثير، وإنما يُحكم بالأعمّ والأغلب، والنُّجْح مع الطّلب، والحِرمان للعجز أصحب. وقد شرح حبيبٌ هذا المعنى، فقال:

هِمَم الفتى في الأرض أغْصانُ الغِنى ... غُرِست وليستْ كُلَّ حينٍ تُورِقُ

باب التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد

قال النبيُّ ﷺ: «العائد على أهله وولده كالمُجاهد المُرابط في سبيل الله»[2]. وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ [بنفسك ثم] بمن تعول»[3]. وقال

(١) الجداء: الغناء.

(٢) الحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ. وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار».
وعن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «نفقة الرجل على أهله صدقة» أخرجه البخاري / كتاب النفقات، والترمذي / كتاب البر والصلة.
وعن ثوبان أن النبي قال: «أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله». قال أبوقلابة: بدأ بالعيال ثم قال أبوقلابة وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم. أخرجه مسلم واللفظ له / كتاب الزكاة. والإمام أحمد، والترمذي / كتاب البر والصلة. والنسائي / كتاب الزكاة [١٩٦٦].

(٣) رواه الإمام أحمد والطبراني بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه الإمام أحمد والبخاري بنحوه عن حكيم بن حزام.

عمر بن الخطاب: لا يَقْعُدْ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، وتلا قول الله جل وعلا: ﴿**فإذا قُضِيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فَضْلِ الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾[١]. وقال محمد بن إدريس الشافعي: احْرِص على ما ينفعك ودَعْ كلام الناس، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة. ومثله قول مالك بن دينار: من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه. وقال طاهر بن عبدالعزيز: أخبرنا عليُّ بن عبدالعزيز، قال: أنشدنا أبوعُبيد القاسم ابن سلاّم:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما ساق من خير إلى عيـالـه

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يامعشر القُرَّاء، التمسوا الرزق، ولا تكونوا عالة على الناس[٢]. وقال أكثم بن صيفي: من ضيع زاده اتكل على زاد غيره. وقال النبي ﷺ: «**خيركُمُ من لم يَدَعْ آخرته لدنياه ولا دُنْيَاهُ لآخرته**»[٣] وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً[٤].

وقد جعل الله طلب الرزق مفروضاً على الخلق كله، من الإنس والجن والطير والهوام، منهم بتَعْليم، ومنهم بإلهام، وأهل التحصيل والنظر من الناس يَطْلبونه بأحسن وُجوهه من التصرّف والتحرز، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السُّؤال والاتكال والخِلاَبة[٥] والاحتيال.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٢) رواه الهندي بنحوه وقال: رواه العسكري في المواعظ / كنز العمال ١٥٨/١٦ [٤٤٢٠٠].

(٣) أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال: هذا حديث لا يصح ٢/٥٨٩ [٩٦٧]. وقال الألباني: موضوع. انظر الضعيفة [٥٠١] وتكملة نص الحديث «**ولم يكن كلًّا على الناس**».

(٤) ينسب هذا الكلام لابنه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخراك كأنك تموت غداً» وقال الشيخ الألباني: لا أصل له مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وإن اشتهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة. انظر الضعيفة [٨].

(٥) الخلابة: الخداع.

باب في فضل المال

قال الله تعالى: ﴿المالُ والبَنُونَ زينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خيرٌ عند ربِّك ثَواباً وخيرٌ أملاً﴾(١). وقال النبي ﷺ للمُجاشعي: «إن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك خُلُق فلك مُروءة، وإن كان لك دين فلك كَرم»(٢). وقال عمر بن الخطاب: حَسَبُ الرجل مالُه، وكرَمُهُ دينه، ومُروءتُهُ خُلُقه(٣).

وفي كتاب الأدب للجاحظ: اعلم أن تَثْمير المال آلةٌ للمكارم، وعَوْنٌ على الدِّين، وتـأليفٌ للإخـوان، وأن من فقد المال قَلَّت الرَّغبةُ إليه والرَّهبة منه، ومَن لم يكن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) أورد ابـن حجـر فـي الفتـح حديثـاً عـن سمـرة عـن النبـي ﷺ قـال: «الحسـب المـال، والكـرم التقوى» قال ابن حجر: أخرجه أحمد والترمذي وصححه هو والحاكم. فتح الباري ٩/١٣٥ كتاب النكاح.
وأورد السخـاوي حديث محمـد بن سلام قال: «بينما عمر بن الخطاب يمشي ورجل يخطر بين يديـه ويقول: أنا ابن بطحاء مكه كديها فكداها، فقال عمر: إن يكن لك دين فلك كرم وإن يكن لك عقل فلك مروءة وإن يكن لك مال فلك شرف وإلا فأنت والحمار سواء».
رواه العسكري والخرائطي قاله السخاوي انظر المقاصد الحسنة [٧٩٨].

(٣) أورده ابن الجوزي عن عمر بلفظ «حَسَبُ الرجل دينه» غريب الحديث ١/٢١٢ وابن عبدالبر في بهجة المجالس ٢/٦٤٢.
وقـال السخـاوي: وهـو في المـوطـأ عن عمـر من قولـه. وكـذا هو عنـد العسكري من حديث حسان بن فائد عن عمر أنه قال: الكرم التقوى والحسب المال لست بخير من فارسي ولا نبطي إلا بتقوى.. المقاصد الحسنة [٧٩٨].
وقال العجلوني: ولابن أبي الدنيا في العقل عن عمر بن الخطاب أنه ذكر عنده الحسب فقال: حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه. انظر كشف الخفا [١٩٢٤].

بمَوْضع رَغْبة ولا رَهْبة استهان الناسُ به، فاجهد جهدك كلَّه في أن تكون القلوب مُعَلَّقة منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا. وقال حكيم لابنه: يا بُنيّ، عليك بطلب المال، فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذلٌّ في قلب عدوك لكفى.

وقال عبدالله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال. وكان سعد بن عبادة يقول: اللهم ارزقني جدّاً ومجداً، فإنه لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. وقالت الحكماء: لا خير فيمن لا يجمع المال يصُون به عرْضه، ويَحْمي به مُروءته، ويصل به رحمه. وقال عبدالرحمن ابن عوف: يا حَبَّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي. وقال سفيان الثوري المال سلاح المؤمن في هذا الزمان.

وقال النبي ﷺ: «**نعم العون على طاعة الله الغنى، ونعم السُّلَّم إلى طاعة الله الغنى**» وتلا: ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجُلهم**﴾»(١)، وقوله: ﴿**فقلت استغفروا ربَّكم إنه كان غفّاراً يُرسل السَّماءَ عليكم مِدْرَاراً، ويُمْدِدْكم بأموالٍ وبنين**﴾»(٢).

وقال خالد بن صَفوان لابنه: يا بُنَيَّ، أوصيك باثنتين، لن تزال بخَيْر ما تمسَّكت بهما: دِرْهمك لمعاشك، ودِينك لمعادك. وقال عُروة بن الوَرْد:

ذَريني للغِنَى أَسْعَى فإنِّي ... رأيتُ النَّاس شرُّهُمُ الفقيرُ
وأَحقَرُهُمْ وأهونُهم عليهم ... وإن أمْسَى له حَسَبٌ وخَيْر

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٦٦.

(٢) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ ولكن بلفظ: «نعم العون على تقوى الله المال» قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر، ورواه أبوالقاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلاً. انظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين [٣٣٨٩]. وروى الإمام أحمد (٤/٢٠٢) والحاكم (٢/٢) وغيرهما عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا عمرو نعِمّا بالمال الصالح للرجل الصالح**» قال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الألباني إسناده صحيح [المشكاة ٣٧٥٦].

يُباعِدُهُ القريبُ وتزْدَريه ... حليلتُه وينهرُهُ الصَّغير
وتُلْفي ذا الغنى وله جَلالٌ ... يكادُ فؤاد صاحبه يَطير
قليلُ ذَنْبُه والذَّنْبُ جَمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غفور

وقال آخر:

سأكْسِبُ مالاً أو أموتَ ببَلدة ... يَقِلُّ بها قَطْرُ الدُّموع على قَبْري

وقال آخر:

سأعمل نصَّ العيس[1] حتى يَكُفَّني ... غِنَى المال يوماً أو غِنَى الحَدَثان
فَلَلْمَوتُ خيرٌ من حياة يُرى بها ... على المَرْء بالإقلال وسْمُ هَوَانِ
إذا قال لم يُسْمع لِحُسْن مَقالِه ... وإن لم يَقُل قالوا عَديمُ بَيَانِ
كأن الغِنَى عن أَهْله ـ بُورك الغِنَى ـ ... بغَيْرِ لِسانٍ ناطقٌ بلسانِ

الرِّياشي قال: أنشدنا أبوبكر بن عَيَّاش:

حَيْرانَ يَعلم أنّ المالَ ساقَ له ... ما لم يَسُقْهُ له دينٌ ولا خُلقُ
لولا ثلاثون ألفاً سُقْتها بدَرَاً ... إلى ثلاثين ألفاً ضاقت الطُّرق
فمن يَكُن عن كرام الناس يَسْألني ... فأكْرمُ الناس مَن كانت له وَرِق

وقال آخر:

أجَلّكَ قومٌ حين صِرْتَ إلى الغِنَى ... وكلُّ غَنِيٍّ في العُيون جَليلُ
ولو كُنْتَ ذا عقل[2] ولم تُؤْتَ ثروَةً ... ذَلَلْتَ لدَيهم والفقيرُ ذليل

وقال محمودٌ الورَّاق:

أرى كلَّ ذي مالٍ يُبَرُّ لماله ... وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فَضْلُ
فشرِّف ذَوي الأموال حيثُ لقيتَهُم ... فقولهم قولٌ وفعْلُهُمُ فِعْلُ

---

(١) نص العيس: أقصى ما عندها من سير.

(٢) في الأصول «فقر». والتصويب عن عيون الأخبار.

وأنشد أبو مُحَلِّم لرجل من ولد طَلِبَة بن قَيس بن عاصم:

وكنتُ إذا خاصمتُ خَصْماً كَبَبْتُه ... على الوَجْه حتى خاصَمَتْني الدَّراهِمُ
فلما تنازعنا الخصومة غُلِّبت ... عليّ وقالوا: قُمْ فإنك ظالم

وأنشد الرِّياشي:

لم يبق من طَلَب الغِنَى ... إلا التعرُّض للحُتُوف
فلأقْذِفَنَّ بمهجتي ... بين الأسنَّة والسُّيوف
ولأطْلُبَنَّ ولو رأيـ ... ـتُ الموت يلمعُ في الصُّفوف

وكان لأحيحة بن الجُلَاح بالزَّوْراء[1] ثلثمائة ناضح[2]، فدخل بستاناً له، فمرَّ بتمرة فلقطها فعُوتب في ذلك، فقال: تمرة إلى تمرة تمرات، وجمل إلى جمل ذَوْد[3]. ثم أنشأ يقول:

إني مُقيمٌ على الزَّوْراء أعْمُرُها ... إن الحبيب إلى[4] الإخوان ذو المالِ
فلا يَغُرَّنْكَ ذو قُرْبى وذو نَسبٍ ... من ابن عمّ ومن عمّ ومن خال
كلُّ النداء إذا ناديتُ يَخْذُلني ... إلا نِدَائي إذا ناديتُ يا مالي

ومن قولنا في هذا المعنى:

دَعْني أَصُنْ حُرَّ وَجْهي عن إذالته ... وإن تَغرَّبتُ عن أهلي وعن وَلَدي
قالوا نأيتَ عن الإخوان قلتُ لهم ... مالي أَخٌ غير ما تُطْوَى عليه يَدي

كان الرُّمَاحِس بن حَفْصة بن قَيْس وابنُ عمٍّ له يُدْعى رَبيعة بن الوَرْد يَسْكُنان الأُردُن، وكان رَبيعة بن الوَرْد مُوسِراً، والرُّمَاحِسُ مُعْسِراً كثيراً ما يَشْكوا إليه الحاجة ويَعْطف عليه ربيعة بعض العَطْف، فلما أكثر عليه كَتب إليه:

إذا المَرْء لم يَطْلُب معاشاً لنَفْسه ... شكا الفَقْرَ أَوْ لامَ الصَّدِيق فأكْثرا

---

(١) الزوراء: أرض لأحيحة هذا سميت ببئر كانت فيها.

(٢) الناضح: البعير أو الثور أو الحمار الذي يستقى عليه الماء.

(٣) الذود: الإبل من الثلاث إلى التسع؛ وقيل غير ذلك.

(٤) كذا في معجم البلدان: عند الكلام على الزوراء. والذي في سائر الأصول: «إنَّ الكريم على».

وصار عَلَى الأَدْنَيْنِ كَلاًّ وأَوْشَكت ... صِلاتُ ذَوي القُرْبَى له أن تَنَكَّرا
فَسِرْ في بِلاَد الله والْتَمس الغِنَى ... تَعِشْ ذا يَسَارٍ أو تموتَ فَتُعْذَرا
فما طالبُ الحاجات مِنْ حيثُ تُبتغى ... من المال إلاَّ مَنْ أَجَدَّ وشَمَّرا
ولا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بدونٍ ولا تَنَمْ ... وكيف يَنامِ الليلَ من كان مُعْسِرا

وقال بعض الحُكماء: المالُ يُوَقِّر الدَّنِيء والفَقْر يُذِلُّ السَّنِي. وأنْشد:

أَرَى ذا الغِنَى في النَّاس يَسْعَون حولَه ... فإنْ قال قولاً تابَعُوه وصَدَّقُوا
فذلك دَأْبُ النَّاسِ ما كان ذا غِنىً ... فإنْ زال عنه المالُ يوماً تَفَرَّقوا

وأنشد:

ما النَّاس إلا مع الدُّنيا وصاحبها ... فحيثُما انقلبتْ يوماً به انقلَبُوا
يُعَظِّمون أَخا الدُّنيا فإن وَثَبتْ ... يوماً عليه بما لا يَشْتَهي وَثَبُوا

صنوف المال

قال مُعاوية لصَعْصَعة بن صُوحان: إنما أنت هاتف بلسانك لا تَنْظُر في أَوَد الكلام ولا في استقامته، فإن كنت تَنْظُر في ذلك فأَخْبرني عن أفضل المال. فقال: والله يا أمير المؤمنين إني لأدع الكلامَ حتى يَخْتمر في صَدْري، فما أُرْهف به[1] ولا أتَلَهَّق[2] فيه، حتى أُقيم أَوَده، وأُحَرِّر مَتْنه. وإن أفضلَ المال لَبُرَّةٌ[3] سَمْراء في تُرْبة غَبْراء، أو نَعْجَة صَفْراء في رَوْضة خضراء، أو عَيْنٌ خَرَّارة في أرض خَوَّارة[4]. قال معاوية: لله أنت! فأين الذَّهب والفِضَّة؟ قال: حَجَران

(١) أرهف به، أي لا أركب البديهة ولا أقطع بشيء قبل أن أتأمله وأروى فيه. انظر لسان العرب مادة رهف.

(٢) التلهق في الكلام: التقعر فيه.

(٣) البرة: واحدة البر، وهو الحنطة.

(٤) أرض خوارة: لينة سهلة.

يَصْطكان، إن أقبلتَ عليهما نَفدا، وإن تركتَهما لم يزيدا. وقيل لأعْرابيَّة: ما تَقُولين في مائة من المَعز؟ قالت: قُنيً؛ قيل لها: فمائة من الضّأن؟ قالت: غِنيً؟ قيل لها: فمائة من الإبل؟ قالت: مُنيً. وقال عبدالله بن الحسن: غَلّةُ الدُّور مسألة، وغَلّة النَّخل كَفاف، وغَلة الحبّ مِلْك.

وفي الحديث: «**أفضل أموالكم فرسٌ في بطنها فرس يَتْبعها فرس، [وعَيْنٌ ساهرة لعَيْن نائمة]**»[1]. وأنشد فَرج بن سلاّم لبعض العراقيين:

ولقد أقولُ لحاجب نُصْحاً له ... خَلِّ العُروض وبِعْ لنا أرْضا
إني رأيتُ الأرض يَبقى نَفْعُها ... والمال يأكل بعضه بعضا
واحذَرْ أُناساً يُظْهرون محبَّة ... وعُيونُهم وقُلوبُهم مَرْضَى
حتى إذا أمكنتَهم من فُرْصة ... تركوا الخداع وأظهروا البُغْضا

تدبير المال

قالوا: لا مالَ لأخرَق، ولا عَيْلة على مُصلح، وخيرُ المال ما أطعمك لا ما أطعمتَه. وقال صاحبُ كليلة ودِمْنة: لِيُنْفق ذو المال مالَه في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد الآخرة، وفي مُصانعة السُّلطان إن أراد الذِّكْر، وفي النِّساء إن أراد نعيم العيش. وقال: إنَّ صاحب الدنيا يَطْلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة؛ فأما الثلاثة التي تُطْلَب: فالسَّعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد إلى الآخرة. وأما الأربعة التي تُدرك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وُجوهه، وحُسْن القيام عليه، ثم التَّثْمير له، ثم إنْفاقه فيما يُصْلح المَعيشة

---

(١) أول الحديث لم أقف عليه. وما بين القوسين أورده ابن الأثير بلفظ: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة». أراد عين الماء التي تجري ولا تنقطع ليلاً ونهاراً وعين صاحبها نائمة، فجعل السهر مثلاً لجريها. والله أعلم. انظر ابن الأثير / النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٣٣١، وانظر الماوردي / أدب الدنيا والدين. وانظر ابن الجوزي / صفة الصفوة ١/٢٠٥.

ويُرضي الأهل والإخوان ويعود في الآخرة نفعه؛ فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يُدْرك شيئاً من هذه الثلاثة؛ إن لم يَكتسب لم يكن له مالٌ يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يُحسن القيام عليه يوشك أن يفْنى ويبقى بلا مال، وإن هو أنفقه ولم يثمِّره لم تمنعه قلةُ الإنفاق من سرعة النفاد، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغُبَار، ثم هو مع ذلك سريعٌ نفاده؛ وإن هو اكتسب وأصلح وثمَّر ولم يُنفق الأموال في أبوابها كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك مالَه من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء في الموضع الذي تنضَب فيه المياه، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه مَصَلَ وسَالَ من نواحيه، فيذهب المال ضياعاً. وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفُوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَوَامَا**﴾[1] وقوله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كل البَسْط فتقعُدَ مَلُوماً محسُوراً**﴾[2].

ونظر عبدالله بن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال له: إنه ليس لك حتى يخرُج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى ينفقه ويستفيد غيره مكانه.

وقال الحطيئة:

مُفِيدٌ ومِتْلَافٌ إذا ماسألتَه ... تَهلَّل وأهتزّ أهتزازَ المُهَنَّدِ

وقال مُسْلِم بن الوَليد:

لا يعرف المال إلا رَيْث يُنْفقه ... أو يومَ يجمعه للنَّهب والبَدَدِ

وقال آخر:

*** مُهْلِكُ مالٍ ومُفيدُ مال ***

وقال سُفيان الثَّوري: من كان في يده شيءٌ فليُصْلِحْه، فإنه في زمان إن احتاج فيه، كان أولَ ما يَبْذُله دينُه. وقال المُتلمِّس:

وحَبْسُ المالِ أيْسَرُ من بُغَاهُ ... وضَرْبٍ في البلاد بغَيْرِ زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه ... ولا يبقى الكثيرُ مع الفَساد

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

سَعْد القَصِير قال: وَلاّني عُتْبة أموالَه بالحِجاز، فلما ودّعته، قال لي: يا سعد، تعاهد صغير مالي فيكثُر، ولا تُضيِّع كثيره فيصَغُر، فإنه ليس يشغلني كثير مالي عن إصلاح قليله، ولا يمنعني قليلُ ما في يدي عن الصَّبر على كثير مما ينُوبني. قال: فقدِمْت المدينة فحدّثت بها رجالاتِ قريش، ففرَّقوا بها الكُتب على الوُكلاء.

الإقلال

قال أَرِسْطاطاليس: الغِنَى في الغُرْبة وَطن، والمقِلُّ في أهله غريب. أخذه الشاعرُ فقال:

لَعَمْرُك ما الغريبُ بذي التنائي ... ولكنّ المُقِلَّ هو الغريبُ
إذا ما المرءُ أعْوزَ ضاقَ ذَرْعاً ... بحاجته وأبعدَهُ القريب

وقال إبراهيم الشَّيباني: رأيتُ في جدار من جُدُر بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذَّهب:

وكُلّ مُقِلٍّ حين يَغْدو لحاجةٍ ... إلى كُلِّ مَن يَلْقى من الناس مُذْنِبُ
وكل بَنُو عَمِّي يقولون مرحباً ... فلما رأَوْني مُقْتِراً ماتَ مَرْحَبُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

أعاذِلَ قد ألمتِ وَيكِ فلُومي ... وما بَلَغ الإشْراكُ ذَنْبَ عَديمِ
لقد أسقَطتْ حقي عليك صبابتي ... كما أسقط الإفْلاسُ حقَّ غَريم
وأعْذَرُ ما أدْمى الجُفُونَ من البُكا ... كريمٌ رأى الدُّنيا بكفٍّ لَئِيم[1]
أرى كل فَدْمٍ[2] قد تَبَحْبَح في الغنى ... وذو الظَّرف لا تَلْقاه غيرَ عَديم[3]

---

(١) يقول: إن رؤية الكريم الدنيا يملكها اللئيم، هو أقوى ما يعتذر به عن حزنه وبكائه.
(٢) الفِدْم: العيي الأحمق.
(٣) في الشعر عيب وهو الإيطاء، وهو تكرير القافية لفظاً ومعنى.

وقال الحسن بن هانيء:

الحمدُ لله ليس لي نَشَبٌ ... فَخَفَّ ظَهْري ومَلَّني وَلَدي
من نَظَرتْ عينهُ إليَّ فَقَد ... أحاطَ عِلْماً بما حَوَته يَدي

وكان أبو الشَّمَقْمق الشاعر أديباً ظَريفاً مُحارَفاً[1] صُعْلوكاً مُتبرِّماً، قد لَزم بيته في أطْمار مَسْحوقة، وكان إذا استَفْتح عليه أحدٌ بابَه خرج فَنَظر من فُرَج الباب، فإن أعجبه الواقفُ فَتح له، وإلاَّ سَكَت عنه. فأقبل إليه بعضُ إخوانه فدخل عليه، فلما رأى سُوء حاله، قال له: أبْشر أباالشَّمَقْمق، فإنّا رَوَينا في بَعض الحديث أنّ العارين في الدنيا هم الكاسُون يومَ القيامة[2]. قال: إن كان والله ما تقول حقًّا لأكونَنَّ بَزَّازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول:

أنا في حالٍ تعالى اللـ ... ـهُ ربي أيّ حالِ
ولقد أهزلتُ حتى ... محت الشَّمسُ خيالي
مَن رَأى شَيْئاً مُحالاً ... فأنا عَيْنُ المُحال
ليس لي شيء إذا قيـ ... ـل لِمَنْ ذا قلتُ ذا لي
ولقدَ أفلستُ حتّى ... حَلَّ أكْلي لعيالي
لو أرَى في النَّاس حُرًّا ... لَمْ أكن في ذا المِثال

وقال أيضاً:

أتُراني أُرَى من الدَّهر يوماً ... ليَ فيه مَطيَّةٌ غيرُ رِجْلي
كُلّما كُنتُ في جميع فقالوا ... قَرِّبُوا للرَّحيل قَرَّبتُ نَعْلي
حيثُما كنتُ لا أُخَلِّف رَحْلا ... مَن رآني فقد رآني ورَحْلي

وقال أيضاً:

لو قد رأيتَ سرَيري كنتَ تَرْحمني ... الله يَعلم مالي فيه تَلْبيسُ[3]

---

(١) المحارف: المحدود المحروم، وقيل هو الذي لا يصيب خيراً من وجه توجه له.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) تلبيس، أي ليس عنده شيء مما يكسو به السرير ويلبسه إياه، كالملاءة والحشية ونحوهما.

والله يَعلم مالي فيه شابكةٌ ... إلا الحصيرة والأطْمار والدِّيْسُ[1]

وقال أيضاً:

بَرَزتُ من المَنازل والقِباب ... فلم يَعْسرُ على أحدٍ حِجَابي
فمنزلي الفضاءُ وسقفُ بَيْتي ... سماءُ الله أو قطع السَّحاب
فأنتَ إذا أردتَ دَخلتَ بَيتي ... عليّ مُسَلماً من غَيْر باب
لأنِّي لم أجد مِصْرَاعَ باب ... يكونُ من السَّحاب إلى التُّراب
ولا انشَقَّ الثَّرَى عن عُود تَخْتٍ[2] ... أؤمِّل أنْ أشُدّ به ثِيابي
ولا خِفتُ الإبَاقَ على عَبيدي ... ولا خَفْتُ الهلاك على دَوَابي
ولا حاسبْتُ يوماً قَهْرماناً ... مُحاسبةً فأغْلَظ في حسابي
وفي ذا راحةٌ وفَراغُ بالٍ ... فَدابُ الدَّهرِ ذا أبداً ودَابي

وفي كتاب للهِنْد[3]: ما التَّبَع والإخوان والأهلُ والأصدقاء والأعوان والحَشم إلا مع المال، وما أرى المُروءة يُظهرها إلا المال، ولا الرَّأيَ والقُوّة إلا بالمال، ووجدتُ مَن لا مالَ له إذا أراد أن يَتناول أمراً قَعد به العُدْم، فيبقى مُقَصِّراً عما أراد، كالماء الذي يَبْقى في الأوْدية من مَطر الصَّيف فلا يَجْرى إلى بحر ولا نهر، بل يَبْقى مكانَه حتى تَنشَفَه الأرضُ؛ ووجدتُ مَن لا إخوانَ له لا أهلَ له، ومَن لا وَلد له لا ذِكر له، ومن لا عَقْل له لا دُنيا له ولا آخرةَ له، ومَن لا مال له لا شيءَ له؛ لأن الرجل إذا افتقر رَفَضَه إخوانُه وقَطعه ذوو رَحمه، وربما اضطرتْه الحاجةُ لِنفْسه وعياله إلى التماس الرِّزق بما يُغَرِّر فيه بدينه ودنُياه، فإذا هو قد خَسِر الدُّنيا والآخرةَ، فلا شيء أشدُّ من الفقر. والشَّجَرةُ النابتة على الطريق المأكولة من كلِّ جانب أمْثَلُ حالاً من الفقير المُحتاج إلى ما في أيْدِي الناس، والفَقْرُ داعٍ صاحِبَه إلى مقْت الناس، ومُتْلِفٌ للعَقل والمُروءة، ومُذْهِب للعِلْم والأدب، ومَعْدنٌ للتُّهمة، ومَجْمَعٌ للبَلايا. ووجدتُ الرجلَ إذا افتقر

---

(١) شابكة، أي شيء مضموم بعضه إلى بعض. والديس: هو المعروف في مصر «بالسمار».
(٢) التخت: وعاء تصان فيه الثياب. أو لعله «نحت»، أي منحوت مُسَوّى.
(٣) انظر كليلة ودمنة (ص ١٣٤ طبعة شيخو).

أساء به الظنَّ من كان له مُؤْتمناً، وليس من خَصْلة هي للغنيِّ مَدْح وزَيْن إلا وهي للفَقير ذَمٌّ وشَيْن، فإن كان شُجاعاً قيل أهْوج، وإن كان جَواداً قيل مُفْسد، وإن كان حَليماً قيل ضَعيف؛ وإن كان وَقُوراً قيل بليد، وإن كان صَمُوتاً قيل عَييّ، وإن كان بليغاً قيل مِهْذار. فالموت أهونُ من الفقر الذي يَضْطر صاحبَه إلى المسألة، ولاسيَّما مسألة اللئام؛ فإنَّ الكريم لو كُلِّف أن يُدخل يده في فَم تِنِّين ويُخرجَ منه سُمًّا فيَبْتَلِعَه، كان أخفَّ عليه من مسألة البَخيل اللئيم.

السؤال

قال النبيُّ ﷺ: «**لأنْ يأخُذ أحدُكم أَحْبُلَه فيَحْتطب بها على ظَهره أهونُ عليه من أن يأتي رجلاً أعطاهُ الله من فضله فيسألَه، أعْطاهُ أو مَنَعَه**»(١). وقال: «**من فَتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر**»(٢). وقال أكثمُ بن صيفي: كلُّ سؤال وإن قَلَّ أكثر من كُلِّ نَوال وإنْ جلَّ. ورأى عليُّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه رجلاً يسأل بعرفات فقَنَّعَه بالسَّوط، وقال: ويلك! أفي مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله؟(٣).

وقال عبدالله بن عباس: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يَشْهَدُون جِنازةً، ولا يَحضرُون جُمعة، وإذا اجتمع الناسُ في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما في أيديهم. وقال النُّعمان بن المنذر: من سأل فوق حقِّه استحقَّ الحِرمان، ومن ألحف في مسألته استحقَّ المطل، والرِّفق يُمْن، والخُرْق شُؤْم، وخير السَّخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو مع المقدرة. وقال شريح: من سأل حاجة

---

(١) الحديث بمعناه في الصحيحين. ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يحتطب الرجل على ظهره فيبيعه فيأكل خير له من أن يسأل**» كتاب الزكاة.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) رواه رزين. قاله الخطيب التبريزي / مشكاة المصابيح [١٨٥٥].

فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها المسئول استعبده بها، وإن ردَّه عنها رجَع كلاهما ذليلاً: هذا بذُلِّ البُخْل، وذاك بذُلِّ الرَّد. وقال حبيب:

ذُلّ السُّؤال شَجَىً في الحَلْق مُعْترضٌ ... من دونه شَرَقٌ من تحته[1] جَرضُ[2]
ما ماءُ كفِّك إن جَادَتْ وإن بَخِلَتْ ... من مَاءِ وَجْهيَ إن أفنيْتُه عِوَضُ

الخُشَني قال: قال أبوغَسّان: أخبرني أبوزيد قال: سأل سائلٌ بمسجد الكوفة وقتَ الظهر فلم يُعْطَ شيئاً، فقال: اللهم إنّك بحاجتي عالم لا تُعَلَّم، أنت الذي لا يُعْوزك نائل، ولا يُحفيك[3] سائل، ولا يَبْلغ مَدْحَك قائل، أسألك صبراً جميلاً، وفَرَجاً قريباً، وبصَراً بالهُدى، وقُوَّة فيما تُحب وتَرْضى. فتبادَروا إليه يُعْطونه، فقال: والله لارَزأتكم الليلةَ شيئاً، وقد رفَعْتُ حاجتي إلى الله، ثم أنشأ يقول:

ما نالَ باذلُ وَجْهه بسُؤاله ... عِوَضاً ولسو نال الغِنى بسُؤالِ
وإذا السَّوَالَ مع السُّؤالِ وَزَنْتَه ... رجَحَ السؤالُ وشَالَ كلَّ نَوالِ

وقال مُسْلم بنُ الوليد:

سلِ الناسَ إني سائلُ الله وَحدَه ... وصائنُ عِرْضي عن فُلانٍ وعن فُلِ[4]

وقال عَبيْد بن الأبرص:

مَنْ يسْأَل الناس يَحْرموه ... وسائلُ الله لا يَخيبُ

وقال ابن أبي حازم:

لَطَيُّ يسومٍ ولَيْلتَيْنِ ... ولُبْس ثَوْبين باليَيْنِ
إني وإن كنتُ ذا عيَالٍ ... قَليلَ مالٍ كثيرَ دَيْن
لأحمَدُ الله حين صارتْ ... حوائجي بَيْنَهُ وبَيْني

ومن قولنا في هذا المعنى:

سؤالُ الناس مِفْتَاحُ عتيدُ ... لِبَاب الفَقْرِ فالطُف في السُّؤالِ

---

(١) كذا في ديوان أبي تمام. والذي في سائر الأصول: «خلفه». مكان «تحته».
(٢) الجرض: ابتلاع الريق بجهد.
(٣) يقال: أحفى فلان فلاناً، إذا برح به في الإلحاف عليه وأجهده.
(٤) فل: أي فلان.

ورَوَى أشعبُ الطَّمَّاع عن عبدالله بن عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَحْشُرُ الله عز وجل يوم القيامة قوماً عاريةً وجوههم قد أذهب حياءَها كثرةُ السؤال**»(١).

سؤال السائل من السائل

مدح أبو الشَّمَقْمق مروان بن أبي حفصة، فقال له: أبا الشَّمقمق، أنت شاعرٌ وأنا شاعر، وغايتنا كلّنا السؤال. وذكر أعرابيٌّ رجلاً بالسُّؤال، فقال: إنه أسألُ من ذي عَصَوَين. وقال حبيب:

لم يَخْلُق الرحمنُ أحمقَ لِحْيةً ... من سائلٍ يَرْجو الغِنَى من سائلِ

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر النّحويّ قال: قَدِمْتُ من سَفر، فدخل عليّ ذو الرُّمة الشاعر، فعرضتُ أن أعطيه شيئاً، فقال: كلا أنا وأنتَ نأخذ ولا نُعْطي.

الشيب

قال قيسُ بن عاصم: الشيبُ خِطَامُ المَنيَّة. وقال غيرُه: الشيبُ نذيرُ الموت. وقال النُّميريّ: الشيبُ عُنوان الكِبَر. وقال المُعْتَمر بن سُليمان: الشيبُ مَوت الشّعَر، ومَوت الشّعَر عِلّة لِمَوت البَشر. وقال أعرابيّ: كنتُ أُنكِر البَيْضاء فصِرْتُ أُنكِر السَّوداء، فيا خَيرَ مَبْدول ويا شرَّ بَذَل(٢).

وقيل للنبيّ ﷺ: عَجِل عليك الشّيبُ يارسولَ الله! قال: «**شَيَّبَتْني هُود**

---

(١) ذكر الخطيب البغدادي أن أشعب قال: أتيت سالم بن عبدالله أسأله، فأشرف عليَّ من خوخة له فقال لي: ويلك يا أشعب لا تسَلْ، فإن أبي حدثني عن رسول الله ﷺ قال: «**ليجيئن أقوام يوم القيامة ليس في وجوههم مزعة لحم**» انظر تاريخ بغداد ٧/ ٣٩ وأورد ابن حجر أن الأزدي قال عن أشعب: لا يُكتب حديثه. انظر ميزان الاعتدال ١/ ٦٦.

(٢) في عيون الأخبار: «فيا خير بذل ويا شر مبذول».

وأخواتُها»[١]. وقيل لعبدالملك بن مروان: عَجِل عليك الشيبُ يا أميرَ المؤمنين! قال: شَيَّبني ارتقاء المنابر وتَوَقُّع اللحن. وقيل لرجل من الشُّعراء: عَجِل عليك الشّيبُ! فقال: وكيف لا يَعْجَل وأنا أَعْصرُ قَلْبي في عمل لا يُرْجَى ثَوابُه، ولا يُؤْمَن عِقابُه.

وقال حبيبٌ الطائي:

غَدَا الشَّيْبُ مُخْتَطًّا بفَوْدِيَ خُطَّةً ... طريقُ الرَّدَى منها إلى النَّفْس مَهْيَعُ[٢]
هُو الزَّوْرُ[٣] يُجْفَى والمُعاشر يُجْتوى ... وذو الإلْف يُقْلَى والجديدُ يَرَقَّعُ
له مَنْظر في العَيْنِ أبيضُ ناصعٌ ... ولكنه في القَلْب أَسْود أَسْفَع

وقال محمود الورّاق:

بَكيتُ لُقرْب الأجلْ ... وبُعْدِ فَواتِ الأملْ
ووَافد شَيْب طَرَا ... بعَقْب شباب رَحَلْ
شَبَابٌ كأنْ لمْ يَكُن ... وشَيْبٌ كأنْ لم يزَل
طَواك بَشِيرُ البَقا ... وجاء بَشِيرُ الأجَل

وقال آخر:

صَدَّت أُمامةُ لَمَّا جئتُ زائرَها ... عنِّي بمَطْروفةٍ إنسانُها غَرِقُ[٤]
وراعها الشيبُ في رأسي فقلتُ لها ... كذاك يَصفرُّ بعد الخُضْرة الوَرَق

وقال العَلويّ:

عَيَّرْتني بشَيْب رَأْسي نَوارُ ... يا بنةَ العمِّ ليس في الشّيب عارُ
إنما العارُ في الفِرار من الزَّحْف ... إذا قِيلَ أينَ أينَ الفِرار

ومن قولنا في الشّيب:

بَدا وضحُ المَشيب على عِذَارِي ... وهل ليلٌ يكونُ بلا نَهارِ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٧/ ٤٠. وصححه الشيخ الألباني انظر الصحيحة [٩٥٣] وصحيح الجامع [٣٦١٥]. وقال الشيخ الحوت: له عدة طرق منها مرسل ومنها مرفوع فهو حسن. انظر أسنى المطالب [٧٩٧].

(٢) مهيع، أي واضح. (٣) الزور: أي الزائر.

(٤) المطروفة: العين أصابها شيء فدمعت. والإنسان: المثال يرى فى سواد العين.

وألْبسني النُّهى ثوباً جديداً ... وجَرَّدني من الثَّوْب المُعار
شَرَيتُ سوادَ ذا ببياض هذا ... فبَدَّلتُ العِمامةَ بالخِمَار
وما بِعْتُ الهوَى بَيْعاً بشَرط ... ولا استثنيتُ فيه بالخِيَار

ومن قولنا فيه:

قالوا شَبابُك قد وَلَّى فقلتُ لهم ... هل من جديدٍ على كَرِّ الجَديدَيْن
صِلْ من هَويتَ وإن أبدى مُعاتبةً ... فأَطيبُ العَيْش وصلٌ بين إلْفَين
واقطَعْ حَبَائلَ خِدْنٍ لا تُلائمهُ ... فربَّما ضاقتِ الدُّنيا على اثنين

ومن قولنا فيه:

جارَ المَشيبُ على رَأسي فَغَيَّره ... لَمَّا رَأى عندنا الحُكَّامَ قد جارُوا
كأنَّما جُنَّ ليلٌ في مَفارقه ... فاعتاقه[1] من بَياض الصُّبْح إسفار

ومن قولنا فيه:

سَوادُ المَرْء تُنْفِدُه اللَّيالي ... وإنْ كانت تَصير إلى نَفَادِ
فأسودُه يعود إلى بَياض ... وأبيضُه يَعود إلى سَواد

ومن قولنا أيضاً:

أطلالُ لَهْوك قد أقْوَتْ مَغانيها ... لم يَبْق من عَهدها إلا أثافيها
هذي المَفارقُ قد قامت شواهدُها ... على فَنائك والدُّنيا تُزَكِّيها
الشَّيبُ سُفْتَجة فيها مُعَنْونة ... لم يَبْق للموتِ إلّا أن يُسحِّيها[2]

ومن قولنا أيضاً:

نُجومٌ في المَفارق ما تَغُور ... ولا يَجْري بها فلكٌ يَدُورُ
كأنّ سَواد لِمَّته ظلامٌ ... أغارَ من المَشيب عليه نُور
ألا إن القَتيرَ وَعيدُ صِدْق ... لنا لو كان يَزْجُرنا القَتير[3]

---

(١) اعتاقه: عاقه.

(٢) يقال: سحى القرطاس، إذا أخذ منه سحاءة، والسحاءة: ما يقشعر عنه.

(٣) القتير: رؤوس مسامير حلق الدروع، يشبه به الشيب إذا نقب في سواد الشعر.

نذيرُ الموت أرسلَه إلينا ... فكذَّبنا بما جاء النّذير
وقُلنا للنُّفوس لعلَّ عُمْراً ... يطول بنا وأطولُه قَصير
متى كُذبتْ مواعدُها وخانت ... فأوَّلُها وآخرُها غُرور
لقد كان السُلُوُّ يُميت شَوْقي ... ولكِنْ قَلّما فُطِمَ الكبير
كأني لم أرُق بل لم تَرُقْني ... شُموسٌ في الأكِلَّة أو بدُور
ولم ألقَ المُنَى في ظلِّ لَهْوٍ ... بأقمارٍ سحائبُها السُّتور

ولآخر:

والشّيبُ تَنْغيصُ الصِّبا ... فاقضِ اللبابةَ في الشَّبابْ

وقال ابن عبّاس: الدنيا الصحّة والشباب. ولبعضهم:

في كل يومٍ أرى بيضاء قد طَلَعت ... كأنما طَلعت في ناظِر[1] البَصرِ
لَئن قَصَصْتُكِ بالمِقْراضِ عن نَظري ... لَما قَصَصْتُكِ عن هَمّي ولا فِكَري

ولابن المُعتزّ:

جاء المَشيب فما تَعسْتُ به ... ومَضى الشَّباب فما بُكايَ عليْه

وقال أيضاً:

ماذا تُريدين من جَهْلي وقد غَبَرت ... سِنُوُّ شَبابي وهذا الشَّيبُ قد وَخَطَا
أُرفِّع الشَّعرةَ البَيْضاءَ مُلْتقطاً ... فيُصْبِح الشَّيبُ للسوداء مُلتقطا
وسوف ـ لا شك ـ يُعييني فأتْركه ... فطالما أعْمِل المِقْراضَ والمُشُطا

الشباب والصحة

قال أبوعمرو بن العَلاء: ما بَكت العربُ شيئاً ما بكت الشباب، وما بلغت به ما يستحقه. وقال الأصمعي: أحسن أنماط الشِّعر المراثي والبُكاء على الشباب. وقيل لكُثَيِّر عَزَّة: ما لك لا تقول الشعر؟ قال: ذهب الشبابُ فما أطرب، ومات عبدُالعزيز

(١) الناظر: النقطة السوداء التي في العين. ونُسِبَ هذا الشعر لأبي دلف.

فما أرْغب. وقال عبدُالله بن عباس: الدُّنيا العافية، والشّباب الصحة. وقال محمود الورّاق:

أليس عجيباً بأن الفتى ... يُصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ له مُوجَع ... وبين مُعَزٍّ مُغذٍّ[1] إليه
ويَسْلُبه الشيبُ شَرْخ الشبا ... ب فليس يُعزِّيه خَلْقٌ عليه

وقال ابن أبي حازم:

ولَّى الشَّبابُ فخَلِّ الدَّمعَ ينْهملُ ... فَقْدُ الشَّباب بَفقْدِ الرُّوح مُتَّصلُ
لا تُكْذَبنَّ فما الدُّنيا بأجمعها ... منَ الشَّباب بيومٍ واحدٍ بَدَل

وقال جرير:

وليَّ الشبابُ حَميدةً أيامُه ... لو كان ذلك يُشْترى أو يُرْجَعُ

وقال صريعُ الغواني:

واهاً لأيام الصِّبا وزمانه ... لو كان أَسْعفَ بالمُقام قليلا
سَلْ عيشَ دَهْرٍ قد مَضتْ أيامُه ... هل يَسْتطيعُ إلى الرُّجوع سَبيلا؟!

وقال الحسنُ بن هانيء:

وأراني إذ ذاك في طاعة الجَهْـ ... ـل وَفَوْقي من الصِّبا أُمراء
تِرْبَ عَبْث لرَيْطتي فَضْلُ ذَيْل ... ولرأسي ذُؤابةٌ فَرْعاءُ
بقناعٍ من الشَّباب جديدٍ ... لم تُرَقَّعه بالخِضاب النِّساء
قبل أنْ يَلْبَس المَشيبَ عِذاري ... وتُبلَّى عمامتي السَّوداءُ

وقال أعرابيّ:

لله أيامُ الشباب وعَصره ... لو يُستعار جديدُه فيُعارُ
ما كان أقصرَ ليلَه ونَهَارَه ... وكذاك أيامُ السُّرور قِصارُ

ومن قولنا في الشباب:

ولّى الشبابُ وكنتَ تَسْكُنُ ظِلّه ... فانظُر لنفسك أيَّ ظلٍّ تَسكنُ

(١) مغذ، من الإغذاذ، وهو الإسراع. وقد نسبت هذه الأبيات في الشهاب لابن أبي حازم.

ونَهى المَشيبُ عن الصِّبا لو أنّه ... يُدْلي بحُجَّته إلى مَنْ يَلْقن[١]

ومن قولنا فيه:

قالوا شبابُك قد مضتْ أيامُه ... بالعيش قلتُ وقد مضت أيّامي
لله! أيَّةُ نعمةٍ كان الصّبا ... لو أنها وُصلت بطول دوام
حَسرَ المشيبُ قِناعَه عن رأسه ... وصَحَا العواذلُ بعد طول مَلام
فكأنّ ذاك العيشَ ظلُّ غمامةٍ ... وكأنّ ذاك اللهوَ طيفُ منام

ومن قولنا فيه:

ولو شئتُ راهنتُ الصَّبابةَ والهوَى ... وأجريتُ في اللّذات من مائتين[٢]
وأسبلتُ من ثَوْب الشّباب وللصّبا ... عَلَيَّ رداءٌ مُعْلَم الطرَفَيْن[٣]

وقال آخر:

إن شرْخَ الشّبابِ والشّعر الأسْـ ... ـوَد ما لم يُعاصَ كان جُنونا[٤]

وقال آخر:

قالت عَهِدتُكَ مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشّبابَ جُنونٌ بُرؤُه الكِبَرُ[٥]

ومن قولنا في الشباب:

كنتُ إلْفَ الصِّبا فوَدَّعني ... وَداعَ مَن بانَ غيرَ مُنْصَرفِ
أيامُ لَهْوي كظِلِّ إسْحَلة ... وذا شَبابي كروضة أُنُف[٦]

ومن قولنا فيه:

شبابي كيف صِرْتَ إلى نَفَاد ... ويُدِّلتَ البياضَ منَ السَّوادِ

---

(١) اللقن: سرعة الفهم. والذي في اليتيمة: «يفطن».

(٢) من مائتين، يريد من مسافة بعيدة.

(٣) أسبل الثوب: أرخاه. وإعلام الثوب: رسمه وترقيمه.

(٤) شرخ الشباب: أوله. ويعاصي: يعصي. وهذا البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٥) نسب هذا البيت في المستطرف (ج٢ ص٤٠) للعتبي.

(٦) الإسحلة: واحدة الإسحل، وهو شجر يستاك به؛ وقيل هو شجر يشبه الأثل ويغلظ حتى تتخذ منه الرحال. وروضة أنف: لم ترع.

وما أَبْقى الحوادثُ منك إلاَّ ... كما أبقت من القمر الدَّآدي[١]
فراقُك عَرَّفَ الأحزانَ قلبي ... وفَرّق بين جَفْني والرُّقاد
فيا لِنَعيم عَيْشٍ قد تَوَلّى ... ويا لغليل حُزْنٍ مُسْتفاد
كأني مِنْك لم أَرْبَعْ بربْع[٢] ... ولم أَرْتَدْ به أَحْلَى مُراد
سَقى ذاك الثَّرَى ويْلُ الثُريّا ... وغادَى نَبْتَهُ صَوْبُ الغوادِي[٣]
فكم لي من غَليلٍ فيه خافٍ ... وكم لي مِن عَويلٍ فيه بادِي
زمانٌ كان فيه الرُّشد غَيًّا ... وكان الغَيُّ فيه من الرَّشاد
يُقبِّلني بدَلٍ من قَبُول ... ويُسْعدني بوَصْل من سُعاد
وأَجْنُبه فيُعْطِيني قِياداً ... ويَجْنُبني فأُعْطيه قِيَادي[٤]

الخضاب

قال النبي ﷺ: «**غيِّرُوا هذا الشّيب، وجنِّبوه السَّواد**»[٥]. **وكان أبوبكر يخضب بالحنّاء والكَتَم**[٦]. وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريته: قُومِي اخضبِي رأسي ولحيتي، فقالت: دَعْني، قد عَييت بها أُرقِّعك. فقال مالك بن أسماء:

(١) الدآدي (بالهمز وسُهِّلَ للشعر): ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالي المحاق، وقيل إنها هي؛ الواحدة: دأداءة. (٢) الربع: الدار. وربع بها، أي تقلب فيها حيث شاء.
(٣) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة، أو هي مطر الغداة.
(٤) أجنبه: أقوده وهو إلى جنبي. (٥) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما عن جابر بن عبدالله.
(٦) أخرجه مسلم من حديث أنس: «أن أبابكر خضب لحيته بالحناء والكتم. وأن عمر خضب لحيته بالحناء بحتاً وبحتاً»: أي صرفاً. وأخرجه الصنعاني عن عائشة في المصنف [٢٠١٧٨]. وروى النسائي عن أبي ذر وعن عبدالله بن بريدة رضي الله عنهما مرفوعاً: «إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم» كتاب الزينة (١٦) وأخرجه الترمذي عن أبي ذر وصححه. والكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر. كما يستخدم مداداً للكتابة إذا طبخ بالماء. وقال الحافظ ابن حجر: الكتم نبات باليمن يخرج الصبغ أسود يميل إلى الحمرة، وصبغ الحناء أحمر، فالصبغ بهما يخرج بين السواد والحمرة (الفتح ١٠/ ٣٧٦).

عَيَّرْتني خَلَقاً أبليتُ جِدَّته ... وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً

ودخل أبوالأسود الدُّؤلي على معاوية وقد خضب، فقال: لقد أصبحت ياأبا الأسود جميلاً، فلو عَلَّقت تميمة. فأنشأ أبوالأسود يقول:

أفْنى الشّبابَ الذي فارقتُ بهجته ... مَرُّ الجديدين[1] من آتٍ ومُنْطلق

لم يُبْقيا لي في طُول اختلافهما ... شيئاً يُخاف عليه لذْعةُ الحَدَق

وذُكر عن الأصمعي قال: بلغني عن بعض العرب فصاحةٌ، فأتيتُه فوجدتُه يخضب، فقال: يابن أخي، ما الذي أقصدك إليَّ؟ قلت: الاستئناس بك والاستماع من حديثك، قال: يابن أخي، قصدتني وأنا أخضب، والخضاب من مقدمات الضعف، ولطالما فَزَّعْتُ الوحوش، وقُدْت الجيوش، ورَوَّيْتُ السَّيف، وقَرَيت الضَّيف؛ وحَميتُ الجارَ، وأبيتُ العَار؛ وشربت الرَّاح، وجالست المِلاح، وعاديت القُروم[2]، وعَلَوتُ للخُصوم؛ واليوم يابن أخي الكِبَرُ وضعفُ البصر، تَركا من بعد الصفو الكدر، وأنشأ يقول:

شَيْبٌ نُعَلِّله كيما نُسرّ به ... كهيئة الثَّوب مَطْويًّا على خِرَق

فكنتُ كالغُصْن يَرْتاح الفؤادُ به ... فصرْتُ عُوداً بلا ماء ولا وَرق

صبْراً على الدَّهر إن الدهر ذو غِيَرٍ ... وأَهْلُه منه بين الصَّفو والرَّنَق[3]

وقال محمود الورّاق في الخِضَاب:

للضَّيف أن يُقْرَى ويُعْرفَ حقُّه ... والشَّيبُ ضيفُك فاقْره بخِضَاب

وافَى بأكذَب شاهدٍ ولربَّما ... وافَى المَشيبُ بشاهدٍ كذّاب

فافْسَح شهادتَه عليك بخَضْبه ... تَنْفي الظُّنون به عن المُرْتاب

فإذا دنا وَقْتُ المَشيب فخلِّه ... والشّيبَ يذهبُ فيه كلَّ ذَهاب

وقال غيره:

بَكَرتْ تُحسِّن لي سوادَ خِضابي ... لكأنَّ ذاك يُعيدني لشَبابي

---

(١) الجديدان: الليل والنهار.
(٢) القروم: السادة؛ الواحد: قرم (بالفتح).
(٣) يقال: رنق الماء رنقاً (من باب فرح)، إذا كدر.

وإذا أديمُ الوَجْه أَخْلَقه البِلَى ... لم يُنْتَفَع فيه بحُسْن خِضاب
ماذا تُرَى يُجْدِي عليك سوادُه ... وخلافُ ما يُرْضيك تحت ثِيابي
ما الشَّيبُ عندي والخضاب لواصِفٍ ... إلا كَشَمس جُلِّلت بسَحاب
تَخْفَى قليلاً ثم تَقْشَعُه الصَّبا[1] ... فيصيرُ ما سُتِرَت به لِذَهاب

ومن قولنا في هذا المعنى:

أَصَمَّمَ في الغَواية أم أنابا ... وشَيبُ الرّأس قد خَلَس الشَّبابا
إذا نَصَلَ الخِضابُ بَكى عليه ... ويضحك كلما وَصَل الخضابا
كأن حمامةً بيضاءَ ظَلَّت ... تُقاتل في مَفارقه غُرابا

فضيلة الشيب

قال النبي ﷺ: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نُوراً يومَ القيامة»[2]. وقال ابنُ أبي شَيبة: نهى رسولُ الله ﷺ عن نَتْف الشَّيب، وقال: «هو نُور المؤمن»[3]. وقالوا: أوَّل من رأى الشيب إبراهيم خليل الرحمن فقال: يارب، ما هذا؟ قال له: هذا الوقار؛ قال: ربِّ زدني وقاراً.

وقال أبونُواس:

يقولون في الشَّيب الوقارُ لأهْلِه ... وشَيبي بحمد الله غيرُ وَقارِ

---

(١) تقشعه: أي السحاب.

(٢) رواه النسائي / كتاب الجهاد (٢٦) والترمذي / باب ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله (١٦٣٤) عن كعب بن مرة.

(٣) رواه الإمام أحمد [٢/٢٠١] والنسائي / كتاب الزينة (١٣) بنحوه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
وقال العراقي: أخرجه أبوداود والترمذي وحسَّنه والنسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣٤٨).

وقال غيرُه:

يقولون هل بعد الثلاثينَ مَلْعبٌ ... فقلت وهل قَبْلَ الثلاثين مَلْعَبُ
لقد جلَّ قدر الشيب إنْ[1] كان كُلّما ... بَدت شَيْبةٌ يعرَى من اللَّهو مَرْكبُ

وقال محمود الوراق:

وعَائبٌ عابني بشَيْبٍ ... لم يَعْدُ، لمَّا ألَمَّ وقْتُه
فقلت للعائبي بشيبي ... يا عائبَ الشَّيب لا بَلغتَه

أنشدني أبو عبدالله الإسكندراني، معلِّم الإخْوة:

وممّا زادَ في طُول اكتئابي ... طلائعُ شَيْبَتين ألَمَّتا بي
فأمّا شَيبَةٌ ففزعتُ فيها ... إلى المِقْراض من حُبِّ التَّصابي
وأما شَيْبةٌ فَعَفَوتُ عنها ... لتَشْهد بالبَرَاء من الخِضابَ

كبر السن

قيل لأعرابي قد أخذته كَبْرة السِّن: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ تُقيِّدني الشَّعرةُ، وأعثُر بالبَعْرة، قد أقام الدهرُ صَعَري[2]، بعد أن أقمتُ صَعَره. وقال آخر: لقد كنتُ أُنْكِر البيضاء، فصِرْت أُنْكِر السوداء، فيا خير مَبْدول ويا شرَّ بَدَل. ودخل[3] المُسْتَوْغِر بن ربيعة على معاوية بن أبي سفيان وهو ابنُ ثلثمائة سنة، فقال: كيف تَجدك يا مُسْتَوغر؟ فقال: أجدني يا أميرَ المؤمنين، قد لان مِنّي ما كنتُ أحبُّ أن يشتد، واشتدّ منّي ما كنتُ أُحبُّ أن يَلين، وأبيضّ مني ما كنتُ أحبُّ أن يسوّد، واسوَدّ مني ما كنتُ أحبّ أن يَبْيضّ، ثم أنشأ يقول:

سلْني أنَبِّئْكَ بآياتِ الكِبَرْ ... نومُ العِشَاءِ وسُعالٌ بالسَّحَرْ

(١) يجوز في همزة «إن» هذه الفتح على أن تكون مصدرية والكسر على أن تكون شرطية.
(٢) الصعر: إمالة الخد تكبراً.
(٣) ذكر هذا الخبر في عيون الأخبار (ج٢ ص٣٢١) بين عبدالملك بن مروان والعريان بن الهيثم.

وقلة النَّوم إذا الليلُ اعْتَكر وقلة الطُّعم إذا الزَّاد حَضرَ
وسُرْعة الطَّرف وتَحْميجُ[١] النَّظَر وتَرْكُكَ الحسناء في قُبْل الطُّهُر[٢]
والناسُ يَبْلَوْن كما يَبْلى الشَّجَر

وقال أعرابي:

أشْكو إليك وَجعاً بركبتي وهَدَجاناً[٣] لم يَكُن في مِشْيتي
كهدجان الرَّأل خَلْف الهَيْقَتِ[٤]

وقال آخر[٥]:

ولِلكبير رَثَياتٌ[٦] أرْبَعُ الرُّكَبتان والنَّسا والأخْدع[٧]

وقال جرير:

تَحِنُّ العِظام الرَّاجِفَاتُ من البِلَى ولَيْس لداء الرُّكْبتين طبيبُ

ودخل الشعبي على عبدالملك بن مَرْوَان، فوجده قد كبا مُهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: يا شَعبيّ، ذكرتُ قولَ زُهير[٨]:

كأنّي وقد جاوزتُ سبعين حجَّةً خلعتُ بها عنّي عِذَارَ لجامي[٩]
رَمَتني بناتُ الدَّهر[١٠] من حيث لا أرى فكيف بمن يُرْمى وليس بَرَامي

---

(١) التحميج: تصغير العين لتمكينها من النظر.
(٢) قبل الطهر، أي أوله.
(٣) الهدجان: مشي رويد في ضعف.
(٤) الهيقة: أنثى النعام. وصيّر هاء التأنيث تاء في المرور عليها، أي للروي. والزأل: ولدها.
(٥) هو جواس بن نعيم، أحد بني الهجيم بن عمرو بن تميم، ويعرف بابن أم نهار، وأم نهار هي أم أبيه.
(٦) الرثيات: جمع رثية، وهي ضعف، وقيل داء يعرض في المفاصل.
(٧) النسا: عرق من الورك إلى الكعب. والأخدع: أحد عرقين في جانبي العنق قد خفيا. وقد جاء في اللسان بعد هذا البيت:

ولا يزال رأسه يُصَدَّعُ وكل شيء بعد ذاك يَيْجَعُ

(٨) القائل هو عمرو بن قميئة لا زهير. انظر الشعر والشعراء في ترجمة عمرو بن قميئة.
(٩) عذار اللجام: السيران اللذان يجتمعان عند القفا، وقيل هو ما سال منه على خد الفرس. وخَلْعُ عذار اللجام عن الفرس لا يكون إلا مع ضعفه وذهاب فتوته وحين يقدر عليه بغير العذار.
(١٠) بنات الدهر: حوادثه وصروفه ومصائبه.

فلو أنني أُرْمَى بِنبْلٍ رأيتها ... ولكنَّني أُرْمَى بغير سِهام
على الراحتين تارةً وعلى العصا ... أُنوءُ ثلاثاً بعدهنَّ قيامي

قال له الشَّعبيُّ: ليس كذلك يا أميرَ المؤمنين، ولكن كما قال لَبيدُ بن ربيعة، وقد بلغ سبعين سنة:

كأني وقد جاوزتُ سَبْعينَ حجَّةً ... خلعتُ بها عن مَنْكِبَيَّ رِدَائيا

فلما بلغ سبعاً وسبعين قال:

باتت تشكَّى إليَّ النفسُ مُجهشةً[1] ... وقد حملتُكِ سبعاً بعد سَبْعيناً
فإن تُزَادِي ثلاثاً تَبْلُغني أملاً ... وفي الثلاثِ وفاءُ للثّمانينا

فلما بلغ مائة سنة قال:

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولها ... وسؤال هذا الخَلْق كيف لَبِيدُ

فلما بلغ مائة سنةٍ وعشراً قال:

أليس في مائةٍ قد عاشها رجُلٌ ... وفي تكامُل عَشْرٍ بعدها عُمُرُ

فلما بلغ ثلاثينَ ومائةً وقد حضرَتْه الوفاة قال:

تمنَّى ابنتاي أن يَعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من رَبيعةَ أو مُضَرْ
فقوما وقُولا بالذي تَعْلمانه ... ولا تَخْمِشَا وَجْهاً ولا تَحْلقا شَعَر
وقولا هو المرءُ الذي لا صَديقَهُ ... أضاعَ ولا خانَ الخليلَ ولا غَدر
إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتذَر

قال الشعبي: فلقد رأيتُ السرورَ في وجه عبدالملك طمعاً أن يعيشها.

وقال لبيدٌ أيضاً:

ألَيسَ ورائي إن تراختْ مَنيَّتي ... لزوم العصا تُحْنَى عليها الأصابعُ
أُخَبِّرُ أخبارَ القُرون التي مَضت ... أَدِبُّ كأنّي كلما قمتُ راكِعُ
فأصبحتُ مثلَ السيفِ أَخْلقَ جَفْنَه ... تَقادمُ عهدِ القَينِ[2] والنَّصلُ قاطِعُ

---

(١) مجهشة، أي فزعة تريد البكاء.

(٢) القين: الحداد؛ أي أنه مر على صنعه أمدٌ بعيد.

وقالوا: مكتوبٌ في الزّبور: من بلغ السَّبعين اشتكى من غير عِلَّة. وقال محمد بن حسَّان النبطي: لا تسأل نفسك العامَ ما أعطتك في العام الماضي. وقال معاوية لما أسنَّ: ما مرَّ شيءٌ كنتُ أستلذّه وأنا شاب فأجده اليوم كما أجده إلا اللبن والحديث الحسن. عاش ضرارُ بن عمرو حتى ولد له ثلاثة عشر ذكراً، فقال: من سَرَّه بنوه ساءته نفسه. وقال ابن أبي فَنن[1]:

من عاش أخلقتِ الأيامُ جِدَّتَهُ ... وخانَه ثِقَتاه السَّمْعُ والبصرُ
قالت عَهِدتُك مجنوناً فقلتُ لها ... إن الشبابَ جنونٌ بُرْؤُه الكِبَر

قال أبوعبيدة: قيل لشيخ: مابقي منك؟ قال: يسبقني مَنْ بين يدي[2] ويُدركني مَنْ خلفي، أذكر القديم، وأنسى الحديث، وأنْعسِ في الملا، وأسهر في الخَلا، وإذا قمتُ قربتِ الأرض مني، وإذا قَعَدتُ تباعدت عني.

قال حميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد صحَّةٍ ... وحسبُك داءً أن تصحَّ وتسْلَما

وقال آخر[3]:

كانت فتاتي لا تلِينُ لغامزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمساء
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ... ليصحَّني فإذا السلامةُ داء

وقال أبوالعتاهية [ويروى للقَطُامي]:

* أسْرَع في نَقْصِ امريء تمامُه *

وقالت الحكماء: ما زاد شيءٌ إلا نَقَص، ولا قام إلا شَخَص[4]. وقال بعض المحدثين:

---

(١) كذا في عيون الأخبار (ج٢ ص٣٢٠). ونهاية الأرب (ج٣ ص٩٣). وهو أحمد بن صالح بن أبي معشر، مولى المنصور. والذي في أ، ي: «ابن أبي قيس» والذي في سائر الأصول: «ابن أبي متى».

(٢) كذا في عيون الأخبار. والذي في الأصول «أمامي» مكان «بين يدي».

(٣) هو عمرو بن قميئة كما في زهر الآداب.

(٤) شَخَص، أي ذهب وانتقل.

ألَسْتَ تَرى أن الزمان طواني ... وبدَّل عقلي كله ويَرَاني
تَحَيَّفَني[1] عُضْواً فعُضْواً فلم يَدَعْ ... سوى اسمي صحيحاً وحدَه ولسانَي
ولو كانت الأسماء يَدْخلها البلىٰ ... إذاً بَلِيَ اسمي لامتدادِ زماني
وما لِيَ لا أَبْلَى لِسَبْعينَ حِجَّةً ... وسَبْعٍ أتَتْ من بعدها سنتان
إذا عَنَّ لي شيءٌ تخيَّل دونه ... شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخان

وقال الغزّال:

أصبحتُ والله مَحْسوداً على أمدٍ ... مِنَ الحياة قَصيرٍ غير مُمْتَدِّ
حتى بقيتُ بحمد الله في خَلَفٍ ... كأنّني بينهم من وَحْشَةٍ وَحْدي
وما أُفارق يوماً من أُفارقه ... إلا حَسِبْتُ فِراقي آخرَ العَهْد

وقال آخر:

يا مَن لشيخٍ قد تَخَدَّد[2] لحمُهُ ... أَفنى ثلاثَ عمائمٍ ألواناً
سوداءَ حالكةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ[3] ... وأجدَّ لوناً بعد ذاك هِجَانَا[4]
قَصَرَ الليالي خَطْوَهُ فَتَدَانى ... وحَنَيْنَ قائم صُلبه فتحانَى
والموتُ يأتي بعد ذلك كلِّه ... وكأنما يُعْنَى بذاك سِوَانا

وقال سُفيان الثّوري في مَدْح كِبَره:

إنّي وإن كان مَسَّني كِبَرٌ ... على ماقد تَرَيْن من كِبَرِي
أَعرَفُ من قبل أن تُفَارِقَني ... موقعَ سَهْمِي والسهمُ في الوتَر

---

(١) تحيَّفه: تنقصه من حيفه، أي نواحيه.
(٢) تَخَدَّد لحمه: هزل ونقص.
(٣) السَّحْق: الثوب البالي. والمُفَوَّفُ من البرود ما فيه خُطُوط بيض، يُشَبِّه به شعر الرأس حين يخالط سواده بياض الشيب أول ما يبدو.
(٤) الهجان: الخالص البياض.

من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه

كان حراثةُ بن بدر الغُدَانيّ[١] فارسَ بني تميم، وكان شاعراً أديباً ظريفاً، وكان يُعاقر الشَّرابَ ويصحب زياداً، فقيل لزياد: إنك تصحب هذا الرجل وليس من شاكلتك، إنه يُعاقر الشراب. فقال: كيف لا أصحبه، ولم أسأله عن شيء قطُّ إلا وجدتُ عنده منه علماً، ولا مشى أمامي فاضطرَّني أن أُناديَه، ولا مشى خلفي فاضطرَّني أن أَلتفتَ إليه، ولا رَاكَبَني فمسَّتْ رُكْبتي رُكْبَتَه[٢]. فلما هلك زيادٌ قال حارثُة بن بَدْر يَرْثيه:

أبا المُغيرَةِ والدُّنيا مُغَرِّرَةٌ ... وإنَّ مَن غَرَّت الدُّنيا لَمَغْرورُ
قد كان عِنْدك للمَعْروف مَعْرفَةٌ ... وكان عندك للتَّنْكير تَنْكير
لو خَلَّدَ الخيرُ والإسْلامُ ذَا قَدَمٍ ... إذاً لخلَّدَك الإسلامُ والخيْر

وتمامُ هذه الأبيات قد وقعتْ في الكتاب الذي أَفْردناه للمَرَاثي. وكان زياد لا يُدَاعب أحداً في مجلسه ولا يَضْحَك، فاختصم إليه بنو راسِب وبنو الطُّفَاوَة في غُلام أَثْبته هؤلاء وهؤلاء، فتَحَيَّر زيادٌ في الحُكم. فقال له حارثةُ ابن بدر: عِنْدي أكرمَ الله الأميرَ في هذا الغلام أمرٌ، إن أَذِن الأميرُ تكلّمت به فيه؟ قال: وما عندك فيه؟ قال: أرى أن يُلْقَى في دِجْلة فإن رَسَب فهو لِبَني راسِب، وإن طفا فهو لبني الطُّفَاوَة، فتبسَّم زياد وأَخَذَ نَعْليه ودخل، ثم خَرج، فقال لحارثة: ما حَمَلك على الدُّعابة في مَجلسي؟ قال: طيِّبَةٌ حضرتني أبقى الله الأمير خِفْت أن تَفُوتني. قال: لا تعُدْ إلى مثلها.

وكان ابن الوليد البَجَليّ، وهو ابنُ أخت خالد بن عبدالله القَسْرِيّ، وَلي

---

(١) كذا في معجم البلدان وعيون الأخبار والأغاني. والذي في الأصول: العدواني، وهو تحريف.

(٢) لا يحتج بفعل زياد لأنه مخالف للنهج الذي سار عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فالخليفة عمر رضي الله عنه يعزل أحد عماله لقوله شعراً يصف فيه لذة الخمر، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقيد أباالمحجن الثقفي ويحبسه عن الجهاد عندما لم يمتنع عن معاقرة الشراب.

أصبهان، وكان رجلاً مُتَسَمِّتاً[١] مُتَصَلحاً، فقدمَ عليه حمزةُ بن بيض بن عوف راغباً في صُحْبته، فقيل له: إن مثل حمزة لا يَصْحب مثلَك، لأنه صاحبُ كلاب ولهو، فبعث إليه ثلاثة آلاف دِرْهم وأمره بالانصراف. فقال فيه:

يابنَ الوليد المُرْتَجَى سَيْبُهُ ... ومن يَجَلِّى الحَدَث الحالِكا
سبيلُ معروفك منِّي علَى ... بالٍ فما بالي عَلَى بالِكا
حَشْوُ قميصي شاعرٌ مُفْلِقٌ ... والجودُ أَمْسى حَشْو سِرْبالِكا
يلومك النَّاسُ على صُحْبتي ... والمِسْكُ قد يستصحب الرامِكا[٢]
إن كنت لا تصحب إلا فتىً ... مثلك لن تؤْتَى بأمثالِكا
إني امرؤ جئتُ أريد الهُدَى ... فعُد على جهلي بإسلامِكا

قال له: صدقتَ، وقرَّبه وحَسُنت منزلته عنده.

قولهم في القرآن

كتب المريسي إلى أبي يحيى منصور بن محمد: اكتب إليَّ: القرآنُ خالق أو مخلوق؟ فكتب إليه: عافانا الله وإيَّاك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهل السُّنة، وممن لا يرغب بنفسه عن الجماعة، فإنه إن تفعل فأعْظِمْ بها منَّة، وإن لا تفعل فهي الهَلَكة، ونحن نقول: إن الكلامَ في القرآن بدعة، يتكلَّف المُجيبُ ما ليس عليه، ويتعاطى السائل ما ليس له، وما نعلم خالقاً إلا الله، وما سِوى الله فمخلوق، والقرآن كلام الله، فانْتَه بنفسك إلى أسمائه التي سمَّاه الله بها فتكونَ من المُهتدين، ولا تُسَمِّ القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون.

---

(١) متسمتاً: أي متعبداً.

(٢) الرامك (كصاحب ويفتح): شيء أسود يخلط بالمسك.